

AMERICAN UNIV. IN CAIRO LIBRARY



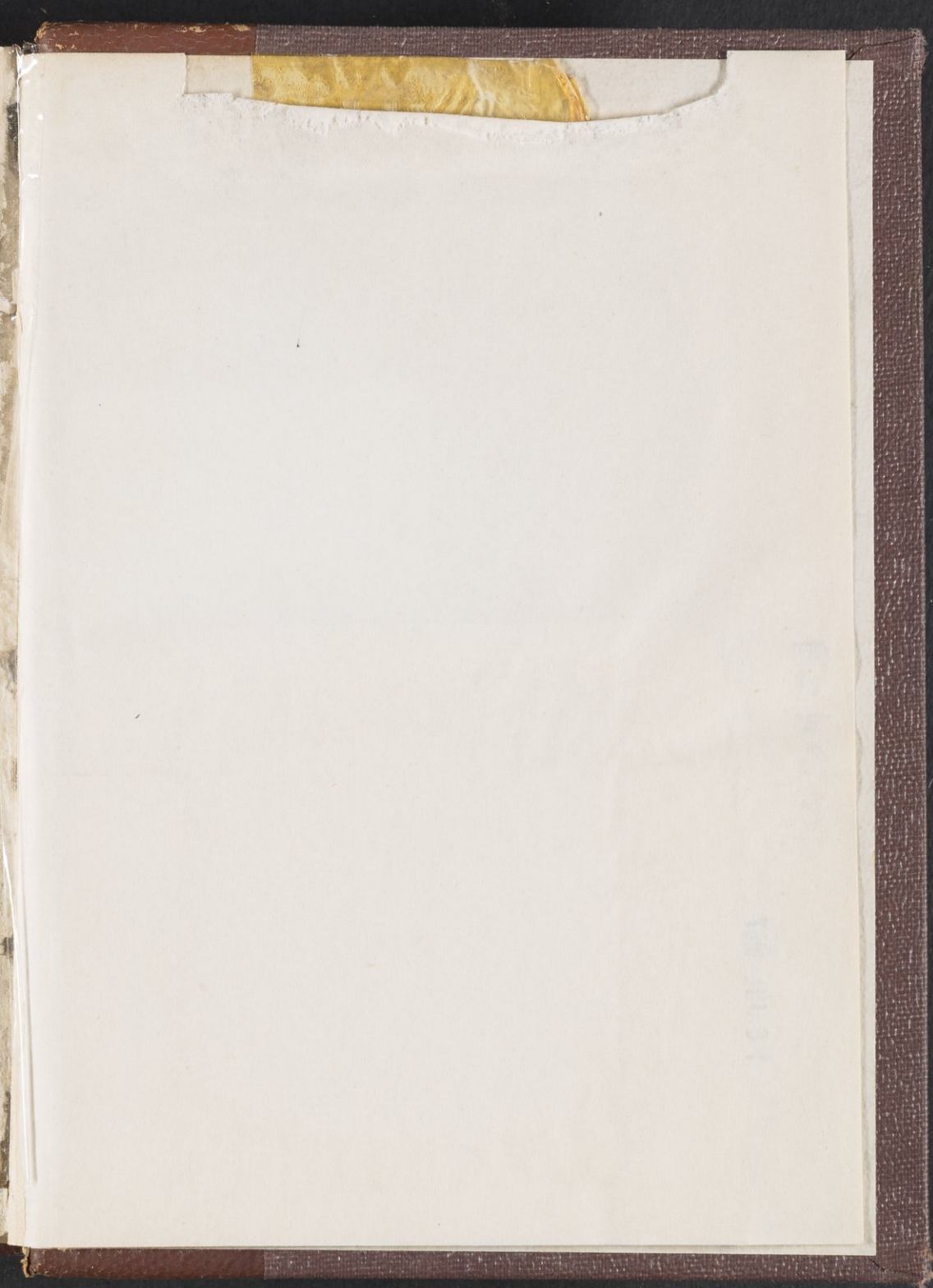
3 8534 01076 7790



7- MAR 1979

16 JUL 1987

PJ
7810
F5
R5
1943
c.2



٨١٢, ٦

ع. ز.

٢٠

زِينَات

تأليف
حسين عفيف

مكتبة النهضة المصرية

PJ CAFIF, Husayn

7810 Zīnāt

F5

R55

1946

رواية

زِينَات

أو

التكفير

كانوا وكنا،
والردى سبقونا.

فازت في مسابقة وزارة المعارف للقصة

تأليف

مسيب عفيف

الطبعة الثانية

ملتزم الطبع والنشر مكتبة النهضة المصرية

٩ شارع عدلى باشا بالقاهرة

مطبعة المؤلف والترجمة والنشر

١١٣, ٦

٢٤. ٢

٢٤

الطبعة الثانية

١٩٤٦

٦٩٤٥٥

الهداء

إلى ذلك الحلم القديم

ليس أدبا ما خلا من الأنفاس.

حسين عفيف

الفصل الأول

« زيناتُ » جافاها النوم . شئ تَجْهَلُهُ بَلْبَلَ فِكْرُهَا ،
مذ علمتْ بأن « مختاراً » في طريقه إلى مصر .
ومختارٌ هو ابن عمها ، مات أبواه وهو لم يزل في
المهد ، فكفله أبوها وآواه في بيته ، حتى إذا ما سَلَخَ
في دراسة الطب مرحلة - وكانت يومئذ في الثالثة عشرة
من عمرها - أرسله إلى أوروبا ليُتِمَّ دراسته .

. . .

زيناتُ جافاها النوم . ومنذ الصباح فاض نشاطها .
فهي دائماً التَّطَوَّافُ في حَجَرِ البيت ، لا تدخل حجرة
إلا لتبرحها إلى غيرها ، ولا ترمي على مقعد إلا لتَهَبَّ منه
واقفة . وعندما جلستُ إلى البيان تعزف « فالس »
الدانوب الأزرق ، قامت دون أن تكمل أغنيَتها المحبوبة .
كانت تحس بقوة تدفعها ، ولكن لا تدري إلى أين .
والذي لا يعرف وجهته لا يقرُّ في مكان ، لأنه لا يلبث

أن ينهض ليُتَمَّ البحث . كانت قد شربت من كأسٍ
سحرية ضاعفت في شرايينها الحياة ، ولا تدرى من أى
فردوس جاءوا بالكرمة التى عَصروا منها خمرها .

فلما أتى المساء وأرادت أن تعتقل هذا النشاط
خلف أسوار الكرى ، حَطَّم الأسوار واندفع يتألق
فوق عينيها الساهرتين . وزاد أن أُسْرِى بها فى الليل
مسافات ، إلى أن حَلَّق فوق الباخرة « سوسن » ، التى
تُقِلُّ العائدين من أوربا . فرأى تسير مُرَيَّنةً فوق
العباب ، وأحست بنسيم البحر البارد يلطم خدها ،
ونشقت رائحة الملح المذاب فيه .

...

دقت الساعة منتصف الليل ، وما تزال زيناتُ
يجافىها النوم . وهذى حَمَاماتُ الكرى تحلق فوق
أهدابها وتأبى أن تهبط ، ثم تتجمع فى سربٍ جميل
وتخرج من النافذة . ثم ما تلبث أن تعود لتكرر ما فعلت .
غير أنها كانت كلما طافت بها ، جادت عليها بلهفةٍ من
طرف الجناح ينكسر لها جفنها الكحيل ، فتأخذها سِنَّةٌ

قصيرة ، ترى فيها الباخرة سوسنَ تترجرج فوق اللبجج ،
ومن بين ركبها فتى رسم الضنى عليه ظلاله الشاحبة ،
وهو يشخص ببصره إلى الشاطىء . ثم تفيق وتحتفى
الباخرة ، لتعود فتترأى لها فى الخيال سابحة فوق
بحور الغيب .

...

كل هذا كان يجرى وهى لا تفقه له معنى . لقد
كانت حديثة ، وتلُفُّها تلك الأكام التى تلُفُّ البراعم
فتحجب أسرارها . أجل ، فإن سبعة عشر عاماً لم
تكن كافية لتُفتِّح قلب زينات الغرير ، على الرغم
من ذلك الحب الذى كانت تحمل جرثومته طفلة ،
فظل ينمو فى مخبئه بعيداً عن مرمى بصرها ، كما
ينمو العطر السكين فى الزهرة ، فى انتظار اللحظة
التي تنفتح فيها ليفيض على حواشيها .

ولو أنها أمسكت بشمعةٍ ونزلت تنقَّب فى خفايا
نفسها ، لظفرت بالسِر كما يظفر الغواص بالآلى من أعماق

البحار . ولكنها كانت ترهب الظلام ، فأثرت أن تبقى
على السطح تتقاذفها أمواج الشكوك .

...

وأقبلَ الفجر يجرجر وراءه مواكب الضياء .
وتصايحت الديكة في زهوٍ كأنها موكولةٌ بإيقاظ
الكائنات ، وراحت تصُبُّ في سمع زيناتٍ أذناها
المنعش كأنه أقداح من القهوة . على حين تراحت العصافير
على الغصن المجاور لنافذة مخدعها ، وقد أخذت تثب
وتزقزق . وبين حينٍ وحين يلُوح منها في الجو مُجَنِّحٌ ،
أو يدخل الغرفة ضالٌّ ما يلبث أن يعود أدراجه .

ثم غرد بلبل . وغنت حمامةٌ وأجابها من أقصى
الروض قرى . كما جاءت يمامة فخطت على كوةٍ في
حائط قريب ، ومضت ترتل تساييحها القانتة . فكأنما
قلبُ الفجر محرابٌ وهي عبدة قائمٌ لصلاة .

وتسربت البهجة إلى قلب زينات ، وبددت
ما ساورها في وحشة الليل من قلق . فقامت فاغتسلت
بماء الصباح البارد ، ثم وقفت أمام المرأة ترجل شعرها .

وكان الضنى قد رقق لونها فأبان عن حسننها الروحاني .
 كما أذبل عينيها السهاد فزاد من فتورها الساحر .
 ولاحظت هي ذلك فابتسمت وودت لو عانقت نفسها .
 وإن من الجمال لَمَا يَسْبِي الحبيب . وإن منه لَمَا
 يُعْشَق حتى من نفسه . وكُلَّى مِنْ حِسَانٍ عَشَقْنَ
 أنفسهن وتدلَّهن . وكُلَّى مِنْهُن أَصَابَهَا مِنْ
 سَحَرهَا مَسْ .

وعادت تتلمى حسننها . وأخجلها أنه فضّاح .
 وكذلك يعلمُ الحسنُ الخجل .
 وإذا انتشت منه تَمَشَّى فِي لَحْظَهَا التَّيْه . وكذلك
 يعلمُ الحسنُ الدلال .

وسالت لهذا الحسن ينابيعُ قلبها . وفاض بها فضت
 تلمس إناء آخرَ تصب فيه . وكذلك يلد الجمالُ الحب .
 وكذلك أولُ ما يتعلم العذارى العشق في أنفسهن .
 وساقها كالطير إلهامٌ مبهم . فهامت على وجهها
 من وادٍ لواد . إلى أن استقر بها المطاف عند حديقة
 الدار فوقفت .

وَرَنْتُ إِلَى بَحِيرَةٍ مُخْضَلَّةٍ الشَّطَّانَ هُنَاكَ .
 وَكَانَ قَدْ انْعَقَدَ عَلَى مَائِهَا ضِبابُ الْفَجْرِ ، فَحَجَبَ بَرَاعِمَ
 اللُّوتُسِ النَّابِتَةِ عَلَى سَطْحِهَا . وَقَابَلْتُ بَيْنَ هَذَا الضِّبابِ
 وَضِبابِ نَفْسِهَا وَلَمْ تَفْهَمْ . وَقَابَلْتُ - وَلَمْ تَفْهَمْ أَيْضًا -
 بَيْنَ قَلْبِهَا الْمُغْمَضِ وَالْبَرَاعِمِ . فَارْتَمَتْ عَلَى مَقْعَدٍ قَرِيبٍ
 كَنَحْلَةٍ مَهِيضَةِ الْجَنَاحِ .

ثُمَّ سَطَعَتِ الشَّمْسُ ، وَأَخَذَتْ أَشْعَتُهَا تَتَلَصَّصُ
 خِلَالَ الْغُصُونِ ، وَتَمَزَّقُ الْأَكْمامَ مِنْ فَوْقِ الْبَرَاعِمِ الْأَمْنَةِ .
 وَرَاقَبْتُ الْفَتَاةُ تَفْتُحُهَا تَحْتَ أَنْامِلِ الضَّوْءِ . ثُمَّ
 أَحْسَسْتُ كَأَنَّمَا قَدْ تَسَلَّلَ إِلَى صَدْرِهَا شِعَاعٌ مِمَّا ثَلَّ ، وَأَخَذَ
 يَفْتَحُ الْبَرْعَ النَّابِتَ فِيهِ . وَخِيلَ لَهَا أَنَّهَا تَسْتَمِعُ إِلَى
 صَوْتِ أَكْمامِهَا وَهِيَ تَتَمَزَّقُ ، فَتَسْرِقُ الْأَشْعَةُ أَسْرَارَهُ
 الْمَعْطَرَةَ وَتَلْقِي بِهَا عَلَى جَوَانِبِهِ .

وَفَاحَ الْعَطَرُ مِنْ أَعْمَاقِ زِينَاتِ حَتَّى وَصَلَ إِلَى أَنْفِهَا
 فَأَسْكُرَهَا . وَفِي غَمْرَةِ هَذِهِ السَّكْرَةِ حَدَثُهَا بِكُلِّ شَيْءٍ .
 فَلَمَّا انْتَبَهَتْ أُيْقِنَتْ أَنَّهَا بَدَأَتْ تَدْرِكُ .
 وَرَجَعَتْ بِهَا الذِّكْرَى أَرْبَعَةَ أَعوَامٍ ، حِينَ كَانَتْ

تجلس ومختاراً في هذه الحديقة ينسقان الزهر الذي جمعه
 في البكور وينظمان منه عقوداً تُحَلَّى بها جيدها .
 يومئذ كانت تحس في جواره كأن شيئاً يسرق روحها .
 وعندما سافر خيل لها أنها شيعت هذه الروح ، وصامت
 عن الأكل أياماً دون أن تدري لمن نذرت هذا الصوم .
 كانت لم تلمس بعدُ الداء الذي تنتابها أعراضه . كانت
 كبرعمٍ معصب العينين ، يرتعش لنسماتٍ لا يراها ،
 ويهشُّ لأنداءٍ يجهل كنهها .

ولسكنها الآن تفتحت ، وأصبحت تبصر ما خفي
 عنها من قبل . ومثلَ أمامها مختار . ولأول مرة لاحظت
 أن له قواماً جميلاً ، وعينين تنفثان السحر . وإذا كانت
 قد شيعت روحها في أثره ، فإنها الآن لتُحسُّ بأن
 عودته قد ردت إليها روحها .

وبينما هي جالسة تفكر ، لمست ثغرها فراشة
 واختفت على الأثر . وخيل لها أن هذه الفراشة ليست
 إلا قبلة فرت من ثغر مختارٍ الباسم ، وسافرت عبْرَ
 البحار إلى فيها وزاغت في ثناياه ، ثم استقرت بصدرها

الذى يتناوح الشوقُ فيه ، كشمعةٍ مضيئةٍ تتذبذب
في مَهَبِّهِ .

وكأنما خدشت هذه الفكرة حياءها ، فجرد للذود عن
نفسه جيوشاً من الدمِ راحت تنثر الورد على خدها . وكما
يَخِفُّ الندى ليكلل الأزهار ، طفرت الدموع من
عينها وأخذت تكلل الورد الذى تبعثر فيه .

ولم تكن هذه الدموع حباتِ اللؤلؤ التى تتزين
بها لتستقبل دنياها الجديدة ، بقدر ما كانت قطراتِ
الشجن التى راحت تذرفها على فراق دنياها الأولى .
وهكذا كانت على رغم انتشارها بالضياء ، تمنحُ إلى عهد
الغمض وتغبط البراعم المغمضة ، التى لم ينزع النورُ
برقمها بعد ويستبيح الأسرار الخبئة تحته . فراحت
تأخذ من العطر الذى كان يفوح من مباسمها ، وتلقى إلى
الرياح لتحمله إلى أراضى النسيان . ولكنها كانت كلما
ألقت إليها بنفحة ، فاحت من قلبها نفحات ، فسدت
أنفها لكيلا تشم ، وأخفت عينيها لئلا ترى .
وأحست كأنما تنوء بعبء ثقيل . وأى عبء أشق من

أَنْ يُدَلِّهَ قَلْبُ ! كَانَتْ تَفْهَمُ بِالْفَرِيزَةِ أَنَّ طَائِرَ الْحُبِّ لَا يَغْنَى وَحْدَهُ ، فَرَأَتْ أَنَّهَا تَتَسَاءَلُ عَمَّا يَنْتَوِي الْأَلِيفُ . وَهَلْ يَخْتَارُهَا لِتُشَارِكَهُ الشَّدْوُ ، أَمْ يَمْزِجُ أَنْغَامَهُ بِأَنْغَامِ طَائِرٍ آخَرَ ؟ وَفِي هَذِهِ الْحَالَةِ أَتَغْنَى أَمْ تَنْوَحُ ؟

ثُمَّ إِنَّ فِي الْحُبِّ إِثْمًا إِذَا لَمْ يُشْهِدِ اللَّهَ عَلَيْهِ . وَمَا يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تَفْعَلَ فِي السِّرِّ مَا تَسْتَحْيِي مِنَ الْجُمْهُورِ بِهِ . وَلَمْ يَكُنْ تَفْكِرُهَا يَتَجَهَّ إِلَى هَذِهِ النَّاحِيَةِ ، حَتَّى تَفْتَحَ خَيَالَهَا عَنْ دُنْيَا مِنَ الْأَحْلَامِ . فَلَاحَ لَهَا وَكُرُّ الْهِنَاءِ . وَلَا حَتَّ لَهَا يَدِ الْمَأْذُونِ وَهِيَ تُبَارِكُ طَائِرِيهِ .

وَلَكِنَّهَا لَمْ تَلْبَثْ أَنْ قَلَبَتْ يَدَيْهَا فِي يَأْسٍ . كَانَتْ ثَمَّةَ شَيْءٍ فِي حَيَاتِهَا يَجْعَلُهَا تَتَوَجَّسُ خِيفَةً مِنَ الْمُسْتَقْبَلِ . وَقَفَزَتْ إِلَى فِكْرِهَا « جُلْفِدَان » ، أُخْتُهَا الْعَانِسُ الدَّمِيمَةُ . وَرَأَتْهَا وَهِيَ تَنْبِتُ كَشْوَكَةً مَهْجُورَةً فِي حَوْضٍ لِلزَّهْوَرِ . وَوَدَّتْ لَوْ كَرِهَتْ مِنْ أَجْلِهَا الْفَرَاشَ الَّذِي لَا يَعْطِفُ عَلَى الشُّوكِ . فَأَنْشَأَتْ تَحْدِثُ نَفْسَهَا وَتَقُولُ : —
مَحَالٌ أَنْ أَقِيمَ إِلَى شَفْتِي الْكَأْسَ الَّتِي حُرِمَتْ شَرَابُهَا أُخْتِي . نَعَمْ ، لَا أَنَا أَرْضَى وَلَا الْأَهْلُ يَرْضُونَ .

وإِذْ نَ فَمَا دَمَامَةُ جَلْفَدَانٍ إِلَّا حَرْبٌ عَلَيْنَا مَعَا .

وَتَمَنَّتْ لَوْ بَاعَتْ نَصْفَ عَمْرُهَا وَأَتَتْ لَشَقِيقَتِهَا بِمَخَاطِبَ .
وَلَكِنَّ الْأَزْوَاجَ لَا يُشِيرُونَ . وَأَشْكَلَ عَلَيْهَا الْأَمْرُ
فَفَزَعَتْ إِلَى وَرْعِهَا التَّقْلِيدِي ، وَرَاحَتْ تَبْهَلُ إِلَى اللَّهِ أَنْ
يَحُلَّ عَقْدَتَهَا . وَعِنْدَمَا فَرَّغَتْ مِنْ صَلَاتِهَا ، كَانَتْ قَدْ غَمَرَتْهَا
سَكِينَةُ الْإِيمَانِ .

وإنما لتجـيـل بصرها في الحديقة ، إذ لمحت من خلال
العُصُون التي تعرش على السياج ، ذَيْنِكَ الْفَتَى وَالْفَتَاةِ
الَّذِينَ اعْتَادَا أَنْ يَمْرَا مِنْ أَمَامِ مَنْزِلِهَا فِي الْأَبْكَارِ وَالْأَصَائِلِ ،
فِيثِيرَا فُضُولَهَا بِمَا كَانَ يَغْمُرُهَا مِنْ سَعَادَةٍ تَنُمُّ عَنْهَا نَظَرَاتُهُمَا
الْحَالِمَةِ ، وَهَمْسُهُمَا الَّذِي كَانَ يَتَنَاهَى إِلَيْهَا رَشَاشُهُ كَمَا لَوْ كَانَ
نُبْذًا اقْتَطَعَتْهُمَا النِّسَمَاتُ مِنْ حَفِيفِ غُصْنٍ بَعِيدٍ .

لَمْ يَكُونَا مِنْ سُكَّانِ الْحَيِّ ، وَإِنَّمَا كَانَا يَقْصِدَانِ إِلَيْهِ
مِنْ حَيِّ نَاءٍ ، فَيَمْنِ يَقْصِدُهُ مِنَ الرُّوَادِ الَّذِينَ يَبْغُونَ النَّزْهَةَ
فِي طَرِيقِهِ الْخُلُوعِ الرَّائِقِ ، الْمَشْرِفِ عَلَى النِّيلِ فِي أَبْدَعِ مَجَالِيهِ .
كَانَا فَقِيرَيْنِ . فَالْفَتَى قَدْ مَاتَ أَبُوهُ مِنْ زَمَنِ ، وَلَمْ

يُخَلِّفُ له من متاعٍ سوى ذلك المنزل الذى يقيم مع أمه
 فى طبقة منه ، ويؤجر الأخرى « لأحمد أفندى » والد
 فتاته الحسنة . ومن كراء هذه الطبقة الضئيل ، وكراء
 الحوانيت التى تتبّع البيت ، كان يقات « مصطفى » هو
 وأمّه الأرمل العجوز . أما الفتاة وكان اسمها « عفاف » ،
 فلم يكن أبوها إلا موظفاً صغيراً بإحدى الشركات ،
 لا يكاد يكتفى مرتبه نفقاته الضرورية .

وكأنما أُلِفَ الضنك المشترك بين الأسرتين ، فانعقدت
 بينهما أواصر صداقة متينة ، سمحت للفتى والفتاة بالاختلاط
 فى أى وقت شاءا كما لو كانا أخوين .

وكان من أثر هذا الاختلاط أن لمَسَ الهوى قلبيهما
 تلك اللمسة السحرية ، التى تُشيع من خدرها المقدس فى
 القلوب ، ما يجعلنا نحس معه الحياة كما لو كنا تحت تأثير
 حلم لذيذ .

ولكنّ لمّا كان الوقار من طبعهما ، فقد جاء حبهما
 من ذلك النوع العذرى المكتوم ، الذى يُؤثر الانطواء
 على الجوى على التنفيس عنه بالغزل غير المباح . فساكنّا كل

التقيا على الضنى فهما الحياء عن البوح ، شرحا ما بهما
بنظرات كلهما صباية ، ثم افترقا وفي قلب كل منهما
نار تستمر .

وكان مصطفى ينتظر بفارغ الصبر إتمام دراسته
الجامعية ، ليتحرر من أ كبال فاقته المرهقة ، وليسقى
زهور الحب النابتة في قلبه بالزواج من عفاف ، كيما تزدهر
وتنضج حياته بالمطر . فكان لهذين الحافزين أثرهما في
إذكاء حماسه ، فراح ينكبُّ على استذكار دروسه في
صبر ودأب . ولمّا كان إلى جانب ذلك متقد الذكاء ،
فقد جاز امتحانه النهائي بنجاح ، وكان ترتيبه الأول بين
أفراد فرقته .

وطار الفتى فرحاً بهذا الفوز ، وأيقن أن المستقبل بدأ
يبسم له ، وأن وقت الفرج قد حان . وأخذ يستمع إلى
صرير أبواب سجنه وهي تُفتَح ، فيُشرف منها على
عالم طليق ، كله رياضٌ غنّ ، تزدهم أغصانها بالزهر
والفاكهة ، وتمرح في أجوائها الطيور الفردة .
وتحت تأثير ثقته بالمستقبل ، وخوفاً من أن يسبقه

غيره إلى عفافٍ معبودة شباب الحى بأسره ، بادر إلى
التقدم لخطبتها . ورحب والدها بهذه الخطبة ، لِمَا كان
بين الأسرتين من ود قديم ، وَلِمَا كان يتكهن به من
مستقبل باهر لجاره الشاب النجيب .

وبعد أن أتم قراءة الفاتحة مع أحمد أفندى ، لم يَبْدُ
أنه كان على وجه الأرض أسعد من الفتى ومخطوبته ، وقد
بدأ يقيان إلى شفتهما الكأس التى لبثا سنين طوالا
يرنوان إليها فى ظمأ .

ومذ عقدت خطبتهما ، كانا كثيراً ما يخرجان للنزهة
على ضفاف النيل مارين بقصر زينات ، حتى إذا ما تمت
لها الخلوة فى جوار شجرة تحجبهما عن الأنظار ، أطلقا
العنان لأحلامهما ، وراحا يرقبانها تارة فى الفجر الوردى
وتارة فى ذهب الأصيل .

وكانت زينات لا تكاد تلمحهما حتى تحس نحوهما
بحنان خفى طالما حارت فى تعليله ، فتظل تتابعهما
ببصرها وهى تبتم إلى أن يغيبا عنه .

وتوالت الأيام وزينات يأخذها الطرب كلما مرا
بالقصر ، حتى لكانها أصبحت كوكباً يدور فى فلك

سعادتهما . إلى أن كان ذلك الصباح الذي تفتّح فيه قلبها
وراح يبصر من الأضواء ما كان محتجباً عنه ، أدركت
سر تلك الألفة المهمة التي تربطها بذلك الزوج السعيد من
الناس ، بالرغم من أنه لم يسبق لها به معرفة . ذلك أنها
رأت في منظرها يومئذ ولأول مرة تأويلاً لتلك الرؤى
المختلطة التي كانت تُطيف بقلبها منذ كانت حدثّة ، كما
سمعت في نجواها تعبيراً عن نغمات كانت ما تنفك تجيش
بصدرها حبسية ، ولا تجد القوس الذي يخرجها
إلى الوجود .

فلما أدركت ذلك ازدادت شغفاً بهما ، ولم تملك حين
وقع نظرها عليهما إلا أن لوحّت لهما بيدها محيية ، ثم عادت
وهي أخجل ما تكون لإقدامها على هذه الفعلة الجريئة ،
ولبثت وقتاً غير قصير قبل أن تهرب الحمرة التي صعّدت
إلى خدها .

أما العاشقان فلم يبالكا أن أوماً لهذه الفتاة الظريفة ،
التي طالما لفتت نظرها وغبطاها على جمالها وغناها . ثم
واصلتا سيرهما ، تشيعهما بين آنٍ وآنٍ نظراتُ زيناتٍ
وهي تنساب متوالية بين تلافيف الشجر .

الفصل الثانى

فى الوقت الذى كانت فيه زيناتُ فى الحديقة ، كان أبواها يتشاوران فيما ينبغى أن يكون عليه الاحتفاء بمختار . واستقر رأيهما على أن تستقل الأسرة قطار المساء إلى الثغر ، فتبيت فيه ليلتها ثم تستقبل سوسنَ فى الصباح ، وتعود بمختارٍ إلى القاهرة .

وهنا قال « رمزىُّ باشا » :

— حالما تنتهى أيام الضيافة ، يجب أن تسافرى إلى الضيعة بحجة تبديل الهواء ، وتصحبى معك زينات . ورفعت « شريفة هانم » حاجبها متسائلة ، على حين استطرد الباشا :

— على أن مقامكما هناك لن يستغرق إلّا ريثما يبحث مختارٌ له عن سكن خاص . وأظنك معى فى أنه لا وجه لأن يقيم بيننا بعد الآن ، وفى البيت عذراء فى جمال زينات . أجل ، فيما مضى كانا فرحين لا خوفَ عليهما

من الجيوار ، ولكن الحماسة نبت ريشها ، كما برزت
مخالب الصقر ، وما أظن أن عشا واحداً أصبح
يصلح لإيوائهما .

وكانت مفاجأة للسيدة راحت بعدها تقول :

— ولكن ألا يحزنك بُعد مختار ؟ ألم يكن بمثابة
ابننا ؟ ألم يسيل لطفولته حناننا ؟ كيف نتخلى عمن
احتضناه صبياً في المهد ؟

— لأننى لا أريد أن أتخلى عن ابنتى . لقد أدينا
واجبنا وربينا الصقر مع الحماسة ، فبقى علينا واجب آخر ،
هو أن لاندع الحماسة يأكلها الصقر . ولعله من حسن
الخط أن مختاراً لم يعد بحاجة إلى حذبنا بعد أن كملت
رجولته . كما أنه غنى عنا بما ورثه عن أبيه .

أراك تسرف فى الاحتياط يا رمزى . أنسيت أن
لزيئات من ورعها تميمه تقىها نفثات السحر ؟

لاشئ يبق من السحر على الإطلاق . حتى التمام
التي تجدى مع الجن لم تجدى معه . ذلك أنه أحمى
من الجنة أنفاساً وأسطع لها . وصرعاه يستدرجهم نوره

حتى يحرقهم فيه . مثل الفَرَّاش يجذبه المصباحُ إلى
 حتفه . فلا سلامةَ إلا في البعد عنه وإن شقَّ البعاد .
 ومن أجل هذا اعتصم النساك بالجبال ، لأنه كان من غير
 الممكن أن يَعُصَبُوا أَعْيَنَهُمْ أو يَقَاوَمُوا . ذلك هو
 السحر لا ينجو من نفثه أحد . بل لعل أكثر الناس
 تعرضاً لغزواته الورعون . لأنهم لا يتنفسون فتنتفخ
 صدورهم بالشوق الحبيس ، وعندئذ تكفيهم غمزة إبرة
 ليندفع يبغي المتنفّس . فعلى الورع قبل سواه أن
 لا يرى ، إذا رغب البقاء في محرابه . وإلا فما أسهل أن
 يخرججه الحسنُ من معبده ، كما أخرجتُ حواءَ من الجنة
 آدم . وأنا أعرف رهباناً أحبوا ، وآخرين ماتوا شهداء
 غرامهم . ومن ثم نخيرُ لنا أن لانضع النار بجوار الخطب ،
 من أن نجمع بينهما ونقول للخطب لا تحترق .
 وجذب الباشا نفساً من لفافته ثم استطرد :

— ومما يجعل المباحة بين الطائرين أوجب ، ما كنت
 ألمحه من دلائل الوجد في عيني مختار . لقد كانت نظراته
 تنطق بأنه ذاب في سحرها . وعندما سافر لم تخف عني

بُرَحَاؤُهُ . وما طمأننى إذ ذاك إلا علمى بأن قلب زينات
 كان يتحصن وراء طفولته ، فكانت صبايات الفتى تَفْنَى
 عليه قبل أن تحترق شغافه . ولولا ذلك ، وما كانت تلمسه
 عيناى الخبيرتان من دلائل الطهر فى حب مختار ، لقدح
 الخطب وجُنَّ جنونى خوفاً على ابنتى . ولعل مخاوى تلك
 هى التى جعلتنى أُزِين له إتمام دراسته فى لندن ، بحجة أن
 الاغتراب يزيد فى اطلاعه . آه ، ما أشد فجيعتى فى حبه ،
 حين ثارت نقمتى عليه !

فهتفت السيدة فى استنكار :

— ولكنك لم تكاشفنى بذلك فى حينه !

— ما أحسب أن كانت بكِ إلى مكاشفتى حاجة .

فعهدى بالنساء أقدر منا على كشف خفايا القلوب .

— هب ذلك ، أفما كان يجب أن تشاورنى فى الأمر ؟

— كلاً . لقد فضلت حَذَرَ الخلاف أن أستقل

بحسمه . فإنكن معشر النساء أقل بصراً بالعواقب ،
 وإن كنتن أسرع فى الفهم .

— أراك كثير التوجُّس من هذا الحب .

— ذلك ما ينبغي .

— ولكنَّ عَلامَ الجُزَعِ والنبْةِ قد غُرِست في
أرض طيبة ؟ أيمكن أن تُنتج إلا الریحان بذرة
نَمَتْ في قلب هذين الطاهرين ؟

— وهذا ما أجزع منه . لأن هذه النبْة لن تداعبها
النسمات . إن العواصف لتترصدها لتقتلعها من أرضها
غصّةً ، وتذروها في الفضاء أشلاء .

فسألته وقد تجهم وجهها :

— ماذا تعني ؟

— أعني أن الشقيين هيات أن يجمع بينهما رباط
حلال .

— ولم ؟

— فكّرْ قليلاً . اذكرى جلفدان .

وراح يذرع الغرفة ذهاباً وجيئةً . على حين امتقع
وجه السيدة ، لأنها تذكرت أمراً طالما فرت من مواجهته .

أما الرجل فما لبث أن تابع حديثه قال :

— أجَل ، إن زواجهما محال قبل أن تزوج

جلفدان . فحرامٌ أن نقيم عُرساً في بيت به عانسٌ
تتشوّف .

فقلت كمن تتعلق بخيط واه :

— ولكن في وسعهما أن ينتظرا .

— الانتظار يشفُ المحبين إذا عَفُوا ، ويهوى

بهم إن تبدّلوا . ما ينبغي أن تطول الفترة بين شوب
الحب والزواج .

ثم استطرد وهو مطرق كمن يحدث نفسه :

— إي والله حرام ، أن تكون الصغرى العروسَ

ومن تكبرها متفرجة . لهفى عليك يا جلفدان ! لكأني

بك عندئذ وأنت تنصتين إلى موسيقى الزفاف ، قد انقلبت

أنعامها نائمةً في نايك الحزين ، فانهجيت بنفسك في ركنٍ

منعزل ، وأخذت تستمعين إلى ولوائته وحدك . وكأني

بهاتيك الشموع الموقدة بدلا من أن تُفرح قلبك ،

قد عكست عليه من دون القلوب ظلالها السود ، وأقامت

في نواحيه مأتما . كلا يا ابنتي . يا طائراً خلق بغير جناح ،

ويا قلباً يدق بلا أمل ، لن اعترض بالأفراح جنازة أملك .

وَلتلبسن^٣ عليه الحداد حتى نموت ، أو تنقلب الجنازة
عرساً بمعجزة .

...

وفي هذه اللحظة دخلت جلفدان . كانت تسقط على
وجهها الشاحب ، تلك الأشعة الصفراء التي تُسِيلُهَا
الآمالُ الغاربة . وكان في نظراتها الذابلة ، ذلك المعنى الفانى
الذى يوحى به المغيب . لم تكن في النبات بزهرة ، ولكن
كانت لها رغبات الزهور . فكانت تنظر إلى الزهور المدللة
وتتحنس . وكانت كلما لاحت لها منهن جميلة ، أحست
بجرح يدي كبرياءها . فانتبذت من الزهر مكاناً قصياً .
وكانت تمرّ بها في عزلتها الطيور ، فلا تقف ولا تتمهل ،
وسرعان ما تختفي آخذة معها لَبَّها . كان كل شيء يوليها
ظهره ، لأنها لم تكن تسترعى انتباه شيء . وكانت الآمال
تولد في يديها مفقودة ، لأن كل شيء كان يمضى سريعاً
في حياتها . عدا أيامها المملة ، فهي الوحيدة التي كانت
تبطئ . فكانت حياتها كليلّة لا فجّر لها . فلما طال
بها الانتظار ، انعقدت^٤ بينها وبين السأم صداقة ، حتى

لَكَانَ الْكَآبَةِ قِطْعَةً مِنْ مَلَاَحِهَا . كَانَتْ تَمَثَالًا نَاطِقًا
 لِلصَّبْرِ وَالْعَذَابِ . وَكَانَتْ فِي وَجُوهِهَا وَصْمَتَهَا أَشْبَهُ شَيْءٍ
 بِتِلْكَ التَّمَاثِيلِ الْحَجَرِيَّةِ ، الَّتِي تَرْمِزُ إِلَى فِكْرَةٍ ثَابِتَةٍ لَا تَتَغَيَّرُ .
 فَكَانَ النَّازِرُ إِلَيْهَا يَخِيلُ لَهُ أَنَّهَا لَيْسَتْ إِلَّا تَمَثَالُ امْرَأَةٍ
 مَاتَتْ مِنْ زَمَنِ . وَفِي الْحَقِّ أَنَّهُ مِنَ التَّجَوُّزِ الْكَبِيرِ أَنْ
 نَعْتَبِرَ جُلُفْدَانِ مِنَ الْأَحْيَاءِ .

وَسَأَلْتُ الْعَانِسُ فِي صَوْتٍ حَزِينٍ :

— أَحَقًّا أَبْتَاهُ أَنَا سَنَسَافِرُ الْيَوْمَ ؟

وَأَجَابَ أَبُوهَا :

— نَعَمْ ، فِي قِطَارِ الْمَسَاءِ .

وَعَادَتْ تَسْأَلُهُ :

— وَمَتَى يَصِلُ مَخْتَارُ ؟

وَفَاهَتْ بِاسْمِهِ ، وَبَدَأَتْهَا تَتَعَذَّبُ . لَقَدْ كَانَ أَحَدَ

الْأَمَالِ الْغَارِبَةِ الَّتِي صَرَّتْ بِهَا وَاخْتَفَتْ فِي وَادِي الْعَدَمِ .

لَقَدْ عَبَّرَ بِهَا كَسَوَاهُ مِنَ الْأَمَالِ ، وَلَكِنَّهَا كَعَادَتِهَا

نَفَضَتْ يَدَهَا مِنْهُ قَبْلَ أَنْ تَحَاوِلَ إِمْسَاكَه . كَانَتْ تَشْعُرُ

أَنَّ الْحُبَّ مُحَرَّمٌ عَلَيْهَا ، فَلَمْ تَقْرُبْهُ وَلَمْ تَحْتَرِقْ بِنَارِهِ ، وَلَكِنَّهَا

كانت تكتوى بنار أخرى أشد لها ، هي نار الظمأ إليه .
وهي نارٌ صفراءُ كالعذاب المرتسم على وجهها . خالية من
ذلك اللون الدموي الذي يصبغ نار الحب ، وينسجى عن
ثورة وحياة . نارٌ كالغيب كلها موت .

ورفع الوالد إليها بصره ، وأخذ يعبُّ من ذلك الألم
الذي تعانيه ، وكأنه يكفّر عن مجزئه أمام دماستها .
ثم أجاب :

— في صباح الغدِ تصل الباخرة .

— حسناً . هل أهيء معدات السفر ؟

— نعم يا ابنتي . باركك الله .

ثم أدنى فيه من جبينها الكأبي ، وفي قبلة نائمة
كتملك التي تطبعها الريح على غصن ذابل ، سكب
فوقه حسراه .

...

وخرجت جلفدان . وسادت فترة صمت ، راح فيها
والداها يتبادلان النظرات الكسيرة . ثم قالت شريفة
هانم وهي تمسح دمعها :

— وهل تصحبنا جلفدانُ إلى الضيعة ؟

وأجاب الباشا :

— الأمران سيان . جلفدانُ هنا أو هناك في مأمن .

قال هذا وأحس أنه خدش كرامة ابنته . لقد صرح بأنها أهون من أن يلحقها أذى . وغصَّ حلقه بهذه الجملة التي فاه بها عفوا . وزاد من ألمه أن الضحية كانت غائبة ، ولا تستطيع الذود عن نفسها ولو بنظرة عتاب . على أنه تذكر أنها لم تكن مما رماها به في نجوة ، وأن الكل في لهما ينهشون . فأدرك أن الجرح الذي بها قديم ، وأن الأقدار قد سبقته إليها به . ومع ذلك فقد ندم على أنه اشترك في طعنها . كان يود لو تعفف هو على الأقل عن ذلك . فنهض وهو محزون الفؤاد ، وجعل يصعد الزفرة تلو الزفرة ، كأنما ظن أن الزفرات تقتلع الهموم .

. . .

والتقى بزينات في البهو . كانت في نضارتها تحكي

الفصن الرطيب . وكان السحر من حولها كالسنا من زهرة .

كانت بمثابة ترضية من الطبيعة عما حَرَمَتْهُ أختها .
 ورآها وكبّر الله . وخاف عليها من نَفَثِ العُقَد ،
 وهمَّ بأن يتلو فوقها التعاويذ . وأحس بأن جماها يكلفه
 من رعاية الأب الكثير . ولكنه لم يأسف ، فكأى من
 أبٍ سيم الأذى من ابنه وهو قرير .

ثم قفزت إلى ذهنه جلفدان كانت كفسوخة في
 جبين أختها . فراح لسان حاله يقول :

— واحسرتا ! يُعْوزُها الجمال الذي يكبدي السهر

عليه ! ألا ليته لم يعوزها وكبّدني ، ألا ليت !

ومثّلت أمامه ابنتاه . فأشفق على جلفدان من
 الجراح التي يُخْدِشها بها جمال أختها ، وتمنّى لو لم
 تكن زيناتُ ابنته فكرهها . ثم عاد فأشفق على
 هذه وقد جرحها نحس الأخرى في ذبوله ، وتمنّى
 لو لم تكن جلفدانُ ابنته فكرهها . وهكذا حار أيُّ
 الابنتين يحابي ، وعجز عن الفصل في قضيةٍ كلاً
 الخصمين فيهما ولد له .

ولم يكد يفيق من خيبته ، حتى أمسك بخناق ذلك

الإشكال الآخر ، الذي بدأ يحتمل له مكاناً من فكره منذ
 أزفت عودة مختار ، وهو كيف يقصيه عن بيته حينما يعود ؟
 هل يصارحه بالحقيقة على ما فيها من غضاضة ، أم ينتحل
 له سبباً آخر ؟ وفي هذه الحالة ماذا يكون ؟ فلما لم يوفق
 إلى حل ، انصرف عن التفكير في ذلك أيضاً ، وترك
 حله للزمن .

الفصل الثالث

وسَطَ ضباب الصباح ، كانت تسير الباخرةُ سوسن .
مختالةً تحت علمها المصرى .

وكان بين الوقوف على ظهرها شاب يخيل للناظر إليه
أن عينيه تخترقان الحُجُب . كان يبحث عن شيء في
الغيب ، ويود لو بمعجزةٍ رآه . ولعل النور غير المنظور
الذى كان يبعثه هذا الشيء فيبلغ قلبه ، أصدق دليل
على أن المعجزة تحققت .

ولو أنك تعقبت حبل النور الذى كان الفتى مشدوداً
إليه ، لرأيت في نهايته شيئاً عجيباً : فتاةٌ في ربيعها الثالث
عشر ، جالسة إلى فتى في عامه العشرين ، ينسّقان الزهر
في بستان . وفجأة تمر فوقهما أربعة أسراب من العصافير ،
فتحجبهما كما لو كنَّ أربع غمامات . ثم تنقشع الغمامات
فإذا الفتى والفتاة كلُّهُما أكبر من سنِّه بأربعة أعوام .
وأوّل الحالم رؤياه فكان هو الفتى وزينات الفتاة .

وكانت العصفير السنين . فقال يحدث نفسه :

— إِذَنْ لَقَدْ كَبُرَتْ الْحُسْنَاءُ الصَّغِيرَةُ ، وَنَفَضَتْ
السنونُ أَوْثَنَهَا . وَهِيَ ذِي تَقُورٍ عَلَى جَسَدِهَا كَمَا
يَقُورُ الزَّبَدُ عَلَى حِفَافِ الْكَأْسِ ، وَتَنْبِثُ مِنْهُ كَمَا تَنْبِثُ
الْفَاكِهِةُ . وَآيَةُ ذَلِكَ صَوْتُهَا الْجِيَّاشُ ، وَصَدْرُهَا النَّاهِدُ .
وَأَرَاهَا وَقَدْ تَعَلَّمَتْ مِنَ الدَّلِّ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ ، وَزَادَتْ
سَهَامُ عَيْنِهَا مَضَاءً .

وَتَوَقَّفَ رِيثًا يَبْتَسِمُ طَرَبًا ، ثُمَّ اسْتَطَرَدَ :

— بَرُوحِي أَنْتِ زِينَاتُ ! فَلَسْتَ جَرَحْنِي كَمَا شَاءَتْ
سَهَامُكَ ، فَهَذَا سَنِينَ أَشْتَقُ لَهُ ذِي الْجِرَاحِ . وَلَكِنْ
مَاذَا مِنْ أَنْبَاءِ قَلْبِكَ ؟ أَتَعْلَمُ الْهَيْمَانَ وَبَعْنَ يَهِيمَ ؟ أَعَمَّنْ
كَتَمَ فَلَمْ يَخْفَ عَنْكَ سِرُّهُ ؟ أَمْ بِسِوَاهِ لَكَ بِالْسَّرِّ بَاحٌ ؟
أَمْ مَا بَرَحَتْ خَلِيَّةُ الْقَلْبِ كَمَا خَلَّفَتْكَ ؟ وَعِنْدُكَ مِنْ
السَّعِيدِ الَّذِي سَيُشْغِلُهُ ؟ وَهَلْ أَكُونُ أَنَا هَذَا السَّعِيدُ ؟
وَجَعَلَ يَفْكُرُ : مِنْذُ سَنِينَ كَانَ يُمْسِكُ فِي مِصْرَ
كَأْسِ الْهِنَاءِ ، وَيُوشِكُ أَنْ يَدْنِيهَا مِنْ فَمِهِ ، فَإِذَا بِالْقَدَرِ
يَنْزِعُهَا مِنْهُ قَبْلَ أَنْ تَمْسُهَا شَفَتَاهُ . فَهَلْ ضَنَّ الزَّمَانُ

بها عليه والزمان ضنين ؟ أم أنه أرجأها ليوم لم يكن
 حان ؟ كان يتحرق شوقاً لأن يعرف . وخيل له أن
 السفينة تبطئ في السير . وود لو استحثها للتسرع ، أو
 استعار للوصول جناح طائر .

وفي الضحى دنت سوسن من الثغر . وراها
 المستقبلون منه كنقطة من دُخان . ودق قلب زينات
 دقاً وحشياً . وخيل لها أنها تعتقل في صدرها طائراً
 برياً ، وأنه ما ينفك يضرب بعنف أسلاك القفص
 ليحطمها ويخرج .

ومن مكانه أخذ مختار يصبو بصره إلى الشاطئ .
 وكان يرسله بحدة ، لعله يخنزل تحته المسافة الباقية
 ويسقط على الأشباح البعيدة قبل الأوان .

ووقفت السفينة بعض الوقت ريثما تتخذ إجراءات
 الشرطة . وفي هذه اللحظة تمنى مختار لو وصل إلى البر
 سبّحاً . وبعد مدة خالها سنين ، واصلت سوسن السير

قلب

على مهل ، كأنها عروس تنهذى في مشيتها . ودق
زينات مرة أخرى ، وأجابه من البحر قلب مختار .

وظلت تقترب وكلّ القلبيين تسرع دقّاته ، إلى أن
أصبحت على مسافة بدأ معها الركاب يميزون وجوه
مستقبلهم . ولمح مختار بينهم ضوءاً يسطع ويختفي كأنه
خفق نجم . وخاله أول الأمر أليق خاتم من ماس
في يد حسناء بدرت منها حركة . ثم تبيّنه فالفاه
زينات ، تلوح في الفترات بين الجمع . وكانت كما رآها
في حلمه وهو على ظهر المركب ، عروساً مكتملة
الأنوثة . وإذ أن لقد تفتّح البرعم الذي خلفه
مغمّضاً ، وأصبح يعرف كيف ينسفت سحره مع
ورقه ، ويبعث أسرارته خلال عبيره . فلم يتمالك أن هتف :
— يا حبّها !

لقد فرح بها عندما رآها وقد زادت بهاء ، لأن جمالها
كان ينعكس على دنياه ، فيجعلها تبدو حلوة عبّره . ولم
يجفّل منه عندما ألفاه وقد أصبح أقدر على أسر لبه ،

لأنه كان يستعذب هذا الأسر ، ويرى بين قضبانه عالماً
أفسح من الحياة . ولا هو أشفق على قلبه من الجراح التي
كان يجمع إحداثها فيه ، لأنه كان يعلم أن ربّتها ستعيش
فيها ، وتنقل بين آنٍ وآن قدميها المحبوبتين ، على نغم
الألم العذب الذي تبعته .

ولحمته زيناتٌ بدورها . ورفرف بين ضلوعها الطائر .
واهتز به غصنه فهزها من الفرع إلى القدم .

ورست السفينة . وأسرع مختارٌ يهبط الدرج ، ولم
يكُ في هبوطه وتأييد الخطأ . ثم أقبل يصافح مستقبله .
وكانت زيناتٌ آخرَ من صافح ، لأنه شاء أن لا يلقاها
وهو مشغول بالتأهب لتحية غيرها . وكانت هي قد انتحلت
بنفسها جانباً ، كأنما قصدت أن لا يخالطها بغمار القوم ،
وأن يوليها حفاوة خاصة .

وعندما تلاقت عيناها ، ، تبادلتا أداء الرسالة التي كانا
يتلهفان عليها . وتم ذلك خفيةً وفي مثل لمّح البصر .

وهكذا تسعف العشاق عيونهم عندما يمنعهم الحياء من
 البوح ، أو يضيق الرقيب عليهم الخناق . ولقد كانت
 رسالة وافية ، أجابت عن كل ما راح قلبها يتساءل
 عنه ، وبددت ما كان يساورها من شك . ولا عجب فلئن
 عجزت عن التعبير لغة الكلام ، فإن لغة العيون لا تعجز .
 وإذن فلقد ارتبط العاشقان أمام نفسيهما ، ولم يبق
 إلا أن يرتبطا أمام الله . وما إن وصلا إلى هذه النتيجة ،
 حتى كان الإجهاد قد بلغ أقصاه بالطائر المرفرف بين
 جنبي كل منهما ، فلوى مؤقتاً عنقه ونام ، وبدت
 آثار أحلامه السعيدة في عينيها .

...

وفي القطار ، وقف مختارٌ وزيناتٌ يطلان من
 الشباك . وكانت النسائم لا تفتأ تحرك خصلات شعرها
 فتعبت بجفنه ، وتحمل إلى أنفه رائحة العطر المطيبة به .
 نخيل له أنه يحلم ، وأن هذه اللسات الرقيقة ما هي إلا
 دبيب الأطياف التي تداعب كراهه ، وذلك العطر إن هو
 إلا أنفاسها . على حين أخذت زينات تبصر في المروج

الخضر فردوسها الموعود ، وترى أحلامها الذهبية
منشورة على حقول الحنطة المهيأة للحصاد ، وقد زادت
أشعة الشمس شهباً بالذهب .

....

وفي النافذة المجاورة لهما ، كان يقف شخص آخر
يطل على المنظر نفسه ، ولكن شيئاً منه لم يلفت نظره إلا
اصفرار الشمس التي كانت تنحدر للمغيب ، يشيخها طنين
السواقي النائمة ، الذي يبدو كأنه أنين شيخ عليل ، أخذ
يتوجع في خمول خليق بهيمكه الواهن . كان هذا الشخص
جلفدان التعسة ، أثارت عودة مختار في نفسها ذكرى
آمالها الضائعة ، فوقفت ترقبها في انحدار النهار ، وتستمع
لصداها في نواح السواقي .

....

وكان رمى باشا لا ينفك ينظر وهو متجههم الوجه
ناحية الشباك الذي كان يقف إليه الحبيبان . ولما طال
بهما الوقوف وطال قلقه معه ، دعا زينات لتطالع له بعض
الصحف ، وبذلك أراح من العذاب فؤاده .

ولم يجد مختاراً بدءاً من أن يوجه الحديث إلى جلفدان .
فخدشها حتى أثار شجونها ، ثم لم يلبث أن قادته قدماه إلى
حيث ذهب حبيبته ، فجلس قبالتها يخالسهما النظر بين
لحظة وأخرى . وفي كل مرة كانت تلتقي فيها عيناهما ،
يتبادلان رسالة جديدة ، توثق العهد الذي أخذه على
رصيف الميناء .

وكثيراً ما كانت نظراتهما تقع في الفخ الذي كان
ينصبه لها الباشا من تحت منظاره ، فيرتبكان في مقعديهما
وزداد الباشا اقتناعاً بوجوب الحذر .

...

ودخل القطار القاهرة مع الليل . وشعر مختار
والسيارة تجتاز به مدينة أحلامه ، وتجوس خلال شوارعها
المنورة ، بأن تلك المصاييح القائمة على الجانبين ، ما هي إلا
أطياف لآلاف من الشموع أوقدت بقلبه ، وبأن تلك
الضوضاء التي تحشد المارة ، إن هي إلا أصداؤه لخلل
حاشد أقامه فيه . وما إن رأى نفسه عند باب عشه القديم ،
حتى طالعه منه عطر معروف لفؤاده ، وهو عطر الياسمين

التي تعرش على السياج . فهم من مقعده يترنح كخمور .
أما زينات فكان الناظر إليها وهي تهبط من السيارة ،
يرى على رغم الظلام طيف ابتسامة ارتسمت على ثغرها .
ذلك أنها لم تح العاشقين الفقيرين يسرقان بعض الياسمين
المطل من خلال القضبان وهما عائدان من رحلتهما اليومية ،
كما يسرقان خلواتهما من عمر الزمان . فطربت لهذا
الضرب البريء من السرقة . ورقصت لعيניה ساعات
حلوة مماثلة ، تمت لو سرقتها هي الأخرى وعاشتها .
وإذ ولج مختار باب القصر ، راح يطوف بحجراته
حجرة حجرة ، يستلهمها ذكريات هواه حين كان في
فجره ، ثم انتظمه المجلس الذي انتظم زينات وأسرتها .
ما أسعده ! إنه الآن معها في مكان واحد . يستطيع
أن يُغني على لحظ عينيها الناعس في كل وقت ، ويسكر
على نغمات صوتها الحنون . ومما يزيد في قيمة هذه السعادة ،
أنها جاءت بعد ظمأ أعوام ، وتبشّر بما هو أعظم . ذلك
أن نظرات الفتاة إليه — تلك النظرات المفعمة صباية —
كانت بمثابة خيوط من الرجاء يرى في نهايتها حلمه . كما

كانت بِسَمَاتِهَا لَهُ ، كَنُوفًا تَتَفَتَّحُ أَمَامَهُ عَنْ ذَلِكَ الْمُسْتَقْبَلِ
الْجَمِيلِ ، الَّذِي يَتَأَلَّقُ وَسْطَهُ عَشُّ الزَّوْاجِ ، وَقَدْ بَدَأَ وَكَأَنَّهُ
مَشِيدٌ مِنْ بِلَّوْرٍ ، أَوْ مِنْ نَوْرِ فَرْحَةٍ فَرَّتْ مِنْ قَلْبٍ .
بِهَذَا رَاحَ مَخْتَارٌ يَنَاجِي نَفْسَهُ . وَكَثِيرًا مَا أَذْهَلَتْهُ نَشْوَةُ
السَّعَادَةِ الَّتِي كَانَتْ تَغْمُرُ قَلْبَهُ ، عَنْ حَدِيثِ عَمِّهِ الطَّوِيلِ ،
وَالْأَسْئَلَةِ الْكَثِيرَةِ الَّتِي كَانَتْ زَوْجَتُهُ لَا تَكْفُ عَنْ إِلْقَائِهَا .
وَعِنْدَمَا أَوَى إِلَى مَضْجَعِهِ ، لَمْ يَغْمُضْ لَهُ جَفْنٌ .
وَلَوْ أَنَّ عَيْنَيْهِ شَقَّتَا الْجُدْرَانَ ، لِأَلْفِي زِينَاتٍ مَسْهَدَةٍ فِي
مَضْجَعِهَا مِثْلِهِ . وَلَكِنْ بِمَا أَنَّ النَّوْمَ يَقْصِي الْحَبِيبَ عَنْ
فِكْرِ الْحَبِيبِ ، وَإِنْ زَوَّرَ عَلَيْهِ أَحْيَانًا فِي الرَّؤْيَى طَيْفَهُ ،
فَقَدْ بَدَأَ عَلَى الْعَاشِقَيْنِ أَنَّهُمَا سَعِيدَانِ بِسَهْدِهِمَا .

الفصل الرابع

في صباح اليوم التالي للعودة ، بكّر مختارٌ في النزول
إلى الحديقة ، فهبطها وما تزال الأنداء تُخَصِّل زهرها ،
وفلولُ الليل تلثّمها بالضباب ، ثم قصد إلى المقعد الذي
اعتاد أن يجلس عليه هو وزيناتُ أيام طفولتهما .
وكان هذا المقعد يشرف على بركةٍ منعرجة
الشواطىء ، تنتهي إلى غدير يسير ملتوياً وسط مساحات
العشب الواسعة . وكانت تنبت على جوانبها حُزمٌ ملتفة
من أعواد الخيزران ، فتطبعها بطابع البرية . وتتخللها
جزر مخضرة ، بُعثرت فيها على غير اتفاق . وكانت كلما
تجاورت منها جزيرتان ، انحصر بينهما مجرى يغيب ماؤه
وراءهما ، فلا تدرك العين منتهاه . فكان مما يزيد في جمال
هذه البركة ، أنها لاتدعك تبصر آخرها ، فيظل أمامك
دائماً شيء تتوق إلى أن تراه ، وتستطيع أن تتلهى بتصوره .
وكثيراً ما كنت تلمح بطة تمرق في مجرى وتختفي خلف

جزيرة ، فلا تملك إلا أن تتابعها بخيالك إلى حيث اختفت
وترسم لها من الصور ما حلاك ، فكنت أيا ن جلست إلى
هذه البركة ، تفتحت أمامك آفاق من التأمل لا حصر لها .
وفي كل من البركة والغدير ، كانت شجيرات اللوتس
تحترق بسيقانها الماء ، ثم تطل بزهرها على سطحه ، فيبدو
كأنه مرصع بأحجار كريمة . وكان مألوفاً أن تبصر على
زهرة من هذه ، عصفوراً واقفاً يترجح فوق الماء ، وفجأة
ينشر جناحيه ويطير . أو سرية من النحل تحوم
حولها وتثرثر .

...

إلى هذه البحيرة جلس مختاراً وأخذ يترقب حضور
زينات كأنما كانا على موعد . ذلك لأنه كان يتلهف إلى
جلاسة معها على هذا المقعد بعينه يصلُ بها ما انقطع
من ماضيها . ولقد يؤدي شغف المرء بأمنيته إلى أن يحسبها
حقيقة واقعة .

فاما انقضى وقت طويل ولم تحضر ، عزا ذلك إلى
خجلها ، وراح يحن إلى عهد طفولتها البريء ، أيام لم

يَحُلْ دون لقاءهما شيء . وتمنى لو عاد به الزمن إلى
الوراء أربعة أعوام ، ورأى نفسه جالساً إلى جوارها دون
تحفظ ، يلعبان ويمزحان تحت سمع الأهل وبصرهم . وبدأ
يشعر بأن ترعرعها وإن كان قد أنمى في طريقهما
الورد ، قد أنبت الشوك فيه .

ولكن ، هل كل ما كان يمكن في الماضي أصبح
يستعصى الآن ؟ إنه يستطيع على الأقل أن ينظم لها
عقداً من الياسين كما كان يفعل ، وبهذا يرضى بعض
كلفه بهذا الماضي الحبيب . وقام لجمع منه حفنة
وجلس ينضدّها في خيط أعدّه من سعف النخل .

وكان بين حين وحين يرهف السمع لعله يسمع وقع
قدميها فوق مماشى الحديقة ، كما كان يسمعه أيام كانت
طفلة ترّكّب رجليها وقما تشاء ، ولكنّ هاتين
القدمين اللتين أصبحتا أرزن من أن توافياه في كل وقت ،
ظالت غيبتهما عليه ، وأبتا أن تُسمعا أحلى نغمات
دقّ لها قلبه . واستبد به الشوق . وتصوّر قدميها ،

وكم هما صغيرتان وجميلتان ، وود لو يقبِّلهما ويبيكي .

. . .

وفي هذه اللحظة أطلت زيناتُ من الشرفة ورأته وهو ينظم العقد ، فأدركت أنه لها وراحت تتبسم . لقد سرها ما رأت من اشتغاله بشأن لها . وناقت إلى أن تنزل إليه فيلبسها إياه كما عودها في سنين خلت ، ولكن الحياء عاودها فبقيت في مكانها من الشرفة . ولو ذهبت لسبقها الحراس إلى هنالك ، لأنها كانت مدعاد مختارٌ محوطة برقابة ما برحت تجهلها .

وكان الفتى قد أكمل تنضيد العقد وجعل يتأمله . وبحركة غريزية راحت هي أيضا تتأمل جـمـيدها ، وكأنها تُعده للبس .

. . .

وكان شعاعا منها نبهه فحانت منه نظرة إلى أعلى فرآها . فانتفض ولوح لها بيده محييا ، فردت له التحية بإيماءة عذبة من رأسها الصغير . ثم أشار إليها أن توافيه ، ولكنها هزت كتفها برشاقة وظلت حيث هي .

وكانما كانت هذه الحركة بمثابة نداء حارّ ألهب الجذوة
في قلب مختار ، إذ لم يلبث أن وجد نفسه وقد نهض من
مكانه وأخذ يصعد إلى الشرفة ويتقدم نحوها .

ولم تكد تراه حتى حدّجته بنظرة حادة ، هي مزيج
من اللوم والترحيب ، وكأنها تقول له :
— لماذا حضرت ؟ إنها جرأة منك . غير أني

أشتهيها .

وصافح يدها البضة . وود لو رفعها إلى فمه فلمستها
روحهُ الظمأى ، تلك الروح التي كانت وقتئذ قد بارحت
وكبرها وطارت ترفرف بين شفقتيه . ولكنه ألغى نفسه
يرخيها في حزن ، لأنه لم يشأ أن يكون لصاً . حقيقة أن
الفتاة تهَبُ قلبها حين تُحِبُّ ، ولكن جسدها يبقى ملدك
شرفها . وهو يظل كذلك حتى يتسلمه حبيبها على يد المأذون .
بهذا نجاه ضميره . غير أنه ما لبث أن راح يتساءل :

— ولكن ما للقلبة وللجسد ؟ إن القُبْلُ إلا تحايا
الروح للروح . في رُوحى ، أحسُّ فعل الجاذبية مذ
شُغِلْتُ بزينات ، فلا بد أن يكون في روحها سر

المغنطيس . فأنا إذ أقبّلها أقبّل هذا السر . أقبّل الروح .
قال هذا وعاد يرد على نفسه :

— ولكن أكانت تشوّقني القبلة لو لم تكن يدها
بهذا الجمال ؟ أفلسنا إذن نقبّل الجسد فيما نقبّل ؟ حقيقة
إن الأرواح تتلامس ، ولكنها تتلامس خلال الأجسام .
وهي لا تنفذ إلا خلال أجسام جميلة ، فيها من الشّفوف
ما يمكن للإشعاع . فكأن للجسد دوراً يلعبه . وكأنه
وقد حوى عطراً نبثّاه الورق من زهرة . ومن ثم فنحن
نقبّل الجسد مع الروح . نقبّل هذا المزيج الذي لا يتحلل
أبداً . وجسد زينات لم يصبح بعد ملكي .

...

مرت هذه الخواطر بذهنه في مثل لمح البرق . ولعل
الحركة الغريزية التي حدثت به إلى أن يرخي يد الفتاة ،
كانت نتيجة لسبق تواردها فيه ، قبل أن يتناولها
بالتمحيص من جديد . وفي الواقع أن كل شيء قد مر
بغرائنا من قبّل وترك أثره فيها . وهذا الأثر يبدو في
تصرفاتها الحاسمة ، التي تأنيها عفو الساعة ودون

تدبر . وما الرويَّة إلا طرحٌ جديد للمسائل على بساط
 البحث ، غالباً ما يؤدي إلى نقض ما سبق أن اهتدينا إليه
 من صواب . لأن من دأب العقل إذا تفلسف ، أن يمهّد
 لخطئه بسلسلة من المقدمات ، قد لا تعدم بينها حلقة
 مفقودة ، تفسد عليها ما تحرز من نتائج . فلو أن مختاراً
 لم يكن من التوفيق بحيث خرج من بحثه بمثل النتيجة
 التي خرجت بها غرائزه دون بحث ، لكان من الممكن أن
 يقف عند قوله بأن القبلة شيء روحاني بحث ، ثم يغيب
 عنه ما بقي من عناصر المسألة ، وبذلك يُقدم على تقميل
 زينات ، ويرتكب شططاً قد لا يقرُّ به عقله ، ولكن
 ضميره لا يفوته أن يحس به ويؤنبه عليه .

غير أن مختاراً لم يفكر . أو هو فكر بعد أن اتخذ
 قراره وفقاً لما أشارت به غرائزه . ولعل من حسن حظه
 أنه فعل ، فليس يهون ارتكاب الجريمة كالتفكير فيها .
 لأن التفكير في الشيء ما يلبث أن يوطن النفس عليه .
 ولو أننا وقفنا دائماً عند حد شعورنا بالاشمئزاز من الإثم ،

ولم نتورط في مناقشة الأسباب ، لما ظهر بيننا مجرمون .

...

على أن مختاراً وإن كان قد انتهى من تفكيره إلى أنه أصاب عندما أرخى يد حبيبته وحرّم على شفّته تقييلها ، فإنه لم يجد حرجاً في أن يرفه عن نفسه بالنزول البريء . ولم يأبه لرأى القائلين بأن الاستمتاع بالنظر حرام ، لأنه كان يعتقد أن النظر الخالص عذاب ، والعذاب مَطْهُرٌ لا يأتيه الدنس . ومن ثم فقد دنا منها وراح يُزَلِّقُ في رأسها العقد ، حتى إذا ما استدار على جيد من رخام ، تراجع قليلاً ووقف يتأمله .

وغمر زينات شعور من السعادة ، نمت عليه بسمّةٌ تَلَأَلَتْ على ثغرها . ولم لا تفرح ؟ فيما مضى ألبسها عقوداً كثيرة ، ولكن واحداً منها لم يحمل ذلك المعنى الذي راح يحمله هذا العقد . ذلك أنها وقد أحبت باتت ترى فيه شبكة الزواج .

وإنهما لغارقان في نشوتهما ، إذ شعرا كأن عينيّن متّقدتين ترمقانهما من نافذة في المنزل المجاور . ولكنهما

عندما التفتا نحوهما لم يجدا شيئاً . فبقيا حيث هما ، زيناتُ
يختال على صدرها العقد ، ومختارٌ يترع منها عينيه .
وأخيراً قال لها في وله : —

— ما أجملك في هذا العقد يا زينة ! زينة ! أتدكرين
إذ كنتُ أدلك طفلة ، وأناديك بهذا الاسم ؟
وأطرقت حياء . وعاد يسألها :

— ولكن لم لم توافيني إلى الحديقة عندما أشرت لك ؟
وأجابته وهي تهز كتفها تلك الهزة الرشيقة الساذجة :
— لا أدري . لم أوافيك وكفى .

وذاب مختارٌ في سحر جوابها . ثم بدا له أن يسألها
سؤالاً آخر ، وكأنما قد أراد المزيد من دلهما ، فقال :
— وهل توافيني إليها الآن ؟

وكان ما توقعه فأجابت :
— ربما !

— ولم لا تقولين نعم ؟

ولم تجب . وما زادت على أن أخذت تتلهى في فتورٍ
بتمزيق ورقات زهرة . وفجأة رمقته بنظرة عناد ، ثم ولت

الأدبار مسرعة وهي تبسم . تاركة إياه مأخوذاً من
سحر دلالها .

كانت تشعر بأن الدلال مكملٌ لحسنها فتدلت .
ولا عجبَ فالدّلُ بعضُ سحرِ المرأة الدفين ، وهي إذ
تعرضه تعرض أغلى كنوز جمالها .

وفيما كان مختارٌ يستدير ليذهب في أثرها ، لمح العينين
المتقدتين تحتفيان من نافذة المنزل المجاور ، وكأنما كانتا قد
عادتا ترقبانهما . ولم يشكّ هذه المرة في أنهما عينان .
وشعر بأن في الجو شيئاً مريباً ، وإن كان لم يدر ما هو .

الفصل الخامس

بعد أن اختفت زيناتُ من الشرفة واقتفى أثرها مختار ،
ارتقى صاحبُ العينين المتقدتين على المقعد الملاصق للنافذة
التي كان يُسارق منها العاشقين النظر ، وقد أخذ يصعد
الزفراتِ كأنها شواظٌ من نار . وفي جواره جلستُ فتاةٌ
تسرّي عنه .

وقال صاحب ذينك العينين في ألم صارخ :

— آه ! أيُّ نار تضطرم في قلبي !

وغمغمت الفتاة وقد كانت أخته :

— رفّه عن نفسك يا محرز .

— وكيف أرفّه ؟ أما رأيتِ كيف كانت مهللة

الأساري عندما كان يُلبسها العقد ؟ وكيف أنها فرت لتغريه

بها ؟ إنها تحبه ، لم يعدْ عندي شك . ذلك هو أسلوب

المرأة : تتمنع لتستحث الرجل على اللحاق بها ، وهي

لا تستحث إلا رجلا تهواه .

ثم لطم جبهته في عنف وصاح :

— والأمرُ من هذا أنهما اختفيا معا . وكأني به الآن

يقبِّلُها ، ويمتص رحيقها في روحه اللعينة . كما تمتص
النحلةُ عصير الأزهار . آه ، رَبِّ اجعلْ لَمَآها الذي
يَبْزُ الشَّهْدَ في حلاوته ، والحُمَيَّا في سلبها للعقول ،
سَمًّا يسرى في عروقه ، وناراً تكوى حشاه ! مَنْ لِي !
مَنْ لِي بَمَنْ يَمَكِّنُنِي مَنْ أَنْ أَقْتله ، وأشرب من دمه كما
يشرب الآن من دمي !

وهتفت الفتاة :

— محرز !

— درية !

ثم استطرد :

— ماذا تنكرين عليّ ؟ ألا أقتل قاتلي ؟ أليست كل

نظرة يسدها إليها تصيب مني مقتلا ؟ أواه أضعفني
بجرعة ماء . جرعة ماء . إني أحترق .

— الصبرَ يا محرز !

— وكيف أصبر وقد سلبتني الشقية نهای ؟ لستُ

أدرى أى شيطان وسوس لنا بالسكنى فى جوارها ؟
 — لو علمتَ المفاجأة التى أُعِدَّها لك لهدأت من
 روعك .

— وأية مفاجأة بحق جهنم ؟ هل سيقبض عزرائيلُ
 روحه ؟

— وأننى لى أن أعلم ذلك ؟ أظن أن عزرائيلَ
 اتخذنى كاتمة أسرارهِ ؟

— إذن فقيم المفاجأة ؟

— احْدِسْ .

— لعل الله سيمسحه قرداً فى عينيها ؟

— أوه يا عزيزى ! ما أحسبنا نعيش فى بلاد
 السحرة . ولكن قل لى : هل نفدت جميع السبل
 فلم يبقَ إلا أن تستعدى الأقدار عليه ؟ أما من محاولةٍ
 تغزو بها قلبها ؟

— وكيف السبيل ونحن لا نلتقى ؟

— وما رأيك فى أن اللقاء تسهياً ؟ أما تعلم أنك
 ستحدثها غداً ، وربما راقصتها ؟

فقفر فاه من الدهشة وهتف :

— ولكن هذه أحلام يا درية . أحلام .

— غير أنها ستتحقق .

— أين ؟

— في حفلة دُعينا إليها ثلاثتنا .

— أية حفلة ؟

— هاك بطاقة الدعوة .

وناولته البطاقة . فألقى عليها نظرة ثم قال :

— كذا ! « مجدى » يحتفل بعيد ميلاده ! ومن

أدراك أن زينات مدعوة ؟

— لأنها من الأسرة .

فعاد وجهه يتجههم . وهتفت الفتاة به :

— ماذا دهاك ؟

— ألا تفهمين ؟ إن معنى ذلك أن مختاراً مدعو أيضاً .

— بالطبع للسبب عينه .

— وإذن فستكون ليلة مشهودة من ليالى جهنم

بالنسبة لى .

— ولم ؟

— لأننى سأشهد عن كُتُبِ عينيها وهما تتبادلان الغزل . وقد أبصر يده وهى تطوق خصرها الضامر ، وتهصر فى راحتها النعومة السارية فيه . أو تنتهى إلى من همسهما كلمة عذبة تكون وقراً فى أذنى . فأى خير توقعت له لى ربك فى هذه المغامرة ؟ لكأنى بك ما تسوقينى إلا إلى حتفى .

— صدقنى إنه لا يعجبنى منك هذا اليأس يا محرز . من أدراك أنك قد لا تربح المعركة ؟ إنى أعلم أن لك عيني لم تعرفا الإخفاق قط . فقال فى صوت كالأنين :

— وأين هما من عيني غريمي ؟ أما رأيتهما ؟ ما هما قط بعينين . ولكنهما ماستان ، لمأئهما أديم صاف ، وتقوم للشعاع فيهما قيامة . وكأنى بكل ومضة تنبعث منهما ، تكفى لأن تحطف حشداً من قلوب . وامتقع وجه درية . وحاولت أن تخفى رعشة سرت فى جسدها . على حين استطرد محرز :

— إني لأشهد له والفضل ما شهدت به الأعداء .
 مالكِ وجِئتِ ؟ هل مغطسك حديثُ عينيهِ ؟
 وجاهدت الفتاة جهاد اليأس لتحتفظ برباطة جأشها ،
 ثم قالت في إعياء :

— وعلام عولت ؟

— على الذهاب إلى الحفل .

ولم تملك إلا أن انفجرت ضاحكة رغم ما كانت فيه ،
 ثم صاحت به :

— وفيم الثروة إذن ؟

— آه يا أختاه ! إنها ثروة المحموم الذي لا يفتأ
 يهذى . أو حيرة الغريق الذي أينما تَلَفَّتْ ألقى لججاً
 تبتلعه . ماذا تريدن مني ؟ لا أنا أطيع التخلي عن الذهاب
 ولا أنا إن ذهبتُ بقادر على النجاة ، فلاذهب إذن
 وليكن ما يكون . فكل شيء يَهُونُ في سبيل
 عينيها .

وجأة سميع في منزل زينات وَقَعَ أَقْدَامُ تَعْدُو عَلَى
 أرض الشرفة ، أعقبته ضحكةً كَرْنِينِ أَكْوَابِ فضية .
 وفي هذه المرة لم يَثْبُحْ محرزٌ وحده إلى الشباك ،
 وإنما وثبت معه شقيقته ، وأخذوا يخالسان اللاعبين النظر
 بعيونٍ محومة . ثم لم يلبث أن تأوّه محرز ، وعاد وجهه
 دريةً يمتقع .

الفصل السادس

كان حفلاً مشهوداً ذلك الذي أقامه الأستاذ مجدى^٣
وقرينته ، ودَعَوَا إليه الأقارب والأصدقاء .

ففى ذلك اليوم لم يكديوافى المساء ، حتى أخذ المدعوون
والمدعوات يفدون على مقر الحفل ، وقد ارتدوا ثياب
السهرة وأزَّيْنَ النساء منهم بأبهى الحلى .

وكان من بين السيارات التى وقفت بباب الدار، سيارة^٤
نخمة نزلت منها شريفة هانم تتبعها ابنتاها ومختار .

وتشاء المصادفات أن يلُوح على أثرها مصباحان ، ثم
يقتريان فإذا بهما لسيارة^٥ تُقِلُّ محرزاً وشقيقته . فكان
يخيل لمن وقف على ما جرى منهما بالأمس ، أن هذه
السيارة تسير على دين صاحبها فى تعقُب العاشقين ،
بمصباحيها اللذين يشبهان عينين .

...

وتفرق القوم فى شُرُفات القصر وأبهائه ، وقد

أخذوا يَسْمُرُونَ ويتنادرون . فهذه طائفة من
الفتيان والفتيات يتحدثون عن آخر قصة شاهدوها على
الستار الفضى ، ويطرون هذا الممثل أو هذه الممثلة . وتلك
أخرى أخذت تتطارح النكات وترسل بين حين وحين
ضحكاتها مدوِّية . أمّا الشيوخ فجعلوا يتناقشون في
السياسة كدأبهم . على حين جلس العجائز يثرثن في
وقت واحد ، فكان أن تكلمن جميعاً ولم يسمع أحد .
وكنت أينما سرحت الطرف في الشباب ، ألفت
أقماراً جالسات على الأرائك ، أو جائسات خلال الحجرات .
فإذا استثنينا الشيوخ والعجائز ، وإذا استثنينا جلفدان ،
فإن هذا الحفل كان بمثابة معرض صغير للجمال ، احتشدت
فيه نخبة شائقة من أجمل فتيات مصر وأظرف شبانها .
وبعد أن تناول المدعوون العشاء ، عزفت موسيقى
« الجاز » فهرع الشباب إلى البهو الكبير ، وهاصر كل
شاب فتاة ، وأخذ يدور بها على أنغام « الفالس » الحاملة .
فكان الجمع والأقدام تتنقل بهم في خطاً رتيبة ،
وخصوصهم اللدنة تتثنى على إيقاعها ، أشبه شيء

بفراشاتٍ تخطر في بستان . وهكذا انقلبت القاعة في طرفه
عين ، إلى مسرح جميل لشعر الجسد ، لا يقلُّ في روعته
عن شعر الروح .

وكان طبيعياً أن يراقص مختارٌ زينات . وبدأت الفتاة
وهي بين ذراعيه ، وكأنما تذوب صبوةً في قامته المديدة ،
وعزيمته التي كانت تحركها هنا وهناك ، كما يحرك النسيمُ
زهرةً أسامته نفسها في طرب .

ولاح على الفتى أنه مثلٌ كذلك . وكان حتماً أن
يشمل ، وهذه يدها الحريرية تسيل نعومتها في جسده ،
وعطر شعرها يفوح ويملاً رؤتيه .

ولما كان مختارٌ من أمهر من نقل القدم ، وزيناتٌ من
أبرع من دقَّ بساقه ، فلقد بدا الاثنان زينة الحلبية ،
وانتزعا الإعجاب من أعين المشاهدين .

ومال مختارٌ على زينات وهو يراقصها وقال :

— لماذا تبدو الحياة أحياناً أجمل مما هي يا زينة ؟ إنني
لأحس كما لو كنتُ قد نسيت حياتي الماضية ، وولدت
من جديد في عالم غير هذه الأرض ، لا أرى فيه إلا رياضاً

فِيحاً وَطُيُوراً تَقْرَدُ ، مَعَ أَنَّ الْحَيَاةَ هِيَ الْحَيَاةُ ، وَأَنَا أَنَا لَمْ
أُمْتُ وَلَمْ أُبْعَثْ ؟

وَسَأَلْتَهُ زِينَاتُ بِتَدْلِهِ :

— أَجَلٌ ، فَمَا هُوَ السِّرُّ ؟

وَأَجَابَ مُخْتَارٌ :

— السِّرُّ فِي هَذِهِ السَّكْرَةِ الَّتِي تَعْتَرِينَا . فِي تِلْكَ
الْخَمْرِ الْمُقَدَّسَةِ الَّتِي إِذَا شَرَبْنَا مِنْهَا ثَمَلْنَا ، فَتُكْشِفَتِ الدُّنْيَا
أَمَامَنَا عَنْ هَذِهِ الْفَرَادِيسِ . فَهَلْ تَعْرِفِينَ هَذِهِ الْخَمْرَ ، الَّتِي
تَخْلُقُنَا هَذَا الْخَلْقَ الْعَجِيبَ ؟

وَأَدْرَكَتْ زِينَاتُ صُرْحَى كَلَامَهُ . إِنَّهَا نَفْسُهَا شَرِبَتْ
هَذِهِ الْخَمْرَ فَتَحَوَّلَتِ الدُّنْيَا فِي نَظَرِهَا إِلَى جَنَّةٍ فِيحَاءَ . إِنَّهَا
خَمْرُ الْحُبِّ ، لِأَنَّهَا رَأَتْهَا تَصِيبُ مِنْ عَيْنِي مُخْتَارٌ ، وَتَتَفَجَّرُ
مِنْ ثَنَائِهِ الْعِذَابِ ، وَتَقْطُرُ مِنْ كُلِّ ذَرَّةٍ مِنْ جَسَدِهِ .
إِنَّهَا خَمْرُ الْحُبِّ ، وَلِذَلِكَ فَهِيَ تَحْجِلُ ، فَلَا تَجِيبُ وَإِنَّمَا تَنْظُرُ
مُطَرِّقَةً إِلَى الْأَرْضِ .

وَلَا حَظَّ مُخْتَارُ خِجَلِهَا فَتَنَاسَى سُؤَالَهُ ، وَأَخَذَ يَدُورُ
بِهَا فِي صَمْتٍ مَعَ الرَّاقِصِينَ ، وَقَدْ أَسْبَلَ كِلَاهُمَا أَجْفَانَهُ ،

واستسلما لأنغام « القالس » التي كانت تنادي أحلامهما
النائية ، وتحلّى بها وسنهما السعيد .

وكان هناك مثنى من الراقصين لا يكفُّ عن
ملاحقتهم ، حتى إذا ما أصبح منهما عن كُشْب ، حاولت
دريّة وهى بين ذراعى أخيهما أن توقع مختاراً فى شباك
فتنتها بحبال من نظراتها تلقى عليها عليه . ولكنها كانت
كلما أرادت أن تصيده صاهاها عن غير قصد ، حتى تعالت
دقات قلبها واضطربت خطاها . أما محرز فكان يتحين
الفرصة التي تغضى فيها زينات ، ليسرق منها نظرة تضع
فى رجليه قيداً جديداً . وهكذا كانت كل خطوة ينقلانها
فى أثر الحبيبين ، تزيد فى عثارهما حتى بدوا كمن يرقصان
وهما مُوثقان . واستمرت هذه الحال طول الرقصة ،
ومختاراً فى عجب مما يحدث ، وزينات فى جهل به .

وفى ركنٍ من القاعة ، جلست فتاة لم تشترك فى
الرقص ، تغالب دمة توشك أن تنحدر من عينيها . لم
يكن بها حزنٌ أو حسد ، لأنها سبق أن نفّضت يديها

من كل شيء ، فلم يَعُدْ للآلام إليها سبيل . ولكنها
الموسيقى تثير في بعض النفوس أحزاناً لا وجود لها .
ولذا لم تكد موسيقى الرقص تعزف ، حتى أخذت
الدموع تنهمر من عيني جلفدان ، وكأنها تكفر عن
ذنوب لم تجنّها . ذلك أن جلفدان كانت تحمل نفساً من
تلك النفوس التي يهيج شجنها النغم . وهي نفوس
تعرف بأنها سبق أن انطوت على حزن قديم ، رمتها
به أحداث الزمن ، أو وُلِدَ معها كجزء من طبيعتها ، ثم
نسج عليه النسيان طوال أعوام عِدَّة ، ولكن
الموسيقى التي تنادي كل شيء ، ما تلبث أن تمزق عنه
الأكفان ، وتدعوه لينوح في الفؤاد من جديد .

...

ولمحت زينات أثناء الرقص جلفدان أختها تبكي .
فأفاقت من وسنها على نغم بكائها النائح ، وخيل لها
أن أحلامها تغرق رويداً رويداً في دموع أختها ثم
تحتويها الظلمات .

وجأة سكت « الحجاز » ففترق الراقصون . وسلّت

زيناتُ يدها من يد مختارٍ وذهبت تحدث جلفدانَ وهي
تتجاهل ما رأت من بكاؤها . على حين تقدمتُ دريةً إلى
مختارٍ وأخذت تهنئه على براعته في الرقص وترمقه
في شغف .

وعزفت الموسيقى من جديد ، وزيناتُ ما تزال مشغولة
بالحديث مع أختها . وألقى مختارٌ نفسه وحيداً هو ودرية ،
وقد أخذت تتطلع إليه وكأنما تدعوه ليراقصها . وإذا كرهه
أن يكون جافاً معها ، مدَّ لها ذراعيه ودخل بها في الحلبة ،
وجال بها مع الجائلين . ولكن رقصه كان في هذه المرة
فاتراً . وكانت كلما حدثته الفتاة أجابها في اقتضاب .

والتفتت زيناتُ بعد قليل ، ورأته وهو يراقص جارتها
فجمدت في مكانها . كانت تعلم أن ما أتاه مباح في شريعة
الرقص ، ولكنه الحب ، الحب المجنون الذي لا يعترف
إلا بشريعته . الحب الذي يأبى إلا أن يستأثر بكل شيء
في المحبوب ، حتى ظله وخواطره . الحب الذي يود لو
سجن هذا المحبوب في حصن منيع ، أو فرَّ به إلى
الكهوف النائية ، ليكون بنجوة من العيون . ومن

ثم أخذت عقارب الغيرة تلسع قلبها الغض . وأحست
بكراهية شديدة نحو هذه الفتاة ، بل نحو الرقص كله .

وكان الجو قد خلا لمحزٍ باستغال مختارٍ بالرقص مع
درية ، فجمَعَ أطراف شجاعته وتقدم إلى زينات فأنحى
أمامها ودعاها للرقص . وكأنما قد أرادت أن تنتقم لنفسها
فناولته يدها وانتظمت وإياه في سلك الراقصين ، بعد أن
ألقت على مختار نظرة كلها كيد .

ورآها مختارٌ بين ذراعي فارسها الجديد — وكان قد
قدمه إليه صاحب الدعوة في بدء الحفل — فعرف فيه
جارها . وبعد أن قرأ آيات الوله في عينيه ، واستعرض
قصة العينين اللتين تلصصتا عليه بالأمس ، لم يشك في
أن الفتى صاحبهما . فشعر نحوه بالقت ، كما ثارت نفسه
غضباً على زينات ، وود لو انقضَّ عليها فاخطفها من
غريمه وألقى بها أرضاً ثم صفعه على وجهه . ولكنَّ
العذاب الذي كان يذوقه شفع لها عنده ، لأنه أدرك أنه
قد أذاقها مثله من قبل . ومن ثم فقد اضطر إلى أن يكظم

غيظه ، وجعل يرقص وهو نادم على غلطته التي ورطته
فيها الظروف .

أما زيناتُ فلم تلبث أن أحست وهي تراقص محرراً
برعشات يده في يدها فكشفت سر قلبه وتملكها
الذعر . ثم سرعان ما عاودها الحنين إلى مختارٍ عندما
رأته يُسْرِقُ في حبه ، فاشتد بها الكرب ، وراحت
تلعن في سرها غريمه صاحب تلك اليد الآثمة وأخته التي
كانت السبب . فلما كَفَّت الموسيقى عن العزف غادرت
القاعة ميممةً نحو الشرفة ، وهي تشعر بأنها تكاد
تختنق ، وبأنها في حاجة إلى الهواء .

وبَصُرَ بها مختارٌ وهي تخرج محنقة ، فأيقن أن
الانتقام لم يُجْدِ مع حبها ، وخَلَصَ من ذلك إلى أنها
لم تَسْلُهُ فاطمأن . غير أنه لمح في عينيها بؤادر زوبعة
توشك أن تهب ، وتثير الغبار في جو علاقتهما فتكدره .
فخرج في أثرها يفتش عنها ليسألها الصفح .

ولاحظ الغريمان ذلك فاتقدا غيرة . وما كان من
محرزٍ إلا أن أشعل لفافة وراح ينفث في دخانها حقدَه .

على حين تهاكت دريةً على أحد المقاعد وقد أدركت
عاقبة اللعب بالنار . ذلك أنها كانت قد أرادت أن تمثّل
دوراً مع مختارٍ لتتخذ أخاها منه ، ولكن التمثيل لم يلبث
أن انقلب حقيقة ، وأصبحت نفسها بحاجة إلى منقذ .

...

وعثر مختارٌ على زينات تبكي في الشرفة ، فما ازداد
إلا يقيناً بأن التشفى لم يكن بل سماً على جرحها . وفي
حنان الحبيب ، تقدم يسألها وهو يتجاهل سبب بكائها
حتى لا يقف منها موقف من يرتاب في نفسه ، قال :
— مم تبكين يا زينة ؟

فكان جوابها أن أشاحت عنه وجهها غاضبة .
من قبل جَهِدت في أن تكتم حبها عنه استحياء ،
ولكنّ لذعات الغيرة أخرجتها هذه المرة عن صمتها .
كانت تشعر برغبة مُلحّة في أن تعاتبه ، علّها تظفر
منه باعتذار يزيع عن صدرها الغمّة . وهي في هذا العتاب
مضطرة إلى أن تبوح . بل إن العتاب نفسه بوح .
ومن ثم فقد عقدت العزم على أن تخوض المعركة ، وراحت

تمهد لها بهذا الغضب الصامت ، الذى كان بمثابة الغيم
الذى يسبق العاصفة .

وظل مختاراً يكرر عليها السؤال وهى لا تجيب ، إلى
أن شعر بأن تَزَمَّتْهَا قد خفق الجو ، فلم يجد بداً من
أن ينبشها لتفضى بما عندها ، علَّ الزوبعة إذا ثارت
يعقبها صفاء . فقال لها وهو واجف :

— أساءك منى أننى راقصتُ غيرك ؟ إن كان
هذا فلقد كانت المجاملة تقضى به .

وأراد أن يستمر فيشرح لها الموقف ، غير أنها
قاطعتَه بحدة قائلة :

— ومن قال لك أن تجامِلَ على حسابى ؟
وطاب نفساً بغيرتها عليه ، فأخذ يُرَبَّتُ يديها فى
حنو ويقول :

— يا لك من طفلة ! أئمة من يستحق أن تغارى
منه ، يا أفتن من فى الوجود ؟
فنهجت يده وهى تقول له :
— دعنى ! واذهب إلى من كنت تراقصها .

وضحك لسذاجتها وقال :

— ومن عساها تكون ؟ إني لأنسى حتى شكلها ،
كما نسيت كل الحسان من قبل . أقسم ما طلعت في
سمائي مليحة ، إلا غرقت من توها في موجة حبك ،
وابتلعها النسيان . أنت أنت ، ليس إلاك موجود
في حياتي .

وارتجفت تحت وقع كلماته ، إذ كانت هذه أول مرة
يكشفها فيها بالحب . حقيقة أنها كانت تقرأ آيات هذا
الحب في صوته وفي نظراته ، ولكنها كانت تتشوف إلى
كلمة صريحة تنقع غلتها . وإنها إذ تسمعها الآن ، لتترب
لنغمتها وتطلب منها المزيد . ولذلك راحت تقول له وكأنها
تستحبه على أن يستمر :

— لا أصدق . لا أصدق .

وهتف في توسل :

— رحماك يا زينة ! لا تقولى هذا . ألا تصديقين
من أحببك طفلة ، وراح يكتنم صوته ويتعذب ؟ ألا
تصدقين من تفتح قلبه حديثاً على نورك ، فشب

وما يؤمن في الحسان بسواك؟ أنت يا من لك جدّة
 الشعاع الأول، ورواء قطرة الندى المبكّرة؟ إني أحبك
 يا زينة! وحقّ عينيكَ الساحرتين، هاتين النجمتين
 المغلفتين بجفنك الكحيل! وحقّ شعرك الحالك
 كالليل، على جبين كالنهار! وحقّ فك هذه البسمة
 السرمدية، المملوءة لآلاء! وشفتك السفلى، تلك
 الياقوتة المدلاة — أحبك!

وسكت. وكان القمر يطل على الشرفة فيُغرق
 العاشقين في أشعته الزرقاء، ونغمات «التانجو» تتناهى
 إليهما خافتة من البهو، بما تحمل في ثناياها من أحلام.
 وفي وسط هذا الجو الشعري الجميل، وعلى أضواء القمر
 الشاحبة، لمح مختاراً ابتسامة ساحرة ترتسم على ثغر
 زينات وترى بضوء القمر، ثم سمعها تقول بنغمة كانت
 أحلى من نغمات «التانجو».

— حسناً، لقد صفحت عنك.

وتنهّد مختاراً مِلءَ صدره، ثم قال لها:

— شكراً لك. لقد رددتِ عليّ هنأى.

وأراد أن يعاتبها على رقصها مع محرز ، ولكنه
ذكر أنه لا يستطيع أن يتهمها إلا إذا اتهم نفسه ، وهو
الذي دافع عن موقفه من قبل في تهمة مماثلة ، فأثر أن
يلتزم الصمت . إلا أنه لم يجد حرجاً في أن يستفسر منها
عن سر العلاقة بين الشاب الذي راقصها والعينين اللتين
كانتا ترمقانهما أمس . فقال لها :

— ألم تلمحي أمس ونحن في الشرفة عينين ترقباننا ؟

— أذكر ذلك . ولكنني لا أدري أكانتا عينين حقا

أم شُبَّهتا لي !

— حسنا . فإذا ثبت أنهما عينان ، وأنهما كانتا

تطلان من منزل جارك ، ألا تجدان صلة بينهما وبين

ما حدث الليلة ؟ ألا ترجحين وقد حرص محرز على أن

يراقصك ، أنه كان صاحب تينك العينين ؟

فأجابت وقد شعرت بأنه يتهمها :

— ربما . ولكنني أقسم أني بريئة مما يريك .

وترددت ، أتحدثه بما كان من اختلاج يد هذا الشاب

وهو يراقصها ، أم تكتم ذلك لئلا تثير بلابله ؟ واختارت
السكوت . على حين راح يسألها :

— منذ كم سكن في جوارك ؟

— منذ أقل من شهر .

— وهل زرت أخته ؟

— كلا . ولكنها لا تفتأ تلح عليّ في ذلك كلما

لمحتني من النافذة .

— لا أريد منك أن تزورها أبدا .

وبدأت تحس بقيود الحب وتستعذّبها ، فهمست في

خنوع :

— حسنا .

— وثمة شيء آخر ، هو أن لا تقف بنافذة تطل

على هذا الجار .

فأجابت ، وقد شعرت بسلطانه عليها كما لم تشعر به

من قبل :

— لن أقف .

وشاء أن يجاذبها أطراف الحديث في شئون أخرى ،
ولكنها سبقته قائلة :

— ألا نعود يا مختار ؟ إني أخشى أن يفتقدنا القوم
فلا يجدونا .

وتردد قبل أن يوافقها على قطع هذه الخلوة الجميلة ،
ولكنها عادت تقول له :

— مختار ! أتوسل إليك ! إذ ماذا يقولون إذا
رأونا هنا وحدنا ؟

ونفض العاشقان . وفيما كانا يقصدان إلى البهو ،
صادفا محرزاً ودرية في طريقهما إلى الشرفة . فرمقهما
مختارٌ شزرأ ، وأسرَّ في أذن زينات :

— أرايت كيف يلاحقك ؟

— أفٍّ ، كم أمقته ! وأمقت تلك الفتاة أخته !

....

واستأنفا الرقص . ولكنَّ كلا منهما كان مُبَلِّبِل
الفكر بسبب المزاحم الذي ظهر في أفق حبه .
وعند انتهاء الرقصة ، أقبل مجدىُّ وأخذ يحدث

مختاراً . على حين اشتغلت زيناتٌ بالتحدث إلى زوجته .
 وإن هو إلا قليل ، حتى تعالت أنغام لحن محبوب
 من الجميع ، ومن مختارٍ على الخصوص لأنه طالما سمعه
 من حبيبته ، وهو لحن « الدانوب الأزرق » . فانطلق
 الراقصون يحركون أقدامهم على إيقاعه وقد أخذوا
 ينشدون مع النغم . وترنح مختارٌ نشوان . وأجال بصره
 في الحضور يبحث عن زينات . وفي اللحظة التي رآها
 فيها وأوشك أن يدعوها للرقص ، ظهرت والديها في
 البهو وأومأت إليها أن تتبعهما ، فلبت الإشارة على التو .
 وعندئذ لم يجد مندوحة من الجلوس وحده ، يتعقب بفكره
 عصفورته الشاردة ، ويبعث بالرسائل من الأشواق في أثرها .
 وبعد هنيهة عادت زينات ، تخفّ نحوها وبسط لها
 ذراعيه ، ولكنها انكمشت عنه فدهش ، ثم ما راعه
 وقد رفع إليها عينيه إلا أن رآها كاسفة البال .
 فسألها وهو يمسك بقبضة يدها البضة ويعود بها
 إلى الشرفة .

— ماذا بك ؟ ألا تودين أن ترقصي معي ؟

فتنهت وقالت في أسي :

— من قلبي أود ، ولكن ...

— ماذا ؟

— أمي نهتني . أتذكر إذ نادتنى من القاعة ؟

لقد كانت تقول لى : ما ينبغي أن ترقصى .

— معي ؟

— مع أى أحد .

— أحسب أنى المقصود بالمنع .

— ربما .

وبعد فترة صمت عادت تقول :

— أجل ، أمي نهتني يا مختار . وكل شيء ينهى

عنيك .

— كل شيء ؟

— نعم فضميرى ينهى أيضا . أواه ، ما كنت

أود مطلقاً أن أقف منك هذا الموقف . أين صلاحى وأين

تقواى ؟ أين غمضى القديم الذى يشبه غمض البراعم ،

حتى أسمح لنفسى أن أخلو بك وأعاتبك فى شأن من
شئون الهوى ، ثم أنصت إليك وأنت تلىق فى أذنى بهذا
الغزل ؟ دعنى أنهض ، فلشدد ما أنا خجلة من
نفسى وهنك !

وهت بأن تنهض ، ولكنه وقف فى طريقها وقال ،
وقد أحس بأن كلمات أمها قد ردتها إلى عهد براءتها
الأولى :

— بل ابقى يازينة وهدئى من روعك . لن نخجل
منى بعد اليوم . ولن ينهك عنى أحد . لقد عزمت على أن
أبدد من جونا الرئيب ، وعندئذ نظفر بالحب المباح .
لن نسرق خلواتنا كما نسرقها الآن ، لأنها ستغدو
ملكنا . ولن تغنى كلماتنا المحبوبة فى غفلة من الضمير ،
لأنه لن يؤنبنا عليها ، سننقل خطواتنا فى وضوح
النهار . ومنتطق بأحاديثنا جهرا .

— وكيف السبيل وهذه الأشواك فى طريقنا ؟
ولم يفهم مختار . واستطردت :

— أوه ! الأشواك ! الأشواك ! إني أراها نابذة

في كل مكان . وأكاد أحس وخزها في قدمي .

— أية أشواك ؟ غداً أقتلعها . غداً يصبح أزهاراً

طريقنا ، وندوس عليه بأقدام من ذهب . سألقى أباك
من فوري ، وأنتزعها كلمةً من فمه ، لن تزرع في طريقنا
إلا وردا .

— كلا ، لا تفعل . لا تفعل بربك .

وظن مختاراً أن تحذيرها من قبيل الخجل فهتف :

— بل سأفعل . وعندئذ لن يكون أسعد منا .

أرأيت إلى هذه الفراDIS التي نبتت في حياتنا ، والتي

حدثتكَ عنها أثناء الرقص ؟ إننا لن نقنع بعد اليوم

برؤية زهورها ، بل سنقطف من هذه الأزهار ونلقى على

أجسامنا . وسنجدوس خلال مماسيها ونجلس في خماثلها .

وسنقف على ضفاف غدرانها ونقذف بأنفسنا في مائها

ونستحم . كل هذا الذي نراه اليوم أحلاماً تداعبنا من

بعيد ، سيصبح ذلك أيدينا .

وذابت زيناتُ في سحر العالم البديع الذي كان

مختارٌ يضعه بين يديها ، ولكنها لم تلبث أن جذبت
نفسها منه ، لأنها كانت تعلم أنه لن يكون ملكها ،
وراحت تقول في إصرار :

— كلا . كلا . لا تقابل أبي .

وفر لون مختارٍ عندما رأى إصرارها . وبدأ في
اصفراره كالفنِّنِ الذاوى . ثم قال :

— لست أدري لم تنهينى عن لقاء والدك ؟
أفي الأمر شيء أجهله ؟

— نعم في الأمر أشياء .

— وما هي ؟

— أعفنى من ذكرها

فهتف في غضب :

— وكيف أعفيك ؟ أسرَّ علىَّ وأنا الحبيب ؟ وفي
أمر يمتُّ إلى الهوى ؟ تالله لقد بدأت أرتاب في حبك !
ونظرت إليه في عتاب وهي تقول :

— أرتاب ؟

نعم أرتاب . إن معنى تَكْتُمُك أن في الأفق

عبيك وعبد من نكبوا بسببك ؟ رحماك يا جلفدان !
 رحماك يا جلفدان !
 واستمرت تنتحب .

. . . .

وعادت أنغام « الحجاز » تعزف . لأنه كان في بقعة
 أخرى من الدار ، قومٌ سعداءٌ يرقصون .

مختارٌ يضعه بين يديها ، ولكنها لم تلبث أن جذبت
نفسها منه ، لأنها كانت تعلم أنه لن يكون ملكها ،
وراحت تقول في إصرار :

— كلا . كلا . لا تقابل أبي .

وفر لون مختارٍ عندما رأى إصرارها . وبدأ في
اصفراره كالقنن الذاوى . ثم قال :

— لست أدرى لم تنهينى عن لقاء والدك ؟
أفى الأمر شيء أجهله ؟

— نعم فى الأمر أشياء .

— وما هى ؟

— أعفنى من ذكرها

فهتف فى غضب :

— وكيف أعفيك ؟ أسرُّ علىّ وأنا الحبيب ؟ وفى
أمر يمتُّ إلى الهوى ؟ تالله لقد بدأت أرتاب فى حبك !
ونظرت إليه فى عتاب وهى تقول :

— ترتاب ؟

نعم أرتاب . إن معنى تَكْتُمُك أن فى الأفق

عبيك وعبد من نكبو بسببك ؟ رحماك يا جلفدان !
 رحماك يا جلفدان !
 واستمرت تنتحب .

...

وعادت أنغام « الجاز » تعزف . لأنه كان في بقعة
 أخرى من الدار ، قومٌ سعداءٌ يرقصون .

الفصل السابع

بعد أيامٍ قضّاها العاشقان في بُرَحَاء ، التقيا
عَرَاضاً في حديقة المنزل . وما إن تبادلا التحية ، حتى
قالت زيناتُ في التّيع :

— إني مسافرةٌ غدا يا مختار .

واضطرب الفتى وهتف :

— أحقُّ ما تقولين ؟ إلى أين ؟

— إلى ضيعتنا «بأوسيم» . إني منفية هناك . وإلى

أجل غير مسمى .

— منفية ؟ أتُرى سرّنا ذاع ؟

— أجل فاح عطر حبنا . وهوى الأبناء في أنوف

الأهل زكام . لقد لاحظوا شحوبى ، ولم يخفَ عنهم

اصفرارك . فلما كان أمسِ مساءً ، استدعتنى أمى

وتصنعتُ المرض ، وزادت أن زعمت أننى نفسى بحاجة

إلى تبديل الهواء ، ثم اقترحت أن نسافر معا . اقترح

معقول ، لولا أنى قرأت الباعث عليه فى عينها .

وسكتت لحظة ثم عادت تقول :

— أذا كرى أنت يا مختار ؟

وأجاب الفتى المضنى :

— وما شغلى غيرك ؟ نعم سأذكرك يا زينة .

سأذكرك كلما غرد طائر ، فأبلغنى منك رسالة .

أو نشرتُ زهرةً عطرها ، فنشقتُ فيه أنفاسك .

سأذكرك كلما سمعتُ حديثك فى خرب الجدول ، أو أنصتُ

لهفهفة شعرك فى حفيف الغصون . سأذكرك فى كل

وقت ، وأراك فى ركاب كل شىء جميل . فى مواكب

الضياء التى يجرجرها الصبح ، وفى القمر المثل على المروج

مساءً ، سارك ، نعم سارك يا زينات .

— وأنا أيضاً سأذكرك . وسأبعث إليك بشوق

الجريج فى مغرب كل شمس . وبالتحايا مع الطيور العائدة

إلى أوكارها . فإذا ما رأيتَ الدماء فى الشفق تسيل ، فاعلم

أنها أشواقى . أو طرّق سمعك نوحُ حمامة ، فاعلم

أنه بئى ترجّعه . وسأقطفُ الأزهار فى الصباح ،

وأضعها في الجدول ليحملها إليك . وأضمخ بالعطر
النسيم السارى ، ليملاً به جوك . ارقبني يا مختار
في كل شيء . وانظرنى في كل شيء . وإذا ما رأيت
كوكباً يتهاوى ، فاعلم أننى خرتُ صريعة حبك ،
ولا تترقبني بعد ذلك .

— فداؤك روحى يازينات ! بل ستمعيشين وتعودين
وشيكا إلى . ونحيا معاً كما يحيا على أيسر غردان . إننا
لم نقنط من رحمة الله . ولم نلق للرياح بأزهار الأمل .
ابتهى إليه سبحانه ، عساه يزيل الأشواك من طريقنا . من
يدرى فقد تزوج غداً جلفدان ؟ وعندئذ نبني أيضاً عشنا .
— إني أبتهل فى كل وقت . فكلما زاد بى
الكرب ، رفعت كفىً إليه بالضراعة ، واستعنت على
شقاى بالصلاة .

— وإنه تعالى لرحيم . ولسوف يرحم يوماً شكوانا ،
ويجزينا خيراً عن صبرنا .

— استودعك الله يا مختار . فقد لا يتاح لى غداً
وداعك .

— في حراسة الله .

وتركتَه ومضت في سبيلها . وفيما هي تصعد
درج الحديقة ، رفعتُ عينيها إلى نافذة دريةً وتهدت .
كان قلبها يتساءل :

— أترى تلاحقه الفتاة بغزلها كما فعلت في الحفلة ؟
وهل ينشد السلوى عندها ؟ حقا إن النافذة مغلقة الآن ،
ولكن من يدري فقد تفتَح غداً ، وتصبح السماء التي
يطلُّ منها كوكبه .

ثم ازدورت حسرتها وتابعت الصعود . وإنما لكذلك
إذ لاحت العاشقين الفقيرين في طريقهما إلى شاطئ النهر ،
فحيتهما بكآبة ، وغبطتهما على سعادتهما التي كانت تفيض
على ثوبيهما البسيطين بما لم تفيض به على ملابسها الحرير .
وكانت قد بلغت البهو فدكفت فيه وهي تبدو في ذلها
أفقر من أي إنسان . ما أرخص السعادة وما أغلاها !
إنها قد تُشْرِى بمجرد خفقةٍ مشتركة بين قلبين تغمض
عنهما عين الزمان . ولكن ذلك الذي قد يَم من تلاقى
نظرتين ، ربما كلف المرءَ عمره ولم يُدرك .

أما مختارُه فأحسَّ وهو واقف يشيعها ، بأنه يشيع
 نور عينيهِ . فتهافت على مقعد قريب ، وأخذ يتصور آلام
 الفراق ، وغُرْبَتَه بعد أن ترحل حبيبتَه . لن تغرب
 شمس الغد ، حتى تكون في بلد وهو في بلد ، ويعود التناؤ
 سيرته الأولى . أجل هي والشمس ستغربان معاً ،
 وتسكبان شعاع المغيب الأصفر على وجهه الشاحب . فيا
 ما أشقَّ الفراق على الأحبة ! ويا ما أمرَّ الحياة في غياب
 الحبيب ! غداً لن يُظله السقف الذي يُظللها . ولن
 يَنْشَقَّ من النسيم الذي تتنفس فيه . غداً لن يغنيهما
 طيرٌ واحد . ولن يقطفا من زهر واحد . سيكون لهما
 طيرها وله طيره . ولها زهرها وله زهره . وهما اللذان
 ما طاب لهما عيش إلا معاً . كأن أحدهما عينٌ والآخر
 إنسانها ، أو فؤادٌ والثاني حَبَّتُه . أو كأنهما الطيور
 تزهّد في الشدو وحيدة ، أو القُبَل لا تتم بفمٍ واحد .
 وكيف لا وحبٌّ واحدٌ يعيشان له ، وقلبٌ واحدٌ يحققان
 به . فبأيِّ يَدُقُّ ينبض في الآخر عرق ، وأَيَّان
 يحقق تسيل ببدنهما حياة .

وتطرق به الفكر إلى السبب الذي من أجله مستسافر .
 ما من شك أنها ستقصي بسببه . وشعر بأنه يضايق
 القوم . وأنهم أخذوا ينزحون عن دار هو فيها . ومما
 زاد في ألمه ، أن الدار كانت دارهم . وأنه وهو ذلك
 الغريب ، راح يطردهم منها ويفسح فيها لنفسه . فعاف
 ذلك الوضع الذي أرادت الأقدار أن تضعه فيه ، وقرر
 في نفسه أمراً اعتزم أن ينفذه .

فلما كان الغد انتظر حتى شيع مركبة زينات إلى
 أن غابت عن الأنظار ، وقبّل ذرات التراب التي تطايرت
 خلفها ، ثم هروا إلى عمه فلما دخل عليه قال :
 — أي عمّاه !

ورفع الباشا عينيه وقال في اقتضاب .

— إيه !

وكان متجهّم الوجه منقلب السحنة . وأدرك مختاراً

السبب . وود لو تمهل عمه قليلاً فاستراح .

واستطرد الفتى فقال :

— إني أستمحك عذراً فيما جئتُ أعرضه عليك .

ووضع الباشا يده على قلبه . لقد خشي أن يكون
قد جاء خاطباً زينات . وكان مجرد ورود هذه الفكرة إلى
ذهنه كافياً لأن ينغصه ، إذ يوقعه في ذلك الحرج المعهود
الذي لازمه منذ كبرت ابتلاء . وأخيراً أفلح في أن
يسيع ريقه فغمغم :

— تكلم يا بني .

وأنصت واحفأً ينتظر الحديث . وقال الفتى مخاطباً
عمه :

— لقد احتَضَنْتَنِي طفلاً وحنوتَ عليَّ حُنُوَّ
الأب ، فأُسَوّتَ جراحِي وخَفَّفْتَ عني اليَتمَ الذي
عاجَلْتَنِي به الأقدار .
وعَقَّبَ الباشا :

— وهل كنتَ إلا ابناً لنا ؟

على حين قال مختارٌ متابعاً حديثه :

— وَفَتَّحْتَ لِإِيوَائِي مَنْزِلَكَ وَأَوْسَعْتَ لِي فِي
حِجْرَاتِهِ فَلَمْ تُشْعِرْنِي بِغَرَبَةٍ وَأَنَا الْغَرِيبُ .
— وهل كنتَ غيرَ أهلٍ وابنِ أهلٍ ؟

— وَعَلَّمْتَنِي فَأَحْسَنْتَ تَعْلِيمِي وَصَيَّرْتَنِي رَجُلًا

فِي الرِّجَالِ .

— عَلَّمَكَ اجْتِهَادَكَ .

— وَالْآنَ وَقَدْ زَوَّدْتَنِي بِكُلِّ مَا يَتَزَوَّدُ بِهِ الْمَرْءُ لِيَبْدَأَ

كَفَاحَهُ فِي الْحَيَاةِ ، فَإِنِّي لَيَخْلُقُ بِي أَنْ أَعْتَمِدَ عَلَى نَفْسِي

فِي كُلِّ مَا اتَّصَلَ بِي مِنْ شَأْنٍ ، وَإِنْ تَطَلَّبَ ذَلِكَ أَنْ

أُجْرَ مَهْدَى الْعَزِيزِ ، وَأَقِيمَ فِي سَكْنٍ خَاصٍ .

— تَعْنِي أَنَّكَ تَرِيدُ أَنْ تَتْرَكُنَا ؟

— إِذَا أَذْنَتَ يَا عَمَاهُ .

وَوَجَّهَ الرَّجُلَ ، وَخَشِيَ أَنْ يَكُونَ مَخْتَارًا قَدْ فَطِنَ إِلَى

أَنَّهُ بَاتَ غَيْرَ مَرْغُوبٍ فِيهِ . وَسَرَّعَانَ مَا ارْتَسَمَتْ أَمَامَ

عَيْنَيْهِ صُورَةُ الْمَاضِي . فَذَكَرَ أَخَاهُ الْمَائِتَ مِنْ

عَشْرِينَ عَامًا . وَكَيْفَ أَنَّهُ أَوْصَاهُ خَيْرًا بِابْنِهِ وَهُوَ يَلْفِظُ

أَنْفَاسَهُ الْآخِرَةَ . ثُمَّ ذَكَرَ مَخْتَارًا الْيَتِيمَ . وَكَيْفَ

حُرِّمَ حَنَانَ أَبِيهِ فَرَّاحَ يَسْتَجِدِي حَنَانَ الْغَرِيبِ .

وَرَأَاهُ وَهُوَ يَحْبُو بَيْنَ يَدَيْهِ طِفْلًا نَاعِمَ الْأُظْفَارِ ، فَيَسْتَدِرُّ

الحنان من قلبه ، حتى استطاع أن يحتل فيه مكاناً وقَعَ
في حبته .

ذكر كل هذا فاغرو رقت عيناه بالدموع . وتأثر
مختار لبكاء عمه فبكى . وليس يحز في النفس كمنظر شيخ
يبكى ، ويسكب القليل الباقي فيه من عصارة الحياة .
ومرت بين الاثنين فترة صمت ، كان مختار فيها يذوب
شفقة على عمه ، وقد رآه يعاني من الحرج والعذاب
ما ينوء به شيخ في مثل سنِّه . ولم يكن العم بأقل
إشفاقاً على ربيبه والمعطر بذكريات صباه . لقد ذكر
حبّه اليأس ، وذكر ضعف قلوب الشباب أمام سحر
الغيد ، وكيف أنه وهو شابٌّ اكتوى مرة بنار الحب ،
فكان يشعر كأن يداً خفيفة تصب اللهب في جوفه . ذكر
هذا وعذر . ولمّا عذر رثى وترفّق . على أنه لم يلبث
أن ذكر زينات . وزينات ابنته وفلذة كبده ، وهي
توشك أن تتردّي في حفرة . ومن ثم فإنقاذها مقدّم على
كل شيء ، وهو ما ان يكن إلا بإقضاء مختار . وهكذا
لم يتردد في الثبات على رأيه الأول ، ولكنه بقي حارّاً على

أى صيغة يبيديه . مما لا شك فيه أنه لن يطمئن كبرياء
امرى ربّاه ذات يوم . ولكن ما دام ليس من طعنه
بد ، فليمسك السكين بيدٍ وبالأخرى البلسم . أجل ،
لا بد من مجاملة مختار . يجب أن يدعه يشعر بأنه يترك
الدار باختياره ، ولو أدى به الأمر إلى أن يخدع نفسه .
فيا ربّ خدعة أدخلها المغلوب على نفسه ، أبرأته
من جراح . وإذن فليسقيه السم في عسل . وإذن
فليُموّه الحقائق عليه . فرفع إليه عينيه المكدودتين ،
وراح يقول له فى لهجة عذبة :

— ولكنّ ذهابك سيشق علينا يا مختار . إن
عشرة عشرين عاما ليس من السهل أن تُنسى . فهلاً
فكرت قليلا فى الأمرايا ولدى ؟

— فكرتُ فيه يا عماء . وهدانى تفكيرى إلى ما
جئتُك فيه . وشجّعنى عليه أنه لا يتمُّ عن عقوق فما كان
بُعْدُ الدارين ليُنْقَصَ من الوداد . هبنى يا عماء لم أزل
مُغْتَرِباً فى طلب العلم ، أو هبنى زاوت عملا فى الريف ،
أفكان هذا يُنسينى مهدي ، ومن هم لي كأمى وأبى ؟

— حاشا يا بني أن أتهمك بالعقوق ، ولكنني أشفق عليك من الوحدة ، وأخاف أن يرهقك العبء .

— الأعباء يا عمّاه تخلق الرجال . وإنني ما جئت ألتبس منك ما ألتبس ، إلا طلباً لهذه الأعباء . أريد أن أثبت أن تربيتك أثمرت ، وثمار التربية رجال . ولن يكون الرجل جديراً بهذا الاسم حتى يُختبر في معركة . ولقد عولتُ على أن أخوض معركة الحياة لأجرب نفسي . وأمسِ وقع اختياري على غُرفِ بشارع فؤاد ، أروم أن أأخذ منها عيادة وسكناً . ولعله من الخير للطبيب أن يقيم حيث يعمل ، فإن ذلك لما يحفظ عليه وقته . فإذا أذنت يا عمّاه وما إخالك إلا تأذن ، ذهبت غداً لاستئجارها .

— الرأي لك يا بني ما دمت تصر .

ثم انكب على مكتبه وحرر ورقة أعطاه إياها وهو يقول :

— هاك إذناً بألف جنيه من متجمّع دخلك لتؤسس بها عمالك الجديد . فسر يا بني على بركة الله ، واذكر دائماً أن دارنا دارك .

وأخذ مختار الإذن وهو يقول :
 — شكراً لك يا عماء . ما لي غنى عنك ولا عن
 دارك .

ثم تناول يده فقبلها وانصرف .
 وجعل يفكر وقد خلا إلى نفسه : الآن قد كتب
 بيده وثيقة اغترابه ، وغدا يسير إلى المنفى بقدميه .
 ولكن ذلك خير على أى حال ، من أن كانت تأتيه مكتوبة
 ويرغم على توقيعها صاعراً .

وفي اليوم التالى حزم متاعه وذهب إلى السكن
 الجديد . وأجال بصره فى حجراته الخاوية فلم يجد زينات .
 وحاول أن يستمع إلى صوتها العذب فلم يسمع إلا أصوات
 قوم كلهم غرباء . بعضهم خدمٌ وبعضهم من المحالين
 الذين كانوا ينقلون الأثاث . فاستوحش ، وأحس بالغربة
 فى بيته ، وهو الذى لم يكديهنأ بردٌ غيبته . فمذ أسبوع
 عاد إلى الفردوس الذى طُرد منه من أربعة أعوام ،
 وها هو ذا يطرد منه مرة أخرى ، ولمّا تمض على

مُقامه فيه غير أيام معدودة . فلم يمالك أن هتف :

— أواه يا زينة ، لم فرقت الأيامُ بيننا ؟ بل لم
فرقتنا روحا عن جسد ؟ فأني وإن كنتُ هنا فبأوسيمَ
قلبي . وأنتِ وإن كنتِ بها فها هنا قلبك . ألا ليتَ
الزمانَ يَعِفُ حينَ يقسو ، عن حَفْرِ المهاوى بين
المرء ونفسه ؟

ثم تطرَّق به الفكر إلى محرز . حقا إنها الآن
بِنَجْوَةٍ من عينيهِ ، ولكنها ستعود يوماً ما ويبيت
حولها أشرا كه . وقد ينجح في غزو قلبها ، إذ من دأب
العيون أن تسلو البعيد ، وتألف من المناظر ما تقعُ عليه .
وكاد القلق يذهب بصوابه . لولا أنه لم يلبث أن
استبعد فكرة غدر حبيمته به ، وقد سقاها هواه حتى
أترعها . فعاد يتجالد . وأدرك أن الخور ليس من شيم
الرجال ، ولا هو مما يكفل النجاح في شيء . وهو بعدُ
يجب أن ينجح من أجل زينات . فزيناتُ له وإن طال
الأمَد . وهي لا شك تبني عليه آمالها ، وتُرى فيه بطلها

المنتظر . وما ينبغي أن يخيب ظنها فيه .
وهكذا آلى على نفسه أن يولى مهنته كل عناية ،
عساه يصيب منها النجاح الذى يأمل . ولم يسمح لآلامه
أن تهوى به . لكنه راح يتسامى بها ، ويسخرها فى
رفع تمثال المجد الذى صمم على أن يقيمه لنفسه . والآلام
قوة هائلة ، إن أحسن المرء استخدامها أتت بالمعجزات .
فهى كذلك البخار المضغوط الذى يسير القاطرة ، فى
وسعنا أن نصعد فيه فذهب هباء ، وفىوسعنا أن نكتبته
فينفجر بنا ، ولكن فىوسعنا أيضاً أن نجعله يدفعنا
إلى الأمام .

وسار إلى الأمام تدفعه آلامه . وحالفه النجاح من
أيامه الأولى ، إذ استطاع أن يحوز ثقة مرضاه ، فلهجوا
بالثناء عليه . ودرّ الثناء عليه الصيت . قليلاً فى أوله
كالقطر . ولكن القطر ما يلبث أن يصبح غيثاً ينهمر .

الفصل الثامن

بعد جولةٍ في حقول « أوسيم » ، عادت زيناتُ إلى
بيتها الريفي . ومراً من تحت نافذتها راعٍ في مغرب
الشمس . وتعالَت في السكون بحّاتُ نايه الشاكي .
جريحةٌ تشكو إلى الشفق الجريح . وأنصتت زيناتُ
للشكوى ، ورفرف بين جنبها ذبيح . كانوا عندما
شرّدوها ذبحوه . ليتهم تركوها وما قتلوه !

وراح الراعي ينفخ في نايه ، وكأنه ينفخ دماء قلبها
ويخضب بها السحب . فكانت كلما انبعثت نغمةً حاملةً
معهها ذلك النداء الذي ترسله إلينا آمالنا الغاربة ، خطفتُ
جانباً من هذا القلب المشوق لأن يلبّسى .

وعندما أخذت الولولة تبتعد بابتعاد الراعي ، خيل لها
أنها تذهب معها إلى ذلك المكان المجهول الذي تقرب فيه
الآمال . حتى إذا ما غاب صداها ، وغاصت البقية الباقية
من قرص الشمس وراء الأفق ، كان كل شيء من رشد

زينات قد ذهب ، ولم يبقَ منها غير هيكل مُسنَد
الرس إلى حافة النافذة ، هيكل عذراء ذبحتها سكّينُ
الفراق .

في هذا الوقت كانت تجلس والدتها في غرفة مجاورة ،
تقرأ كتاباً جاءها من زوجها . كان قد أرسلَ ينيهاً
بأن يختاراً رحل عن الدار ، ومن ثم لا بأس من أن تعود
مع زينات ، على أن تكتم عنها أمر هذه الدعوة ، وإلا
فطنت إلى أن سرها قد افترضح ، فينثلم حياؤها . وهو
بعدُ يحرص على هذا الحياء ، لأنه يعتقد أنه البرقع الذي
تحفى وراءه النفسُ سوءاتها ، فإذا ما انتهت مرة أمام
الناس ، وأبان من عورات صاحبه ما كان يجهد في
إخفائه ، لم يجد بعدئذ شيئاً يُبقى عليه ، فما يلبث أن
يخلع العذار .

وألقت شريفة هانم بالكتاب وهي تقول :
— رأى سديد يارمزي . فلازعم لها أنى سئمت
الريف ، أو لأستدرجها حتى تبوح هي بذلك ، ثم أقترح
(٤)

عليها العودة . ولكن شيئاً آخر ما ينبغي أن أخبرها به ، وهو أن مختاراً ترك دارنا . فإن من الأنباء ما يؤخر الإبطاء في إذاعته الشقاء المكتوب على الجبين . وكل يوم يتأخره الشقاء ، يضيف يوماً إلى عمر هنائنا . فلتجهل إذن زينات ما يسوءها حتى تعرفه في حينه ، ولا ترك لها ليلة تنامها فرحة ، ثم ليكن فرحها بعدئذ أ كذوبة ، فماذا يضير الأكاذيب ما دامت تدخل السرور على نفوسنا ؟ حقا إن الأكاذيب مأكلا أن تنكشف ، ولكن الحقائق أيضاً يتقلص ظلها ، ولا شيء على هذه الأرض يستطيع أن يمنحنا الهناء الدائم .

وقامت فدخلت على زينات . وألقها على حافة الشباك شبه نائمة . ولم يخف عنها ما تعاني من تباريح ، فربتت خدها فأفاقت وهتفت مدعورة :

— أماه !

وراحت الأم تسألها :

— ما ذا بك يا بنية ؟ أنوم ولما ينقض على

الغروب نصف ساعة ؟

وأجابت الحسناءُ المسريلةُ بهمومها :

— لا شيء يا أماء . إنه الخمول الذي تبعثه في روحى
الأيامُ المملة . لا جديدَ هنا يُذهبُ الصداً عن النفس .
ففى الصباح صياح الديكة ، وفى الغروب وَلَوَلةُ مزامير
الرعاة ، حتى إذا ما كان الليل ، فثمة ذلك السكون الخيم
الذى يشبه سكون القبور . ووسط هذا الجو الذى
لا تغيير فيه ، تسير حياتى على نهج واحد . فإذا ما فرغتُ
من التزه فى الحديقة ، خرجتُ للتجوال فى الحقول ،
وهكذا دواليك كأننى نحلة ما يعينها إلا الدوران حول
نفسها . فهل هذا مكان يستجيمُ المرء فيه ؟ تالله إن هذا
الريف ما يُورثُ إلا السقم . انظرى كيف شحب لونى
وبرزت عظامى ، وأصبحتُ كهومياء .

واحتوتها الأم بين ذراعيها كأنما لتُنَحِّىَ عنها
الشر . ثم قالت وهى تحدق فى وجهها الجميل :

— ماذا دهِى الريف عندك يا زينات ؟ أنسيتِ سابق

كلفك به ، وارتياحك إلى المُقام فى ربوعه ؟

— لا ، ولكنى سئمته . لا شيء يأخذ بلب
 الإنسان إلى الأبد . إن النعمة الواحدة ، تطربنا لمرة
 واحدة ، ثم تغرق جذتها في نشوتنا ، فتروح نلتبس
 نعمة جديدة لم تفن في حواسنا بعد . نعمة لم نغنها
 من قبل . وهذه الأسرار التي تذهلنا عن أنفسنا حيناً ،
 تبدو تافهة بمجرد أن تحل . ولذا فنحن نحتاج كل يوم
 إلى سر مغلق نستمتع بفض غلافه . وإن يوماً لا يطلع
 علينا بمفاجأة تهزنا من الأعماق وتذهب عن أنفسنا
 الملل ، لا كان ولا عشناه . ولقد ملت نفسي يا أماء من
 طول ما صرت على الأيام متشابهة ، فإذا لم تبادرى بالعودة
 بي إلى المدينة ، فسأرغمك على أن تعودى بي إليها جثة
 هامدة . آه ، إن الفناء كيدب إلى مسرعا وسط هذا
 العالم الفانى .

وضحكت الأم لهذه الحدة الساذجة . ولم يفثها أن
 الصبية تكذب لتسوِّغ طلب عودتها . ولكن هذه
 المغالطة كانت عين ما تشتهيها السيدة . ألم تأت
 لاستدراجها كي تطلب هي العودة ، وها هي ذى تطلبها

متذرعة بسبب لبق ؟ إذن فلقد كان الظرف مهياً كي
تقول لها :

— ما دمت تلحّين في طلب السفر ، وما دام المُقام
هنا يؤثّر على صحتك الغالية ، فلا يسعني إلا أن أنزل على
إرادتك .

وانتفضت الفتاة بين ذراعي أمها ، وهتفت وهي ترفع
إليها عينيها الواسعتين :

— أحقاً يا أماه ؟ ومتى يكون ذلك ؟

— كما تريدن . ليكن غداً إذا شئت .

— حسناً . وليكن صباحاً يا أماه . بل ليكن مع

يقظة الطير . بل مع رَدِّ الندى على زهر البكور . بل
ونجم الصباح لمّا يختف وراء تباشير الضوء . شكراً
يا أماه ! تعالى أقبلْكِ يا أماه .

وراحت تغمر أمها بالقبلات . ثم تركتها واندفعت
إلى النافذة . كانت تلقى نظرة على الطريق الذي سيعود
بها غداً إلى القاهرة ، وتستحث الليل الرابض في
جوف السماء ، أن يجرجر أذياله على عجل ، ويفسح

مكاناً لنور الصباح .

ثم طفقت تتنقل من حجرة إلى أخرى كطفلٍ مجنون
بصباه ، وهى تهتف فى قلبها :

— مختار ! إني عائدة . كم ذا تكون فرحتك بي
عندما ترانى أمامك فجأة ! سأهبط عليك كما يهبط النبأ
الसार . أو كما يهبط الندى على وادٍ ذى زرع . وستنفذ
إلى قلبى بعينيك مرة أخرى ، وتملؤه نوراً بسناها . غداً
يا مختار ، ستضمّد جراحي وأضمد جراحك . وسيوزق
فى قلبى غصن الأمل من جديد ، ويعود يُنبت فى خدّى
الورد ، فما ترانى شاحبة هكذا . لن أحمل همّاً بعد اليوم ،
حتى همّ التفكير فى الزواج بك . حسنى أن أراك من
الزحام ، كما لو كنتَ قرأاً وأنا أحد الناس . وأصغى
إليك مع غبرى ، كما لو كنتَ طائراً وأنا زهرة غارقة
وسط الحشْد . لقد علمنى نأيتك قيمة النظرة المجردة
التي لا تطفئ لاجعاً ، والأحاديث البريئة التي لا تشفى
الأوام .

ولم تسنم ليلتها ، وظلت تناجى نفسها بهذه الأفكار .

وبين حين وحين تنهض من فراشها لتلقى نظرة على الليل ،
وتستحيه أن يذهب .

...

وفي الصباح ، ارتدت زيناتُ ملابسها ووقفت في
الشرفة تطل على الحقول وتترع عينيها بمنظرها الجميل .
فأحست بأنها عادت تحب الريف بعد أن كفَّ
عن التفرقة بينها وبين حبيبها . وكأنما كُبر عليها أن
تنكرت له بالأمس فطفقت تناجيه في تدلُّه وتقول :
— كلا ، إني أحبك أيها الريف . أحب منك
هاتيك السهول الفسيحة ، المصبوغة خضرة على مدى
البصر ، تشقُّها جداولُ كأنها أسلاكٌ من الفضة ،
وتطلُّ عليها السماءُ بثوبها الأزرق الموشى بالسُحب ،
والذي تلوِّنه كل يومٍ في الفجر وفي الغروب
بعضير الورود النابتة في قمم الجبال ، وتبدله في المساء
بآخر للسهرة ، وقد رصعته بنجوم كأنها الماسات ،
لتستقبل به القمر حين يطلع من خلف الربا ، ويُساقطُ
على خدّها قبلاته ، فإذا الغصون من الأرض تناغيهما

والجنادبُ ترفهما ، والنسيمُ يسرق عطر الزهور
لِيَنْضَحَهُمَا بِهِ ، وَيَخْلُسُ الْبَلْبَلُ مِنْ عَلَى صَفَحَاتِ
الماء ليرطّب به خلوتهما .

وتوقفت لحظة ثم عادت تقول :

— نعم لهذا أحبك . ولكل ساذجٍ فيك وخلاب .
مِنْ سَوَاقٍ تقوم على الضفاف تجرُّها أبقارٌ معصوبة ،
كلما تدفق من عيونها الماءُ كشلالات ، فَأَتَلَفَ
خريره الشاكي مع نُعارها الحزين ، فثمة أغنية
خالدة . وقطعانٍ من الغنم ما بين ذاهبةٍ في الصباح إلى
المراعي ، وعائدةٍ إلى حظائرِها في الغروب ، إِمَّا عَدَتْ
تَضَا حَكَتْ عَلَى وَبَرِّها أشعةُ الشمس ، وَحَدَّثَتْهَا
مزاميرُ الرعاة الشادية . وصبايا يتبعثرن في الحقول في
مواسم الجَنَى ، وما يفتأن وهنَّ يحصدن الثمار يتغنين
بأناسيدهن الريفية المحبوبة . وأُخَرَّ يتجمعن حول منابع
الماء يَمْلَأْنَ الْجَرَّارَ ، ثم يسرن بها بين صَحْبٍ خلايلهن
وقد فار على حافاتِها الزَّبدُ كأنه قهقهة إنسانٍ سعيد .
ثم استدركت :

— كل هذا على شريطة أن لا تأخذني من حبيبي .
 آه ، مَنْ لِي بِشهر أَقْضيه فيك بصحبته مَنْ لِي !
 وكان موعد الرحيل قد حان وجعلتُ أمها تناديها ،
 فهرعت إليها وهي تنزل الدرج قفزاً ، ثم استوت بجانبها
 في المركبة التي انطلقت بهما إلى القاهرة .
 وفي هذه المرة كان كل شيء باسماء في الطريق ، خلال
 عيني زينات . فكانت الحقول الخضراء تبدو كوجوه
 مستبشرة . وكانت قطرات الندى التي تخضّل النباتات
 النامية على الجنين ، تلُوح كنقط عصـرها عليها الهناء .
 ولم يعد طنين السواقى ينساب نائماً في أذنيها كما كان
 يفعل وهي قادمة إلى الريف ، وإنما كان هذه المرة أشبه
 شيء بمغمة مريحة يهذي بها سكران . لقد تحوّل كل
 شيء في عيناها بتحول لإنسان هذه العين .

...

وأخيراً وقفت المركبة أمام باب القصر ، فنزلتا منها .
 وما إن بلغتا الدهليز ، حتى أقبلت جلفدان والخدم
 يحيونهما . وتلفتت زينات فلم تجد مختاراً فيمن حضر .

فانسَلَّت من بين القوم ، وبعد أن ألقت نظرة واجفة
على نافذة جارتها ، وأطمأنت إلى أنه لا نجمَ فيها يرنو
إليه مختار ، راحت تجوس خلال الحجر باحثة عنه وهي
تهمس :

— مختار ! هأنذا عدت فهلُمَّ إلى ! هلمَّ إلى ولا
تبطيء ! تعالَ انظرُ ضناي ! تعالَ انظرُ ذبولي ،
واسقني من هذا الماء الذي يعيد إلى نضرتي ، ماء
طلعتك الوضيئة ، الذي يتفجر من جبينك كما يتفجر
الينبوع ، ومن عينيك .

وإنما لَسْتِ هَيْبُ به بهذه الكلمات ، إذ حانت منها
نظرة إلى غرفته فوجدتها خالية من الأثاث . فتوقفت عن
السير وشهقت شهقة كادت ترهق لها روحها ، ثم راحت
تقول وهي تجيل بصرها هنا وهناك :

— مختار ! مختار ! أين أنت ؟ ما لحجرتك خاوية ؟
أجب يا مختار ، يا حبيبي ! أين أنت ؟

وردَّدَ الصدى نداءها . وانسكب في أذنيها يقول :
« أين أنت » ، ثم لا يجيب . كان يتكلم بلغة الفناء ،

الذى لا يملك حين يفوه إلا أن ينتكس راجعاً إلى معناه ،
فلم يزد على أن حكي كلمة فانية .

فضربت صدرها وصرخت :

— ويلي !

ثم انطلقت تعدو وتتخبط كذبوحة ، وهى تردد
بصوتها الملتاع :

— مختار ! يا حبيبي ! أين أنت ؟

واتفق أن مرَّ أحد الخدم فاستوقفته سائلة :

— أين مختار ؟

وأجاب الخادم :

— إنه لم يعد يقيم هنا يا سيدتى . منذ أن اتخذ له
عيادة ، آثر أن يجعل إقامته فيها ليكون عن كثر
من مرضاه .

ومضى الخادم لسبيله . وظلت زينات تحملق فيه
وكأنها لا تصدق ما أخبرها به . ثم اندفعت تفتح الحجرات
مرة أخرى ، وتنظر فيها وهى تقول :

— مختار ! هل ذهبت حقاً ؟ لن جئت إذن ؟ ولماذا

لم أبقَ في أوسيم ؟ واحسرتاه ! إنها كانت فرحة ليلة ،
ليلة واحدة ، ثم لم تتم . يا حبيبي يا مختار ! عندما زفّت
إليّ أمي نبأ عودتي ، خلّت أن يوم اللقاء قريب ، وإذا
بنا ننقل من فراق إلى فراق . فيا ربّ حتام هذا
الشقاء ؟ وحتام التناؤ بين الأحبة ؟

ثم أدركها الإعياء فارتمت على مقعد وأخذت تبكي
وتقول :

أرجف الخادم يا مختار ، عندما زعم أنك ذهبت
برغبتك . إذ كيف تذهب ونور عينيك هنا ؟ يصب
من لحظي وثناياي وجيبي الوضاح ؟ وهل يتخلى عن نور
عينيه إنسان ؟ فيا حبيبي خبرني : أتخبرت الرحيل أم
أرغموك ؟ لهفي عليك ! هل أعادوك يتيما كما كنت ،
لا عين ترعاك ولا أهل يؤنسون وحدتك ؟ وكل ذلك
من أجلى أنا ؟ آه ، لا كانت زيناتُ إذن ، إن كان لا بد
أن ينالك منها سوء ! ليتني ! ليتني أستطيع أن أنتقل
إليك وأسهر على خدمتك ليتني ! ولكن اطمئن ،
فسأوافيك بقلبي حيث أنت ، وألازمك ليلَ نهار . فإذا

ما جلستَ وحدك في المساء يا حبيبي ، أو رحتَ تبرم
 بصمت بيتك الموحش ، فاذكرُ أنني بجانبك ، أو نسك
 وأسرى عنك ، ونادني باسمي وبادلني الحديث . أو اه
 يا مختار ! لقد قتلونا وإيم الله ! عندما ضن الزمان علينا
 بالأمل ، بقى لنا أن أراك وتراني ، وتحدثني وأحدثك ،
 ولكن تلك البقية قد أبوها علينا أيضا . فليت شعري
 ماذا أقل من النظرة كان يبق لنا ؟ وهل كان حتما أن نفقد
 كل شيء كي يرضى ذوونا ؟ أو اه مختار ! يا من بعدت
 وما أطيق بعبادك ، وهجرت فاضرمت في أضلعي
 النار — كيف احتمالي وخطبي فيك لا ينفع الصبر معه ،
 وليالي من بعدك طوال ؟ ألا أدركني ! أدركني
 يا حبيبي ! ففؤادي تضعضع وجسمي وهى . والضنى
 كسانى فرعاً لقدم .

الفصل التاسع

أمضى مصطفى وعفاف أوقاتاً ناعمة بعد أن تمت خطبتهما . وفي انتظار فوز الفتى بوظيفة حكومية تؤهله لها أوليته في الامتحان ، لم يحلما إلا بالسعادة والثراء ، وكادا ينسيان أيام فقرهما الأولى . ولم يدرا بخلاهما أن الشقاء يتعقبهما من وراء ستار ، كأنما قد عقد بينه وبينهما محالفة يأبى إلا التمسك بنصوصها .

ذلك أنه ظهرت نتيجة التعيين في المنصب الوحيد الخالي بالصلحة التي كان مصطفى قد قدم طلبه إليها ، فإذا بالذي يظفر به شخص آخر . وعقلت الدهشة لسان المسكين ، عندما وجد أن هذا الشخص زميله «عاكف» . إنه يذكر عاكفاً هذا . فهو ذلك الفتى الخائب الذي لم يستطع النجاح إلا في الملحق ، فبأى حق يقدم عليه وهو أول فرقته ؟

وأظلمت الدنيا في عينيه وحر ماذا يفعل ؟ أيسلك

سبيل الأعمال الحرة ؟ ولكنه مُعِدِّمٌ والبدء يحتاج إلى مال . أم يلتبس عملا في مؤسسة أهلية ؟ ولكن في البلد أزمة تَبْطُلُ عَمَّتْ كل الميادين .

إذن لم يبقَ أمامه إلا أن يعمل خادماً في قهوة ، أو يجول بائعاً أوراق النصيب . وبدا ينفذ يده من مستقبله إلى الأبد ، ومن عفاف أمنيّة فؤاده ، ويكون قد بذل بلا ثمن تلك الساعات الطويلة التي أنفقها في طلب العلم ، وتلك الدماء الغالية التي استنزفها جدّه المتواصل . حقيقة أن كل الأعمال شريفة ، مادام تنوع المهن ضرورة حتمتها طبيعة الجماعة ، ولكن يَبْقَى مع ذلك أنها تتفاوت في نواحٍ أخرى . وإذن فمن الغبن أن يقنع منها بالتافه ، مع أن بيده الإجازة التي ترشحه للمجد . ألا ما أظلم الحياة ! لا بل ما أظلم القاعين بالأمر فيها !

تتابع كل هذه الخواطر بذهن مصطفى . على أنه أمّل أن لا تكون العدالة قد انقرضت بتاتا من هذه الأرض ، فبدا له أن يذهب إلى رئيس المصلحة ويرفع إليه شكواه لعله ينصفه . وراقت له الفكرة فلم يتردد ،

وبادر إلى تنفيذها من فوره

...

وَمَثَلُ مصطفى بين يدي الرئيس ، ولم يكن إلا
رمزي باشا ، فلما فرغ من شرح مظلمته له ، سأله الباشا
في تهكم :

— وهل جئت تحاسبني ؟

فرد الفتى عليه وقد ساءه تهكمه :

— عفواً ، بل جئت أستجدي . أستجدي حق !

وغلى الدم في عروق الرجل ، إذ أدرك أن الفتى يوبخه .
فقال له في حنق :

— اسمع يا بني . لماذا لاتلجأ إلى الأعمال الحرة

بدلاً من الوقوف بأبواب الحكومة ؟ أليس من خور

الغزيمة أن يفر شاب مثلك من ميدان النضال ؟

وهكذا كان أسهل على الباشا أن يصممه بالخور

من أن يصم نفسه بالظلم !

ووقفت هذه الجملة في حلق مصطفى . وكاد يشور

لكرامته ، ويلقي على الباشا درساً في وجوب احترام

الناس حتى لو لم يكونوا من حملة الألقاب . ولكنه
ما لبث أن أخذته رهبة المنصب فتراجع . ثم قال وهو
يزدرد الإهانة دون أن يقوى على القذف بها في وجه
خصمه :

— ما كنتُ بالفاتر الهمة أيها الباشا . ولكنني
لا أملك النواة . لا أملك القروش التي أبذرها لتُسَنِّب
جنيهاً .

— آه ! هذا ذنب حظك .

— حظي لم يذنب . لقد سلمني بدلَ الذهب وثيقةً
به ، وبذلك خرج الأمر من يده ، وانتقل إلى أيدي من
وُكِّلَ إليهم إيتاء الحقوق . إن في كل خلية بذهني
الممتاز ، دائماً يدين الوطن .

فسعر الباشا بالخزي . ولم يجد ما يستر به حرجه إلا
أن يبتسم ساخراً بمحدثه ، ثم انكب على أوراقه يفحصها .
لم يكن يُعْوزُهُ المنطق الذي يُفْحِمُ به فتى حَدَثًا ،
ولكن كان يعوزه الحق . وسلاح الباطل مفلولٌ أبداً ،
حتى لو كان في يد فارس .

أما مصطفى فراح يقول كمن يلقى بآخر سهم في
جمعته :

— رحماك أيها الباشا ! إنني فقير وأعول أمّا
مريضة ، فاعمل شيئا من أجلى .
ولكنه لم يجد جوابا فانصرف . غير أن لهجته كانت
قد فعلت في ضمير الباشا فعلها .

...

وصادفه في أحد أروقة الديوان موظف شيخ من
موظفيه كان صديقا حميما لوالده . فحياه ولما لاحظ أنه
مهموم سأله عما به فقص عليه قصته .
فلما فرغ منها قطب الشيخ جبينه وراح يتمتم في
استمياء :

— قاتل الله المحاباة ! تخفض الرأس وترفع الأذنان !
— إذن فعاكف للباشا ذنب ؟
— أجل ، إنه خاطب ابنته . إن لدى الباشا ابنة
دميمة حار كيف يزوجها . ولما علم بذلك الخبيث
« رجب » — وهو موظف معي بالقلم يتقن من الزلفى

للرؤساء — لم يشأ أن تفلت من يده الفرصة ، فجاءه بهذا
الخطاب على أن تكون الوظيفة ثمنا لزواجه . لا حول
ولا قوة إلا بالله ! إن بعض البنات أصبحن سلعاً تباع ،
والزواج بهن صار رشوة .

— هذا فظيع ! وأفطع منه أولئك الذين يتزوجون
منهن دون رغبة ، ويبدلون رجولتهم لقاء وظيفة . ماذا
أغلى من الرجولة ، حتى نهدرها في مخادع نساء
لا نطيقهن ؟

واستطرد :

— حقيقة إن هذا الزواج يجبر خاطر الدميات
العوانس ، إذ يأتي لهن بأزواج ممتازين ، ولكنه يكسر
خاطر الحسان الفقيرات ، لأنه يترك لهن الخثالة مع أن
حسنهن يكسبهن الحق في النُخبة . ليست الدمامة ذنباً ،
ولكن الطيور يجب أن تقع على أشكالها . وقديماً
رشدت الصفات ذويها لما تستحق .

— دعنا من هذا . ما رأيك في أن للبasha ابنة أخرى

في وسعك أن تزوجها وتظفر بوظيفة ؟

فهتف مصطفى :

— أنا؟

— أجل . ولن تُذِلَّ في هذه الصفقة رجولتك كما
أذلها عاكف ، لأن الفتاة التي أعنيها آية في الحسن .

وإذ كان مصطفى يعرف بيت الباشا ، من طول ما مر
به هو وعفاف ، فقد طافت بذهنه الفتاة التي ما رآتهما
منه إلا تبسمت . فأمن على أنها حسناء . ولكنه لم
يتردد في أن قال :

— لتكن «فينوس» أخرى يا عمي ، فإني خطبت
فتاة أحبها وتحبني ولا أرضى بها بديلا .

— ذاك وهم يابني من أوهام الشباب ما يلبث أن
يزول .

— ليكن فإن الجمال في هذه الأوهام . وهبها تزول
فماذا غيرها يبقى ؟ إننا أنفسنا نعيش إلى أمد ، وما كان
للفنانين أن يعميـروا سواهم بالزوال . وفضلا عن ذلك فعاد
على أن اشترى رزقي بزواج ، حتى لو برّح بي الجوع .
— لست أرى المغالاة في التعفف من حسن الرأي .

عليك يا بنيّ إذا أردت أن تعيش ، أن تتطبع بطباع
العصر الذي تعيش فيه ، وإلا رحت ضحية مثاليتك .

— ضحية مثاليتي ! ألا تبأس عصرٌ تصبح المُثُلُ

فيه نكبة على الإنسان !

— على كل حال فكر في الأمر .

— فيم أفكر يا عمي ؟ أفى الاتجار برجولتي ؟ أم

في الغدر بمن منحتنى قلبها فكانت كريمةً ووثقتُ بي ؟

— قلت لك لن تتجر برجولتك ، لأنك ستتناقض

مقابلها من زينات أنوثة .

فقاطعه مصطفى ساخراً :

— وهل هذا اسمها ؟

— نعم .

— وما اسم الغادة الأخرى ؟

— مخطوبة عاكف ؟ جلفدان .

ثم عاد يتمم حديثه قال :

— وأما عن الحِثِّ بمهد مخطوبتك ، فلست أنكر

أنه شيء بغيض ، ولكنه ما زال أهون الضررين . إذ
 في وسعها أن تنتظر إلى أن تجيئها الأيام بسواك ، ولكن
 أمك لن يمهلهما المرض حتى يبسم لك الدهر . ثم كيف
 تزوج وأنت على فقرك هذا ، إلا إذا كنت تريد أن
 تجيع زوجتك ، وهو أمر إن ارتضيتَه ما إخالها ترضاه ؟
 فيها أنت ذا ترى أن هذا الزواج محال أن يتم ، ما لم
 يُوَآتِكَ الحظ وتوفق إلى عمل ، وهو ما أراه معجزة في
 هذا الزمان بالنسبة إلى فقير . إذ لن تعدم كلما تقدمت
 إلى وظيفة ، مزاحماً من ذوى الخطوة يقنصها منك . من
 وضعٍ يجعل المصاهرة سبباً لها . أو ترى في غنى عنها
 ولكنه لا يقنع .

وشعر الفتى باليأس . لقد تذكر حبه الذي أصبح في
 كفة القدر ، وأمه التي يبيع المرض في جسدها
 ويشتري . فتنهد ملء صدره وقال :

— تَبَّاهُؤْلَاءَ ! إِنْهُمْ يُوَدُّونَ الْتِهَامَ كُلَّ شَيْءٍ ،
 كَانَهُمْ وَرَثُوا الْأَرْضَ وَمَا عَلَيْهَا . وَمَا هُمْ بِبِيعَاءٍ وَلَكِنْ

الجوع في خلقتهم . إنهم غيلان آدمية ، تأخذ للبدنة
 الأخذ لا حاجتها إليه . حتى إذا ما اكتظت بطونها بما
 تلتهم ، لفظت ما لم تستطع هضمه في ذلك الترف
 الذي تنغمس فيه . حسبهم الله ! من حوّلوا أقوات
 الناس إلى دُمى يلعبون بها ، وتركوهم فريسة للجوع !

واتفق أن خرج الباشا من مكتبه ومر بهما . كان
 في حالة يرثى لها من العذاب . يدل الخزي البادى في
 عينيه ، والغبرة التي تعلو جبينه ، على أنه يعاني أزمة
 تمّت إلى الضمير . فأطبق مصطفى فمه . وتراجع الشيخ
 يفسح لرئيسه .

وحيا الباشا مرءوسه وهو مار . ولم تخفَ عليه
 شخصية من كان معه . فأدرك أن بينهما معرفة . ولأمر ما
 شعر بأنه قد يستغلها في مهمة لم تتضح له خطوطها بعد ،
 كأنما كان ضميره يحدّثه في الخفاء بأنه لن يدعه حتى ينصف
 من ظلمه ، وعندئذ قد يحتاج إلى من يبعثه في أثره ليأتيه به .
 وكان منظر الباشا قد حرك في نفس مصطفى عوامل

الحقد ، فراح يستعدى عليه السماء . وبعد قليل شوهد
 يريم على وجهه في شوارع المدينة لا يلوى على شيء .

...

ومنذ ذلك اليوم انقبضت نفسُ الفتى ومخطوبته عن
 زينات ، فكانا يعانيان مشقة كبيرة في رد التحية إليها ،
 كلما مرأ بها فأومأت كمادتها لهما .
 وما ظلمتهما زيناتُ وإن ظلمهما أبوها . ولكنَّ
 من كره نفساً كره ما حولها .

الفصل العاشر

بلغ الجشع بمعظم الحكام الذين عاصروا رمزي باشا ،
أن خصوا ذويهم بوظائف الدولة ، كأنها تركة آلت إليهم
غن آبائهم لا عن الوطن أبي الجميع . فكنت إذا تعقبت
طائفة الموظفين ألفتها شبكة متصلة الحلقات ، تربطها
جميعاً روابط القرابة أو النسب ، وقل أن تجد بينها حلقة
قائمة بذاتها لا ينتظمها هذا العقد الجهنمي .

إلا أن رمزي باشا لم يكن من هذا نفر . فقد كان
يمقت المحاباة أشد المقت ، ولا يبرم أمراً إلا إذا اعتقد
بعدالته . ولعل هذا كان يرجع إلى عمق شعوره الغريزي
بالعدالة ، عمقاً لم يستطع معه أن يؤثر وحي البيئة فيه .
فلما دخل عليه رجب أفندي يعرض عليه خاطباً
لجلفدان ، ويملح له من طرف خفي بالثمن الذي يطلبه
الخاطب ، شعر أول الأمر بالاشمئزاز من هذه الصفقة ، وكاد
يرفض المضي فيها ، لولا أنه سرعان ما تذكر ابنته العانس ،

ثم ما قد يترتب على عناسها من عناس الأخرى ، فطفى عليه حنانه الأبوى ، ووجد في هذا العرض فرصة ذهبية لإزالة نحسهما ، فلم يلبث أن قبله على مضض وعين عاكفاً في الوظيفة الحالية .

غير أنه لم يكد يخلص من إشكال ابنته حتى وقع في إشكال آخر ، هو تأنيب الضمير من جراء المظلمة التي أقدم على ارتكابها . كان يشعر بأنه وإن أسدى إليها خدمة ، فقد أسداها إليها على حساب إنسان آخر ، وتلك جرعة لا يكفي لتسويغها حب الآباء للأبناء .

على أن منظر الفريسة التي أرداها في سبيل هذه الابنة ، لم يلبث أن غرق في موجة الفرح التي غمرته لتخلصه من عناسها ، وغرق معها مؤقتاً صوت الضمير . فلما قبله مصطفى وأعاد على عينيه مشاهد المأساة التي قام فيها الباشا بدور المجرم ، انجابت الأمواج عن الفريق ، وراح الباشا التعس يتمثل في جثته المسجاة شفاعاة الجرم الذي اقترفه .

ولم يكن بُدٌّ من أن يزود عن نفسه هذا العدو

الخفيف ، ألا وهو الضحية التي راحت تستمطر عليه
اللعنات من ضميره ، فأنبرى يحاول الإجهاز عليها بذلك
المنطق المزيف الذي جادل به مصطفى عندما جاء يشهر في
وجهه سلاح الحق .

وهكذا يتمثل الآثم في ضحيته عدوه اللدود يعد أن
تخر مضرجة بدمائها ، فيمعن في القسوة عليها ظانًا بأن
هذا يحو كل أثر لها في الوجود ، فلا يعود يتعقبه منظرها
المخضب بالدم ويلقى الرعب في قلبه . وينسى أن
الضحية وإن اختفت ، يبق ظلها إلى الأبد وقد احتل
عيني قاتلها وأخذ يذكّره بأثمه على الدوام .

وإذن فهل ظفرت نفس الباشا بالسلام بعد أن
أجهز على فريسته ؟ كلا ، لقد كانت كل طعنة يطعنها
بها تريد كمية اللعنات التي يصبها عليه ضميره . ولذلك ما
كاد مصطفى يخرج من لدنه مكسور الخاطر ، حتى وجد
نفسه محاطا بجيش من أعداء المرء ، ألا وهو صرخات
الضمير حينما يسخط .

وإنه لَجالس يتلقى الطعنات من ضميره ، إذ سمع نقرأ
 خافتاً بالباب ، دخل على أثره رجل منحني القامة من
 طول ما اعتاد أن يطأطئ رأسه ، وقد حرص على أن
 يزرَّ سترته ويغضَّ من بصره . ثم اتجه إليه يقدم
 رجلاً ويؤخر أخرى ، وقد ارتسمت على فمه تلك
 الابتسامة البغيضة التي لا تفارقه أبداً ، حتى إذا ما دنا منه
 مال على يده فقَبَّلها ، ثم وقف معقود الذراعين على صدره
 كما يقف العبد أمام مولاه . كان هذا الرجل رجب
 أفندي الذي مثل دور الخطابة بين عاكف وابنة الباشا .
 تُرَى فيم جاء ؟ وشعر الباشا نحوه بالوقت والاحتقار .
 ولكنه كان مضطراً إلى أن يداريه ، وإلا فضحه هنا
 وهناك . ثم إنه لم يَنْسَ أنه أسدى إليه جميلاً على كل
 حال ، وإن كان السم يكمن في أطوائه . ومن عادة العين
 أن تنكسر أمام من أولأها معروفاً .
 وتكَلَّف الباشا الابتسام وسأله :

— ماذا يا رجب ؟

ومهد رجبٌ لحديثه بيضع خِصَّاتٍ ذليلة متقطعة ،

اعتاد أن يطلقها دائماً قبل أن يطلب أمراً أو يشي
بأحد زملائه ، ظناً منه بأنها تجعل حديثه مقبولا . ثم
أسرَّ إليه بحاجته .

كان يطلب ترقية لا يستحقها . ولكن الباشا
المدین له بزواج ابنته أضطر إلى أن يطبق فيه ، وما كان
منه إلا أن أمر له بما شاء .

...

وخرج رجب مهللاً ، بعد أن عرف كيف يرجح
القضية من زملائه . ولكنه لم يكد يغادر الغرفة حتى
ازداد ضمير الباشا تعذيباً له . لقد تورط في جريمة جديدة ،
بجرمان الموظف الذي تخطاه ليرقى رجلاً .

وهكذا تلد الجريمة الجريمة ، حتى تتكون من حلقاتها
سلسلة يُشَنَّق فيها المجرم أخيراً يوم يثوب إليه ضميره .
فترى ما هي الحلقات القادمة ؟ وإلى أى مدى سيبلغ
طول هذه السلسلة اللعينة ؟ وراحت تتمثل له الضحية
الجديدة مزرعة بالدماء ، وقفزت إلى جانبها ضحيته القديمة
مصطفى ، والضحايا المستقبلة التي راح يصورها له خياله ،

ووقف هو بينها يمثل دور القاتل الذي أمسك بالخنجر
وطعنها جميعاً .

وهكذا انقلب الباشا آثماً في نظر نفسه ، وهو الذي
عاش طول عمره سليم الوجدان . وأدرك أن راحة
الضمير نعمة تعمّر قلوب الصالحين لا يراها إلا
الأشقياء . وراح يتساءل : أكل ذلك من أجل ابنتيه ؟
ألا ما أكثر ما يكلف الأبناء الآباء .

ولم يطق يومئذ صبرا على البقاء في مكتبه ، فغادره
إلى الخلوات ينفّس فيها عن آلامه على نحو ما تقدم .
وكان ما كان من رؤيته حسن أفندى يحدث مصطفى .
وكان ما كان من ارتياحه المبهم إلى هذه العلاقة بينهما .

...

ومرت الأيام طوالاً عليه . وكان من شأن الصدمات
التي لاقاها ، أن أحدثت هزة عنيفة بنفسه ، زادت من
رقة عواطفه ومبلغ رثائه للناس . فشعر بعطف شديد على
مصطفى ، وعزم على أن يعوضه خيراً عما فقد في أول
فرصة تسنح له . بل إنه شعر بالعطف على كل البؤساء ،

ومن بينهم تلك الجيوش الجرارة من الشباب الجائع أمثاله ،
الذين يُلقَى بهم كل يوم إلى هاوية التبطل ليموتوا هناك .
فعاهد نفسه لا على الأخذ بيد مصطفى وحده ، ولكن على
العمل من أجل الجميع . ووثبت إلى ذهنه إصلاحات
عدة ، راح يطلب من الله أن يعينه على تحقيقها ، ويتحين
الفرص التي تمكنه من ذلك .

وما إن أضمر هذه النية حتى أحسَّ دبيب الراحة
يسرى في نفسه ، كأن مجرد العزم على التكفير تكفيرٌ
صغير . فلم يمالك أن حنَى رأسه شكراً لمصطفى ، فإلى
مأساته يرجع الفضل في إزالة الغشاوة عن بصره ، وإيقاظ
قُوَى الخير الكامنة في نفسه وتسخيرها للعمل الصالح .
ولعل نبلة الأصيل هو الذي مكَّن لهذه الدروس من أن
تفيد . ففي كل يومٍ يمثل الكثيرون من أمثاله أدوار
الآثمين في مآسٍ من هذا النوع ، ومع ذلك لا تتحرك
ضمايرهم لرؤية الضحايا . ذلك أنه يُشترط لكي يتحرك
الضمير ، أن تكون فيه بقيةٌ من حياة .

الفصل الحادى عشر

لم يكن من شأن ما حدث بين مختار وعمه ، أن يعكروا صفو العلاقة بينهما . فبرغبته ترك مختار الدار ، وبرغبته راح يقيم وحده . حقيقة إن بقاءه بين القوم لم يكن مرغوباً فيه ، ولكن أحداً لم يصارحه بهذا فيخجله . بل لو أنهم فعلوا لَمَا كان عليهم من جناح ، ما دام الغرض من ذلك أن يحتاطوا للقلب ابنتهم العذراء .

لذلك ظل مختار يتردد على منزل الأسرة ، لا ليصل الود بينه وبين من رؤوه فحسب ، ولكن ليلبي أيضاً نوازع القلب نحو زينات . زينات المعبودة ، التى لو اقتضى الأمر أن يقف ببابها كشحاذ لفعل .

وكانت هذه الزيارات المتباعدة ، هى كل ما بقى للعاشقين من آمالهما العريضة التى استكثرها عليهما الزمن . ولكنهما مع ذلك كانت بقية عزيزة ، ظلاً يحتفظان بها كما يحتفظ الإنسان ببقايا زهرة قطفها في

عهد قديم محبوب . بل إن هذه البقية كانت أعز عليهما
من الأمل ذاته . ذلك أن للأمل حديثاً طويلاً . فهو
ككوكب يهر العيون سناء ، فلا نراه إلا حينما يكسف .
حتى إذا ما رأيناه عرفنا قيمته ، ورحنا نتعلق بخيوط
أشعته الصفراء ، كما يتعلق الكهلُ بقول شبابه الذاهب ،
أو سليبُ الروح بالنفَس الأخير .

ولذلك لم يكن عجيباً أن تبدو لهما اللحظات التي كانت
تجمعهما أثناء الزيارة ، أنفَسَ من جميع الأعوام التي
سلخاها معاً فيما مضى . وأن تفعل بقلبهما النظراتُ
العَفَّة التي كانا يتبادلانها من بُعد ، ما لا يفعله الغزل .
كما كان طبيعياً أن تكسب الحروق التي كواها بها
البعاد ، بطبقة من الرماد على أثر ما تأكل من أنسجتها ،
فكانت بُعداً أن مرت على الفراق شهور ، لا تحزُّ إلا
في الأعماق ، وأما السطح ، وأما وجههما ، فكان
يسُوده شيء من السلام ، سلام الجريح الذي التحمت
أنسجته على سهم تلقاه ، فحمّد الله على ما سكن من
أله ، ورضى بهذا مغنا . وهكذا استسلم العاشقان

للوضع الجديد ، وحصر فيه كل آمالها .
 وشيء واحد هو الذي ظل بين وقت وآخر يحرك
 براكين القلق الهامدة في نفس مختار ، ذلك هو توجسه
 خيفةً من محرز . على أنه كان كلما ثارت وساوسه ، لَمَحَ
 في عيني زينات من دلائل الوجد ما يؤكد إخلاصها له
 ويعيد إلى قلبه طمأنينته . وكان مما يزيد في هذه الطمأنينة
 حرص الفتاة على تحقيق رغباته من حيث تجنبها زيارة
 درية ، أو الظهور في الأماكن التي قد يراها منها غريمه .

...

وذات يوم دَقَّ جرسُ التليفون في عيادة مختار ، وإذا
 بالمتكلم شريفة هانم ، وإذا بها تدعوه لحضور الاحتفال
 بخِطبة جلفدان .

وذهل الشاب ، وكاد يكذب أذنيه . بل كاذ يظن
 أن زوجة عمه تمزح ، لولا أن المجال لم يكن مجال مزاح .
 ووضع المستمعة وجلس يفكر : إذن فلقد خُطبت
 جلفدان . وإذن فما تزال هناك معجزات . على أنه لم
 يتعب نفسه بالتفكير في كيفية حدوث المعجزة . لقد كان

هناك ما هو أهم من ذلك ، بل ما هو أهم من أى شىء فى
 الوجود . كان هناك أنه سيمتزوج زينات . ألم تزل العقبة
 من طريقهما ؟ فيما مضى كان هذا الطريق يقوم فى وسطه
 سياجٌ من الشوك ، فكانا كلما أرادا أن يلتقيا اعترضتهما
 الأشواك ، فيقنعان بأن يتصافحا من خلالها ، ثم يعودان
 وقد أدخى كفيهما الحسك . أما الآن فالطريق الذى
 يرى فى نهايته زينات ممهد ، كأنه ممشى مشقوقٌ فى
 حديقة ، والزهر مغروسٌ على جانبيه . وها هو ذا يرى
 نفسه وقد أخذ يتقدم فيه بسهولة كما لو كان يمشى
 على حرير ، ثم يتناول يدها ويذهب بها إلى وادٍ مقمر ،
 تفرشه الأحلام وتغرد فيه جنادبُ الأمل . وها هو ذا
 يرى العش القائم فى وسطه ، وقد حبس فيه عصفورته ،
 عصفورة « الكَنَارِيَا » التى ستملاً حجراته طربا .
 لن يسكن عيادته بعد الآن ، تلك العيادة التى تنص
 بروائح العقاقير الكريهة ، وتتجاوب فيها أصداءُ أنات
 المرضى . ولكنه سيقطن « قِيلاً » أنيقةً بالمعادى ، تلك
 الضاحية الخيالية ، المخططة على نمط الفردوس ، حيث

الحدائقُ تَنْسَبُ في كل مكان ، حتى على الأرصفة
 يغرسون الزهر ويسقونه . ما أجل أرصفتها هَيْدَى ،
 وقد اختلطت فوقها ألوانُ الزهور فبدت كقوسٍ قُزَح !
 وما أجل جوها في الأصْبَحَةِ وفي الأماسي ، حين يفوح
 العطر من كل ركن ثم يتجمع في كتلة واحدة ، تسير
 كأنها سحابةٌ غير منظورة وتَنْصَحُ كلَّ مَنْ تحتها !
 وما أجل هدوءها الذي لا يُسْمَعُ فيه إلا تغريد الطيور ،
 أو أنغام قيثارة تنبعث خافتةً في جوف الليل من نافذة
 قريبة ، ثم تتسلل في جناح الظلام لتغازل حسناء جالسةً
 في شُرْفَتها تحلم !

ولاحت له « الفيلا » الموعودة . وراها وقد
 عرَّشَتْ على شُرْفَتها الأشجار المتسلقة ، وراحت
 ترصع وجنَّهاها بالزهر ، الأحمر تارةً والأزرق أخرى ،
 ومنه المجوف على شكل كأس ، والمنضد على شكل عنقود .
 ورأى دَرَجَها الرخامى . ذلك الدرج الذي تصطفُ على
 جانبيه الأصْصُ المزروعة «لَتَانِيَا» ، وينتهى إلى شُرْفَةٍ
 يتدلى من سقفها فانوسٌ يبعث نُورَه شاحباً كبصيص

نجم . ورأى نفسه وهو يصعد هذا الدرج بعد عودته من عمله ، وينقر الباب نقراتٍ خافتة ، ما يلبث أن يسمع على أثرها وقع خطوات منغومة تحط في البهو وتقرب منه ، ثم إذا بأنامل رقيقة تحرك المزلاج ، كأنها منقار عصفور يداعب أسلاك قفصه ، وإذا بهذا الباب يفتح ، ويطل منه وجهٌ جميل يتبسّم له ، فما إن يدخل ويوصده ورائه ، حتى ينحنى على هذه الأنامل فيلثمها ، ثم يمضى بصاحبها إلى حجرة البَيان ، وقبل أن يسألها أن تعزف له أغنية ، يعانق القدّ المشوق الواقف بجانبه ، ويعصر في روجه بعض الجمال الكامن فيه ، ثم يهوى على ثغره ربّته — ذلك الثغر الصغير القرمزي الذي يشبه كرازين متلاصقتين — ويمتص جانباً من الرحيق الذي يندّيه .

...

ثم انتقل بفكره إلى منزل عمه ، وراح يسائل نفسه عن وقع البشرى على قلب زينبات ويقول :
— ترى ماذا فعلت الفرحةُ بها؟ لكانني بها

الآن كمصفورٍ استخفه الطرب ، فجعل يثب من غصن لغصن ، ويبعثر فرحته هنا وهناك ، ليخفف بعض حملها عن كاهله .

ولو أتيح له أن يراها كما ألفاها إلا كذلك . لقد كانت وكأن عصافير الجو طراً قد ركبت جسمها . كانت في الحديقة ، تقفز من ممشٍ إلى ممشٍ ، ومن مقعد إلى مقعد . وأحياناً تنفوس في حوض الزهور ، ثم تظهر بفتة خارجة من سواء . أو تخلع حذاءها وتسلق شجرة ما تلبث أن تغيب بين أغصانها . فكان يخيل للناظر إليها أنها تطارد فراشة تنقل من زهرة إلى زهرة ، وتأبى أن تقع في هذا الفخ الجميل . أو أنها هي هذه الفراشة ، وقد مضت تترنح من كأس عطرٍ شربتتها .

وكانت أحياناً تقف فجأة ، ثم ترنو إلى الأفق وتبتسم ، كأنما ترقب فيه صورة محبوبة تكشفت لها عنها . أو تحين منها التفاتة لإصبعها الجميلة ، التي سيلبسها فيها مختاراً خاتم الخطبة . وهنا سرعان ما يُشع هذا الخاتم بريقه في قلبها ، فينعكس على وجهها في شكل تألقات

خاطفة ، تلتصق على كل ذرة فيه ، وتزيده نوراً على نور .
ثم تسبل أجفانها الكحيلة على سعادتها وتحلم .
وما تلبث أن ترى في الحلم مثل الصور التي كانت
ينمقها خيال مختار له . فتسمع النقرات الخافتة بالباب ،
وتميزها بقلبها من ألف نقرة ونقرة ، فتلقى بالشوب
الحريز الذي كانت تطرزه ، ثم تسرع فتفتح للطارق ،
وتعشى وإياه إلى حجرة البيان ، وبعد أن تستسلم لحظة
لقبلاته العذبة ، تجرى أناملها على الأصابع العاج ،
فتسمعه نفثات حاملة ، رقيقة كالأفواف ، أو كالنسيم في
ليلة من ليالي الصيف .

غير أن خاطراً سَنَح له فهوَّش عليه هذه الأحلام .
وهو أن الطريق الذي فُتِح أمامه إلى زينات ، قد فُتِح
أيضاً أمام كل راغب فيها . وقفز إلى ذهنه محرز . حقيقة
أنه أخفق عندما طرق أبواب قلبها ، ولكنه قد ينجح
في الوصول إليها من باب أبيها . فلم يملك إلا أن هتف :
- ينبغي إذن أن أكون أول طارق لهذا الباب .
أجل ، يجب أن أعجّل . وليكن ذلك الليلة .

وفي جوار دورات ذهنه السريعة ، كانت الساعات
تمرُّ عليه ببطء . فكان يخيل له في كل دقيقة تمر ، أن
محرزاً ذهب يطرق باب رمزيّ باشا ، ويسأله المفتاح الذي
يفتح به قفص عصفورته .

...

وفي الموعد المضروب ، وصل مختارٌ إلى بيت عمه .
واستقبله الباشا وزوجته استقبالا حارا ، وبالسغا في الحفاوة
به . كان يبدو أنهما عادا يحبانه جبهما القديم .
وكانا سعيدين . سعيدين إلى حدٍّ يخيل لك معه ،
أن هذه السعادة قد أخذت تردُّ عليهما بعض شبابهما
الراحل ، حتى لتكاد تلمح هذا الشباب وهو يكافح
ليصبغ شعرهما الأبيض بعصارته السوداء ، ويملاً التجاعيد
المفتشرة في وجهيهما بالأنسجة الحية . ذلك أن الشباب
عندما عجز عن أن يعود إليهما بنفسه ، لم يقنط ، وراح
يرسم حولهما من رفيفه هالةً فتيّة ، تخدعك عن حقيقة
سنهما .

أما زيناتُ فلم تكد تشدُّ على يد حبيبها ، حتى نمَّ

خجلها عن سعادتها . وعندما حركت شفقتها تردُّ التحية ،
ارْتَجَّ طُوفانُ السعادة الذي كان يغمر روحها ، وبدأ أثر
أمواجه في عينيها اللتين لم تلبثا أن أغرورقتا بالدموع .

وهكذا كان كل شيء مبتهجاً في بيت رمزيّ باشا .
حتى الخدم ، كانوا طريين بعرس سيدهم . حتى أثاثُ
البيت ، أوْشكتُ أن تنبثق منه نفورٌ وتبسُّم . ما خلا
صاحبة العرس ، فقد بقيت وحدها على هذا الوجوم الذي
لازمها منذ صباها .

يا للعجب ! أيحزن الإنسان في ليلة عرسه ؟ حتى
إذا كان هذا الإنسان جلفدان ؟ ألا يخلق بها أن تفرح
أكثر مما تفرح أي عروس ؟ ألم تنل فوق ما كانت تحمل
به ، لأنها حملت بكل شيء إلا الزواج ؟

وراح مختارٌ يسائل نفسه عن السبب :

— ترى لمْ يعجبها الخاطب ؟ ولكن أي خاطب
يجب أن يعجب جلفدان . حتى لو كان هذا الخاطب
« أَحَدَبَ نُنْتَرِدَامَ » نفسه . إنَّ لجلفدان كما لكل
إنسان دميم ، عيناً تستطيع أن تبصر أقل درجات الجمال ،

لأنها تنظر إليه بتلك العين المحرومة التي ترضى منه بأقل شيء . إن مثل هذا الدميم ، كمثل الشحاذ الذي يمكنه أن يظفر من القمامة بغذاء لا يستطيع أن يظفر به المترف منها . بل إنه لا يحفل من الجمال إلا بهذا القدر الضئيل ، لأن عينيه لم تألفا التطلع إلى عِلٍ . وإنه لَيَقْنَعُ راضياً به ، لأنه يشعر بالفرصة أن العدالة تُجْرَى سَنَّتْهَا فيه . ذلك أن الله عندما قَسَمَ هَبَاتِهِ على الناس ، لم يجعل العدل في أن يَسُوَّى بينهم ، ولكن في أن يكون على قدر الموهبة النصيب .

وهكذا حار مختارٌ في أمر المخطوبة ، ولكن حيرته لم تَطُلْ ، لأنه لم يلبث أن حضر الخاطب . وراه مختارٌ فإذا به وسيم يعجب كل حسناء . بل إنه من الممكن أن يعجب زيناتَ نفسها ، لولا أنها وَهَبَتْ قلبها لصاحب النصيب . فهل تُرَى جلفدانَ أجمل من أختها ؟ تالله إن هذا لَبَطَرٌ . قال هذا وراح يلوم في سره البَطَرَةَ . ولكنه عاد فتساءل :

— ألا يمكن أن لا تكون جلفدانُ حزينه ، وأن

يكون الذي يُخَال بها غُمَّة ، ما هو إلا كآبتها الأزلية ،
قد انعقدت منها على سحنتها من طول ما لازمتها سنين ،
غمامةٌ كثيفة لم تستطع شمسُ الفرح على سطوعها
أن تبدها ؟ لم لا يكون ذلك ؟

وحسب أنه أدرك السبب فاستراح . ولكن الذي
أعياه إدراكه ، هو تلك النظرات الغريبة التي كانت لا تفتأ
توجهها إليه . تلك النظرات النفاذة ، التي كلما حاول
تجاهلها ، تعقبته واقتحمت صدره وراحت تلتقي في قلبه
الرب . لم تكن جبارة ، بل على العكس من ذلك يائسة ،
ذليلة ، مستجدية ، كان يخيل له وهي تتجه نحوه ، أنها
تجثو عند قدميه ثم تموت عليهما . ومع ذلك فقد كانت
مفرعة . كانت تُحدث عنده ذلك الفزع الذي يشعر به
الإنسان وهو يدوس حشرة فيقتلها . كان لها تلك
القوة السلبية التي يتمتع بها الضعفاء ، والتي تشبه فراغا
يفشق فيبتلعنا .

وعجب مختارٌ للفتاة . إنها أول مرة توجه إليه هذه
النظرات . ربما سبق أن وجهت إليه مثلها ، ولكنها لم

تسكن في كل مرة من المرات تحمل من قوة التعبير مثل
ما تحمله الآن . ولكنَّ عمَّ تعبّر ؟ هذا ما عجز عن
الإجابة عنه . ولولا استحالة الفكرة ، لظن أنها تحبه
وتتوسل إليه وتستنجد به .

غير أنه لم يشأ أن يستسلم لهذا التفكير ، وآثر أن
يقفل راجعاً إلى برج أحلامه . فعاد يسبل لها جفونه ،
ويهيئ لها الظلام الذي تظهر فيه ، كما لو كانت صوراً
سينمائية تفرّ من النور . ولكنه كان بين حين وحين ،
يرفع عينيه إلى زينات المائلة أمامه ، ليرى شخص
المثلة التي اتخذت من هذه الأجفان ستاراً تعكس عليه
صورها . فكانت اللحظات التي يفتح فيها عينيه ليراها ،
هي فترات اليقظة الوحيدة التي كانت تبدو أعزّ عليه من
أحلامه ، فيرضى بأن يقطعها ليرى ما هو أجل . ذلك
أن هذا الذي كان يراه ، لم يكن إلا تعبير هذه الأحلام .

وبعد انقضاء الحفل ، استطاع مختار أن يخلو
بزينات بضع دقائق . وعندما همَّ بأن يتكلم ، رفعت

إليه عينيها وتبسمت ، ثم أطرقت إلى الأرض وولت هاربة ،
وشعرها المرسل يهتز فوق كتفها . كانت تدرك ما
سيقوله لها ، وقرأته في وجهه على الفور ، فلم تستطع أن
تقاوم خجلها وأجفلت .

وما تمالك الفتى أن تبسم . لم يرها في يوم من
الأيام أفتن منها وقتذاك . وكيف لا وقد كانت تلك
الفتاة السعيدة ، الخجلة من سعادتها ؟ التي يسألها بعينيه
أعز مطلب ، فيمنعها حياؤها من أن تجيب ، ولكن هذا
الحياء نفسه ، ما يلبث أن يتولى عنها إجابته إليه . فهل
ثمة منظرٌ يأمر اللب كهذا ؟ منظر الأرواح وهي تخرج
من مخابئها المسجورة ، وتتجسم وتنطق ؟ تارة في شكل
وردي على الحدود ، وتارة في شكل بريقٍ بالعيون يتألق ؟
ألا حيًّا الله الأرواح ! بزّت بحسنها أجمل جسد !

لم يكن من قبلُ يؤمن بالسحر ، وإن كان من
أشد المؤمنين بالجمال . أما الآن ، فقد رأى السحر رأى
العين . رأى نفسه أمام ساحرة تنفث له العُقد ،
وتشكّله بعصاها كما تريد . ألم يتغير فيه كل شيء مذ

لمسته تلك العصا ؟ ألا يرتجف بدنه أمام تيارها
 السحري ؟ ألم ينقلب فؤاده طائراً أخذ يطير في صدره
 ويعربد ؟ ألم يكتس السكون في عينيه بضباب رقيق ،
 صار يرى الأشياء خلاله شاحبة ؟ ثم ما لهذه الأشياء
 تتراقص ويختلط بعضها ببعض ، حتى ما يكاد يميز الزهرة
 من النحلة ، ولا الممشى من الغدير ، في هذه الحديقة التي
 يطل عليها من موقفه ؟ لا شك إذن أنه سحر .
 ولا شك أنه طرب لهذا السحر ، لأنه لا يود أن يُلَوِّذَ
 بِرُقِيَّةٍ تَرُدُّهُ إِلَى أَصْلِهِ .

كان ذلك حال مختاره عندما تركته زينات . وكأنما
 قد أراد المزيد من السحر فذهب في أثر الساحرة . أو لعل
 مسحها نفسه ، هو الذي جذبته إلى حيث ذهب . فإن
 للسحر تياراً لا يفتأ المسحور مشدوداً إليه ، فما يملك إلا
 أن يتبع الساحر .

وهكذا تبعها مقتفياً — بهدى نور مبهم —
 آثار قدميها الوهمية ، فألفاها في إحدى الحجرات جالسة
 تعبت بأظفارها . وفوجئت حين رآته ، ودست وجهها

في وسادة فلما نَحَّاهَا راحت تستره باليدين . وأحسَّ
جسده برجة أخرى . وإذَن فلقد أَحَفَّتْهُ المَشْعُودَةُ
بلعبة جديدة ! تُرَى كم من الألعاب تُخَفِّي في جرابها ؟
ألا ما أحلى هذا الجراب ! ليتَه لا يَفْرغ أبَد !

بهذا راح يحدث نفسه . ثم استدار إلى الساحرة
يحدثها . وأخذ يتلعم ، ورقصت الدنيا في عينيه . كان
ما يزال نورُ كفيها المبسوطتين على وجهها ، يسطع في
قلبه ويهر بصره .

وأخيراً استطاع فه أن ينبس . فقال في صوتٍ
مرتعش :

— زينات ! كل شيء قد تَذَلَّلَ الآن فما أسعدنا !
الزهرُ الذي كان مُشَبَّكاً في الحَسَك ، قد انسلَّتْ
الأشواكُ منه ، وأصبح مهياً للقطاف . سأذهب إلى
أبيك الليلة وأطلبك منه . فإذا ما كان الغدُ وضعتُ في
إصبعك هذه الجميلة ، خاتمَ الخطبة وطبعتُ أول قبلة
عليها .

وأمسكَ بإصبعها وراح يمرُّ عليها بأناملتيه ، كما لو كان

يُلْبِسُهَا خَاتَمًا .

وارتجفتُ زيناتُ في يده ، وقامت لجسدها الجميل
قيامَةً . نعم ارتجفت ، لأن هذه الساحرة نفسها لم تكن
إلا مسحورة . وكان الواقف أمامها هو الذي سحرها .
وتبسّمت ، وتحركت شفتاها تتساءل :

— الليلة ؟

تُرى لم تتصنع الدهشة ؟ ألم تُرد هي ذلك ؟ ألم
تُوح إليه أنْ إذهب إلى أبي واخطبني ، الليلة ؟ إذَنْ
فلمّاذا تسأل عن أمره تعلمه ؟ ذلك سرٌّ تعرفه العذارى
وحدهن .

...

غير أن الأقدار أبت أن تطيل نشوة الحبيين .
وما لبثت أن عبثت بالمسحور والساحر . ذلك أنه بينما كان
مختارٌ يداعب إصبع زينات ، إذ سُمِع صوتُ شيء
يسقط على الأرض ، دوت على أثره صيحة تردّد صداها
في جوانب الدار .

وفر لون مختار . وصرخت زينات :

— أماء !

لأن الصيحة كانت صيحة أمها .

ثم انطلق كلاهما يعدو نحو مصدر الصوت ، وزيناتُ

تصرخ وتقول :

— أماء ! ماذا أصابك أماء !

على حين كان الباشا يصيح من الجانب الآخر قائلا :

— مختار ! أدركنا !

وعندما بلغا الردهة شهدا كل شيء ، وما أغرب

ما شهدا ! جلفدان ممددة على الأرض ترتعش ، والقوم

من حولها يُعْمَنُونَ بها . إذن فلم تكن شريفة هانم هي

التي سقطت ، ولكن كانت جلفدان . جلفدان العروس !

فماذا حدث ؟

وأسرع مختار يفحص الطريجة ، على حين ارتمت

عليها زيناتُ تقبّلها وتقول :

— أختاه ! أختاه ! ما بك ؟

وغنم الطيب وهو يحل أضرار قيصها :

— لا شيء يدعو إلى القلق . إنه إغماء بسيط ،

وما تلبث أن تفيق منه .

ثم انكسب عليها ينعشها . وكانت زيناتُ في هذا الوقت لا تفتأ تبكي وتقول :

— أختاه ! أختاه !

كان قلبها ينفطر على أختها

.....

وبعد هنيهة ، فتحت جلفدانُ عينيها وأجالت بصرها في الحضور . فلما وقع نظرها على مختار ، تهتت تنهدةً رجّت كيائها . أتُراها كانت تشكره على عنايته بها ؟ إذن فلم تكن مندوحة من أن يربّت يديها ملاطفاً ، ليكون ذلك بمثابة تقبّل لشكرها . ولكن عينيها لم تلبثا أن التقتا ، فتذكر شيئاً ارتعد منه . تذكر نظراتها إليه وهما في حفلة الخطبة . المعنى نفسه . والغربة نفسها .

ولكنه عاد فشغل عن ذلك بالعناية بها ، لأنها كانت ما تزال خائرة القوى من أثر ما عانت . وكانت هذه العناية خير إنقاذ له من مواجهة هذا اللغز الغامض ، الذي كان

يشعر كلما وقف أمامه ، بذلك الشعور الذى يحسه الإنسان عندما يقف أمام جنى لا يعرف من أين يأتيه منه الخطر ، لياخذ الحذر لنفسه .

أما زينات ، زيناتُ التى كانت تحبها أكثر من نفسها ، زيناتُ التى جزعت عليها أكثر من أمها وأبيها ، فقد كانت واقفة تنظر إلى أختها بعد أن أبلت وتبتسم ، وتحمد الله فى سرها على أن ردها إليها حية . وكانت كلما فاضت بها كأس الفرح ، راحت تفرغها على خدها بالقبلات ، وهى تقول :

— أختى ! أختى !

...

وأمضى القوم هزيعاً من الليل إلى جانب سرير جلفدان ، حتى إذا ما أطمأنوا عليها ، استأذن مختاراً وانصرف . وكان طبيعياً أن يرجي طلب يد زينات من عمه ، بعد ما طرأ على أختها وأحال الظرف غير مناسب . وهكذا تقدّر فتضحك الأقدار ، حتى إذا ما حان وقت التنفيذ كانت الكلمة ما قالت .

وقال لها وهي تشيعه إلى الباب :

— أرجو أن تسترد جلفدانُ نشاطها غداً وأفاتح
والدك . غداً يا زينات ، أرجو أن يتم كل شيء . إلى
اللقاء .

غير أن زينات كانت مشغولة عن أملها الحلو بالفرحة
التي غمرتها على أثر إبلال أختها . ومع ذلك فقد أومات
إليه إيماءة عذبة ، عاش في سحرها بقية الليل .

الفصل الثاني عشر

عندما فوَّتحت جلفدانُ في أمر خطبتها لما كف ، شدَّ
ما كانت دهشة القوم حين أَلَفَوْها ترفض .

كانت أمها أولَ من فاتحها في ذلك . حملت صورة
الخطاب الوسيم وهي مَزْهُوَّة ، ودخلت عليها تزف
البشرى . ولكنَّ جلفدانَ التي كان يبدو أنها كونت
رأيها من قبل ، أَلقت على الصورة نظرةً فآترة ، ثم دفعت
بها إلى أمها وهي تقول :

— ألم أقُلْ لك مراراً يا أماء ، إنني لا أريد أن
أتزوج ؟

وشعرت الأم بخيبة مُرة . وظنت أول الأمر أن
الخطاب لم يرقها . ولكنها بعد أن فحصت صورته بعين
المرأة — تلك العين التي لا تخطئ تمييز سحر الرجل —
لم تلبث أن أجابت على شكوكها قائلة :

— ولكنَّ أيمكن أن يكون هذا ؟ أيمكن أن توجد

من ترفض مثل هذا الفتى الجذاب ؟

وطال الجدل بينها وبين الفتاة ، فلما يئست من إقناعها بالعدول عن رأيها ، هرولت إلى زوجها تستنجد به .

ولم يكن الباشا بأقل شعوراً بالخيبة من زوجته ، عندما أحاط علماً بالنبأ . لقد كانت مفاجأة لم يتوقعها . وجعل يفكر . وخطر له مثل الخاطر الذي عن زوجته ، ولكنه لم يلبث أن استبعده مثلها ، بعد أن عاد فألقى نظرة على صورة الشاب .

إذن ماذا عساه يكون السبب ؟ بهذا راح يتساءل . ثم استطرد يقول محدثاً نفسه :

— أتري فطنت إلى أنه لم يخطبها إلا للمأرب ؟ أتري أنفت عندئذ من هذا الوضع الذي يجرح الكبرياء ؟ وأدركت أن مثل هذا الزواج الذي لا يقوم على حب ، لن يحقق أحلام قلبها ؟ بل لن يحقق أحلام الزوج نفسه ، فتكون النتيجة أن يسيء معاملتها ، وربما

اتخذ له من دونها خلية ، تشعل في صدرها نار الغيرة ؟
أترى قدرت كل هذا فزهدت في زواجٍ لن يكون
الفردوس الموعود ، وإنما الجحيم بعينه ؟ إن كان هذا فما
أدق الموقف !

وشعر باليأس يدب في أوصاله كما يدب الموت البطيء .
وأدرك عندئذ أنه عندما اشترى عاكفاً بالوظيفة ، لم يحل
عقدة ابنته كما توهم . وإذن فلقد كانت صفقة غـبن ، لم
يربح فيها زوجاً لهذه الابنة ، وإنما خسر راحة ضميره .
وراح يقدّر جريمته من جديد ، فانتكس إلى حالته
الأولى من العذاب . على أنه لم يلبث أن تعلق بأهداب
أملٍ لاحت له خيوطه . ومن داب المرء أنه حين يفرق
في يأسه ، يصطنع لنفسه الآمال لتكون له بمثابة حبال
نجاة . فراح يتساءل :

ولكن لم تسيء الظن بالفتى ، مع أن أحداً لم
يطلعها على قصده ؟ كلا . ما أحسب أن شيئاً من هذا
دار بخلدّها .

وأراد أن يستوثق من أن الذي راح يتعلق به هو

حبالٌ حقا وليست خيوط عنكبوت ، فهرع إلى ابنته
ودخل عليها .

...

وأجفل حين رآها . لقد كانت صفراء كالأموات .
كان اليأس الذي يَسْتَلُّ المصارة الحية ، قد استلَّ
المصارة من بدنها وخذفها ورقة ذابلة .

وراح يلاطفها ، ويُفيض عليها من حنان الأب
ماردًا إليها بعض ما وهبته لليأس . ثم سألها :

— أي جلفدان ! لم بالله رفضت الخاطب ؟

وأجابت :

— رفضته يا أبتاه لأنني أرفض فكرة الزواج من
أسامها .

— ترفضين فكرة الزواج من أسامها ؟ هذا

عجيب حقا ! لعلك الأولى من بنات جنسك التي ترى
هذا الرأي .

— لستُ كبنات جنسى .

وخيم صمت ، ذهب فيه فكر الرجل مذاهب شتى .

وأنشأ يقول لنفسه :

— لعمري ما تقصد من هذه الجملة ؟ أتراها وقد
رأت أن الأقدار حَرَمَتْهَا مزايا بنات جنسها ، راحت
تحرّم على نفسها ما أُحِلَّ لهن ؟ أنفهم دماستها إلى
هذا الحد ، وتعاقب نفسها عليها هذا العقاب المخيف ؟
وهل يكون ذلك عدلا ؟ أن تقتصّ من نفسها لجريمة لم
تقترفها ؟

ثم استدرك :

— ولكن هل العدل أن تنسى قبحها وتروح
تنشد ما لا تستحق ؟ تالله لقد حرت في أيهما العدل !
ما أشدّ عجزنا نحن البشر ، عن إدراك كنه الحقيقة !
ولكن كيفما كان الأمر فلا بد من مقاومة هذه الفكرة .
هذه الفكرة البشعة ، التي إن صح أنها تقوم بذهن الفتاة ،
فلن يكون أشقى منها على وجه الأرض ، ولا أشقى
منى بها .

فسألها :

— ماذا تقصدين من قولك إنك لست كبنات جنسك ؟

وانتظر الجواب وهو واجف . كان أخوف ما يخافه
 أن يصدق حَدْسُهُ ، وأن يكون قلب الفتاة قد تسرب
 إليه ذلك الشعور الذي يُشَقِّقِي صاحِبَه أكثر من أى
 شيء فى الوجود ، شعورُ الإنسان بنقص طبيعى فيه ليس
 فى مقدوره استكمالُه . ذلك الشعور الذى يؤدى بالمرء إلى
 أن يلعن نفسه ، ويعاقبها بأن يضرب عليها ذلك النطاق
 الخفيف من الحرمان . ذلك الشعور الذى يفر بفريسته
 من وجه الدنيا ، كما تفر الحشرات إلى الكهوف ، حيث
 يعيش منطوياً على نفسه فى وحدة أليمة ، لا مُنْقَذَ له
 منها إلا الموت .

ومن اللهجة الوجيهة التى أَلْقَى بها الرجل السؤال ،
 ومن علامات الألم التى ارتسمت على وجهه وهو يلقيه ،
 أدركت الفتاة ما جال بذهنه ، فأشفقت عليه أن يفدو
 فريسة للعذاب من أجلها ، وعولت على أن يجيبه جواباً
 ينزع من فكره ما قام به ، فقالت :

— أقصد يا ابتاه أننى لا أحسُّ دبيب تلك الرغبة
 التى تدفع الإنسان إلى الزواج . لا أدرى ، لعل نزوى

إلى ناحية الروح ، قد صرفني عن النواحي الأخرى . إن كل سرورى أن أبقى هنا بينكم ، أستمتع بجنوكم على ، وأنفرغ لقراءتى وعبادتى . إننى أقدر حياة الفكر والروح يا أبتاه ، ولا أجد فى الحياة لذة تعدلها . فأساعة أقضيها فى مطالعة كتاب « لشوق » أو « ناجور » تفضل عندى حياة زوجية بأسرها .

وأطرق برأسها خجلا ، لأنها شعرت أنها تكذب . ولكن أكانت تطلعه على الحقيقة ؟ إنها أحقيقة رهيبة ، عندما أدرك الآن بعضها أجفل ، فما باله لو أدرك بقيتها ؟ ما باله لو أدرك أن تلك التى تشعر بنقصها لم تزهد فى الحياة كما تصور ، ولكنها ما تزال تشتهيها ، وتشتهيها فى شخص إنسان بعينه ، إلا أنها تقطع الأمل منه ؟ وإذن فما هى بالزاهدة التى أراحها زهداها ، ولكنها المحرومة التى تتوق ولا تتمكن . إنها لم تنس الحياة بعد ، ولكن الحياة هى التى تصر على نسيانها . وإنها لتحاول بكل الطرق ، بالدموع ، وبالتنهيدات ، أن تلفت نظر هذه الحياة إليها ، ولكن بلا جدوى ، لأن الحياة لا تلتفت إلى من يمكن .

آه ، لو علم أبوها بهذا ! إذن كمات كمداً من فوره .
ومن ثم فلا حرجَ عليها إن حرصت على أن لا يعلم ،
وراحت بقاء على ذلك تكذب .

أما الأب المسكين ، فما كاد يسمع منها هذا الجواب
حتى تنفس الصعداء ، وأنشأ يحدث نفسه :

- إذن هي ليست فريسة دماستها كما ظننت .
وإذن فرفضها يرجع إلى نُضْجِ ذهني وروحاني شاذ في
طبيعتها ، طفي على غرائزها الآخر . تباركت يا الله !
إنك لا تحرم إنساناً في ناحية ، إلا أغدقت عليه في
أخرى . لا أحد أقل من غيره في هذه الحياة .

واستطرد في حديثه :

- ولكن كيفما كانت فكرة جلفدان عن الزواج ،
فيجب أن تعدل عنها . يجب أن تتزوج تأهباً ليوم قد
تستيقظ فيه غرائزها على غرة ، بعد أن يكون أوان
زواجها قد فات . ويجب أن تتزوج ، لأنه ما ينبغي أن
ترفض صفقة دفعتُ ثمنها . وإلا فعلام كانت محاباتي
لما كف ، وارتكابى جريمة في سبيله ؟ وأخيراً يجب أن

تزوج من أجل زينات ، إذ ما زلت وما زالت زينات ،
 نأبى أن نقيم عرساً في بيت به عانس .
 وهنا قال لها :

— تمشّقتِ يا جلفدانُ حياة الفكر ، فهلاً
 تمشّقتِ حياة الزواج ؟ هلا ذكرتِ حنان الأمومة ،
 ذلك الحنان الذي ينفج منه شيء مقدس ، والذي لا يقوى
 على اجتذابه منا إلا الأطفال ؟ مَنْ لهذا الكنز الثمين
 المدفون في أعماقنا ، غيرهم يستطيع أن يستخرجه ويمتعنا
 به ؟ مَنْ له مثل منظرهم الملائكي ، يحيطوننا به بتلك الحالة
 من الطهر التي تزيدنا قدسية في نظر أعيننا ؟ ثم . . .

ولكنه أحجم . كان قد أراد أن يردّد في سمعها
 نغمة حلوة تشبهها آذانُ العذاري ، ولكنه ذكر أنها
 لن تغفر من زوجها بالحب الذي شاء أن ينوه لها به ،
 فتراجع لئلا يؤلم إحساسها .

أما الفتاة فقد قابلت بفتورٍ إغراء أبيها وراحت
 تقول له :

— ولكنني يا أبتاه لا أشعر بماطفة الأمومة حتى

أحفل بالأطفال .

— ستشعرين بها عندما يئين الأوان . إن الغرائز
الحامدة تتحرك يوماً ما . وإذا تحركتْ تعذرت علينا
مقاومتها . لأن مقاومتها ما هي إلا مقاومة لأنفسنا .
إننا عندئذ نغدو مع أنفسنا في حرب ، ومثل هذا الصراع
لا بد أن نتحطم فيه ، لأن خسائر الفريقين لن تكون
إلا منا . ولأن اندحار أيهما هو اندحارنا في شخص
المهزوم .

— لو كان في نية غرائزي أن تتحرك لَمَا أَبطأتُ
وقد جاوزتُ الثلاثين . كلا يا أبتاه ، أعفني بربك .
لا أريد أن أتزوج .

ولمَّ يجيد الرجل مندوحة من أن يُلقى بآخر ورقة
في يده فقال :

— ولكن زيناتُ يا جلفدان ! ألا تتزوجين من
أجل زينات ؟ ألا تعلمين أنها لن تتزوج حتى تتزوجي ،
لأن زواجها دونك أمرٌ لا نرضاه ؟
وكأنما جرحتها هذه الجملة فهتفت في استياء :

— ولماذا يا أبى ؟ إني أؤكد لك أنني أُسرُّ لو
أن زينات تزوجت الليلة . آه يا حبيبتي يا زينات ! هل
تظن أنني أنفسُ عليها شيئاً يا أبى ؟

— معاذ الله يا ابنتي ! ولكنه الحب الأبوى ،
سيجعلني أحقد على الزواج ما دمت عانسا . فهل تريدن
أن تلحق أختك بك ؟ أو يظل زواجهما قدسً في أعيننا
إلى الأبد ؟ فكّري جيداً يا جلفدان .

وَأثَرَتْ هَذِهِ النِّعْمَةُ فِي الْفَتَاةِ . لَقَدْ بَدَأَتْ التَّضَحُّيَةَ
تُمَثِّلُ أَمَامَهَا ، بِكُلِّ مَا فِيهَا مِنْ جَلَالٍ يُخَضِّعُ أَشَدَّ النُّفُوسِ
عَنَادًا . وَشَعَرَ أَبُوهَا بِذَلِكَ فَأَخَذَ يَضْرِبُ عَلَى الْوَتَرِ نَفْسَهُ
وَلَكِنْ بِنَفْعَاتٍ جَدِيدَةٍ . قَالَ :

— وَإِذَا كَرَى أَنَّنَا لَنْ نَعِيشَ لَكَ إِلَى الْأَبَدِ . فَإِذَا لَمْ
تُوفَّقْ إِلَى الْقَلْبِ الَّذِي يَحْنُو عَلَيْكَ بَعْدَنَا ، فَسَتَلْفِينِ
نَفْسَكَ يَوْمئِذٍ فِي وَحْدَةٍ . وَإِذَا أَلَمَّتْ بِكَ مَلَمَّةٌ فَلَنْ
تَجِدِي مِنْ يَوَاسِيكِ فِي مَحْنَتِكَ ، لِأَنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَكَ
سَيَكُونُونَ نِيَامًا فِي الْقُبُورِ . وَعِنْدئِذٍ سَتَتَدَمَّيْنِ حَيْثُ
لَا يَنْفَعُ النَّدَمُ . وَسَتَحْسُ عَذَابَكَ كَحَلْمٍ يَطُوفُ بِنَا وَنَحْنُ

رقود ، فنُحَرِّمَ السَّلامَ حتَّى في موتنا . فاتقِ اللهَ فينا
وفي نفسك يا ابنتي . واعلمي أنه لن تهْدأَ عظامي في
جَدَّتْهَا ، ما لم أشعر ويدي عن الوصول إليك قصيرة ،
أن هناك من يتولاك من بعدى .

واغرورقت عينا الرجل بالدموع . وشعرت الفتاة
بأنه يتعذب ، فتوسلت إليه بلهجة هي إلى البكاء أقرب ،
وراحت تقول ويدها معقودتان على صدرها :

— بربك لا تَقُلْ هذا يا أبى ! لا تَقُلْهُ أبدا .
إني لا أستطيع ، لا أستطيع أن أتصور أنى سأفقدك .
ولَئِنْ فَقَدْتُكَ فلن آسى على شيء ، ولا يهمنى إنْ
شقيتُ أو تعذبت . بل إني لأرفض أن أداوى اليتم
بعدك ، أو أرتضى للحدب على قلباً سواك . ولكن
مادمت يا أبتاه تريدنى على أن أتزوج ، وما دامت في هذا
سعادتك ، فإنى ...

ولم تكمل جملتها . وترددت : أتقولها ؟ إنها إن
قالتها فلن تستطيع أن تستردها بعد . ولكن لم
لا تقولها ؟ لم لا تتزوج من أجلهم ؟ إنها لن تخسر شيئاً

بهذا الزواج . فالأمل الذى تنتظره ، ومن أجله اعتزمت
 أن تتبتل ، وُلِدَ ميتا . بل إنها فى الحقيقة لا تنتظر
 أملا ، وكل ما هنالك أنها تود أن تظل فى حِدَادٍ على
 هذا الأمل الذى مات . لقد ودَّتْ بعده أن تذهب فى
 أثره ، وذهبت فعلاً بقلبها . ولكن هاهم أولاء
 يقسرونها الآن على العودة إلى الحياة بدونه . فليكن أن
 تعود من أجلهم . ولن يضرها شئ ما دام قلبها سيبقى
 هناك ، مع الأمل الذى دفنته وأهالت عليه التراب .
 وقال أبوها الذى ظل ينتظر تنمة الجملة :

— فإنك ماذا يا جلفدان ؟

— فإنى . . .

واحتبس صوتها ، ثم انبعث يقول :

— أقبل الخاطب .

ولم تكذب تم جملتها حتى انفجرت تبكى . كانت قد
 شعرت بأنها غيّبت سهماً فى حياتها . وانحنى عليها أبوها
 يكفكف دمعها الهتان ، وهو لا يفتأ يسألها عن سبب
 بكائها فلا تجيب .

وأقبلت أمها على صوت نحيبها . وحسبت أن أباهما
أغلظ لها في القول فنظرت إليه عاتبة . ولم تملك إلا أن
احتضنت ابنتها وراحت تغمرها بالقبلات .

وسألها أبوها بعد أن جف دمعها :

— فيم كان بكأوك يا جلفدان ؟ أو قَبِلْتِ مكرهة ؟

ولم تشأ الفتاة أن تمزج بالسم كأس الهناء التي ناولته

من فورها إياها بتقبلها الخاطب ، فأجابت :

— كلا يا أبتاه . إن هي إلا دموعٌ حبيسة شاءت

أن تنطلق .

وابتسمت ، أو هي تكلفت الابتسام لتسرّي عن

والديها .

وعزا الرجل سبب بكائها إلى أنه لس من قلبها موضع

الحنان عندما ذكر لها قصة الموت . على حين ظنت الأم

أنها ما بكت إلا فرحاً بزواجها ، وأرجعت سابق رفضها

إلى أنه ضربٌ من الاحتجاج على الأمل الذي أبطأ عليها

أكثر مما يجب . فطبعت قبلة على جبينها وهي تقول لها :

— مبارك يا ابنتي .

وراح أبوها يهنئها أيضا . ثم نادى أن تعالى
زينات هنيئ أختك .

وهكذا قبِلت جلفدان يدَ عاكف . ولكن آلامها
منذ ذلك اليوم تضاعفت ، وأخذت صحتها على أثرها تعتل .
لقد عاد يشقُّ عليها أن تُكره على خلع السواد ، وهجر
القبر الذي دَفنت فيه أملها الحبيب ، ثم تزيّن لتُزفَّ
في حفلة عرس . حقيقة أن قلبها ما يزال هناك ، في
وادي الدم ، ثلويًا بجوار أملها المائت ، وأنها لم تُعدَّ
إلى الحياة إلا بالشيء الوحيد الذي بقي حيا في وجودها
وهو جسمها ، ولكن حتى هذا كان يؤلمها . كانت
ترى فيه خرقًا للحداد الذي أخذت نفسها به ، ووهبته
كل شيء حتى جسمها .

وشعرت بأنها عقت حزنها القديم . وأحست بالغربة
في الجو الذي هجرته إليه . بل إنها شعرت بأنها تتنكر
لنفسها ، لأنها نفسها لم تكن غير هذا الحزن ، الذي شبَّ
وإياها منذ وُلدت ، حتى اختلط أحدهما بالآخر وكونا

مزيجاً واحداً ، تعرفه بلونه الأسود .

...

وظل الألم يحز في نفسها المكلومة ويأكل في
جسدها المضنى حتى أوهنه . فلما كان يوم الاحتفال
بخطبتها وأيقنت أن السهم نفذ ، وكانت قد لحقت بين
الحضور الكوكب الذى انبثق منه شعاع أملها القديم
فهاج حنينها إليه ، فقدت رشدها وسقطت مغشياً عليها
كما سلف . ذلك أنها بصرت بهذا الكوكب ، في
الوقت الذى كانت فيه تتخلى عنه لتستضيء بسواه .

...

أما زينات التى كانت تجهل دخيلة نفس أخيها ، فقد
كانت فرحتها مزدوجة . فرحت لهذه الأخت ، ولنفسها
بعد أن زالت العقبة بينها وبين مختار . فعادت تفتح
أبواب قلبها للأمل يُطلق أطياره فيه . كما راحت بعد
أن تمّ الصلح بين حاضرها وماضيها ، تُخلى سبيل
الذكريات التى كانت قد حبستها في كهوفه ، وترقبها
وهي تطير مع طير الأمل جناحاً لجناح . فرأت من

أسراها الكثير . رأت مختاراً الحدث وزينات الطفلة .
ورأت جديدها وعقود الياسمين . كما رأت البحر في ذات
يوم محبوب ، وفوقه سوسن ترفها الأمواج إلى الشاطئ .
رأت . . . وما أكثر وأحلى ما رأت ! وكان من بين
ما رآته منظر العاشقين اللذين طالما مرَّ أبها في نزهاتهما .
وعجبت : لماذا انقطع مرورهما منذ أيام . وأحست
بالحنين إليهما .

ولو علمت بالسبب لأسفت لهما . ولاستنكرت جناية
أبيها عليهما . ذلك أن مصطفى بعد أن أخفق في نيل
الوظيفة التي حرمه إياها الباشا ، راح يبحث عن غيرها
في مصالح أخرى . ولكن العدالة السائدة على هذه
الأرض ، ظلت تتعقبه وتوصد دونه باب كل عمل يطرقه ،
لتفتحه في وجه غيره من أبناء أولئك المترفين ومصاهريهم .
وكان المسكين قد رهن إبان الدراسة منزله لأحد
المصارف ، لقاء قرض يستعين به على نفقاته . فلما حل
أجل الدين وعجز عن سده ، باع القضاء منزله ، وكاد يصبح
وأمه العليمة بلا مأوى ، لولا أن أضافهما عنده صهره أحمد

أفندی ربنا يتدبر ان أمرها .

وكأنما عز على الفتى أن يلجأ وهو الرجل إلى عون
مخطوبته ، فذات يوم حزم متاعه وزعم لها أنه حصل على
عمل في الريف ، ثم سحب أمه وبارح البيت على أن يبعث
إليها بعنوانه حالما يستقر به المقام في مقره الجديد .
ولكنَّ الأيام تعاقبت دون أن يصل إليها من أنبائه شيء
حتى حسبت أنه مات أو هجرها . ومنذ ذلك اليوم
غرقت في الظلمة أحلام فتاة ذهبية ، وانتهى عهد
كان يخرج فيه حبيبان إلى حيث ينمان بالمنى بين
الخلوات .

الفصل الثالث عشر

مرت الأيام ، وصحة جلفدان تزداد سوءا . هزل جسمها ، وفقدت نشاطها وشهيتها للطعام . وكانت كثيراً ما تعترىها نوباتٌ عصبية عنيفة ، تتشنج فيها أطرافها وتقلص سحنها ، وتظل تن أنيناً موجعا . حتى إذا ما انتهت النوبة ، خارت قواها وراحت في نوم عميق ، تقوم منه مضطربة كمن كان تحت تأثير حلم مزعج ، ثم تأخذ تنظر للدنيا نظراتٍ من فتَحَ عينيهِ فألقى نفسه في عالم غريب لا يذكر شيئاً عنه . فكأنها ميّتتُ بُعث بعد رقادٍ استغرق دهوراً ، وبدأ ينفض عن نفسه تراب القبر .

وكانت كلما عرّتها النوبة ، التف القوم حول سريرها وهم أعجز ما يكونون عن إسداء أية مساعدة لها ، فلا يملكون إلا أن يرقبوا في وجلٍ نتيجة هذا الصراع الهائل بين الموت والحياة ، لأن جلفدان كانت في كل

مرة تتشنج فيها تبدو كمن تُحْتَضَر .

ولم يترك أبوها طبيياً إلا استشاره في شأنها ، فأجمعوا رأيهم على أنها تعاني مرضاً عصبياً نتج عن رغبات كبتتها فزاغت في جسمها وتعقدت في خلاياه ، وبين وقت وآخر تنشط للانطلاق عن طريق التعبير عن نفسها بتلك الحركات الملتوية ، بعد أن أعوزها التعبير السوي .

ولقد كان طبيعياً أن تصبح جلفدانُ فريسةً للأمراض العصبية ، وهي التي لم يُتَح لها تحقيق رغبة واحدة من رغباتها ، فكانت النتيجة أن عاشت تحمّل في جسدها رغبات العمر كله ، وهو عبء تنوء بحمله الجبارة .

أما شريفةُ هانم فقد ظنت أن الأرواح الشريرة قد سكنت جسم ابنتها فذهبت تستشير السحرة . وكان رأيهم ما توقعّت . والواقع أنه لا فرق بين الرغبات المكبوتة والشياطين ، لأن كليهما قوى هائلة تربض في الجسد كعدو خفيف ، وما تفتأ تلتمع منه لعجزه عن تنفيذ مشيئتها حتى تنهكه . ومن ثم فإن الأطباء والسحرة متفقون وإن اختلفوا في التسمية . بل إن السحرة زادوا

أن ابتكروا طريقة مُشَلَى لطرده هذه العفاريت أو
الرغبات ، وذلك بإثارتها في حلقات « الزار » بالنقر على
الدف وإطلاق البخور ، حيث لا تلبث أن تخف لتُسَلَبِي
نداء النعم ، وتنتظم في رَكَب الدُّخَان المعطَّر .

واضطرت شريفة هانم إزاء عجز الأطباء أن
تؤمن بالسحر . فاعتم أن اكتظ البيت بالساحرات
الملثَّمت بالخُمُر البَيض كأنهن راهبات . وبين
يوم ويومٍ تُوقَد الشموع وتقرع الدفوف ، ثم تقف
ساحرةٌ تحرق البخور فوق رأس جلفدان لتستحضر
الجنَّ المختبئة في جسدها ، وجلفدانُ يستخفُّها الطرب
فتَحْضُرُها عفاريت الأرض طرًا ، وتنطلق في الحجرة
تقفز كقرد هائج ، حتى إذا ما رحلت عنها الجِنَّة
استرخت أعضاؤها وأخلدت إلى الهدوء .

وتوات أمثال هذه الحفلات ، وغصَّ البيتُ برائحة
الشياطين وعَجَّ بأشباحهم ، حتى لسكنا ما هو جُبُّ
أعبدٌ تحت الأرض لسكناهم . ولكنَّ كل هذه
المحاولات كانت تذهب سدى ، لأن ما كان يتصاعد من

جلفدان مع النشاط الذي كان يفتعله في جسدها السحرة ،
 لم يكن إلا ما توالد من دخان الرغبات المكبوتة فيه ،
 وأما الرغبات ذاتها فظلت باقية ، في انتظار الطريقة
 الوحيدة لتصرفها ، وهي أن تتحقق تحقيقاً تتلاشى في
 تفاعلها معه . وهكذا لا الطب أجدى ولا السحر مع
 جلفدان .

.....
 وقيلق القوم من أجل الفتاة . وكادت زيناتُ بنوع
 خاص تتلف جزعاً عليها . لم يكن حبها لها بالجديد ،
 ولكنها لم تكن تدري أنه يصل إلى هذا الحد . أما الآن
 وقد أخذ القلق يساورها من أجلها ، أما الآن وقد أخذت
 تخشى أن تفارقها إلى الأبد ، فقد أدركت ذلك .
 وإنها لتذكر يوم غُشيَ عليها أول مرة في الحفل ،
 وكيف تملكها الهلع من أجلها فنسيت يومئذ كل
 شيء ، حتى نشوة اللقاء الذي كان بينها وبين مختار ، حتى
 نشوة الوعد الذي وعدا به ، ولم تعد تفكر إلا فيها .
 وكيف أنها حين أفاقت وأيقنت أنها رُدَّت إليها ،

شعرت بأنها غدت أسعد منها في أية لحظة مرت عليها
في الحياة ، بما في ذلك اللحظة التي كان فيها مختاراً يسكب
في أذنيها أغايد الحب . ذلك أن الذي غمرها لم يكن إلا
تلك السعادة البريئة الهادئة ، التي هي أقرب إلى راحة
الضمير منها إلى التلذذ بالحياة . ولكن الذين ذا قوا هذه
الراحة ، يؤمنون بأنها تفوق كل سعادة في الوجود .

فما هو يا ترى سر هذا الحب العجيب ، الذي يُنسى
الإنسان حتى كلفه بحبيبه ؟ أهو الأخوة وحدها ؟ أم هو
شيء فوق ذلك ، هو العطف على إنسان عزيز يتعذب ؟ على
عذراء محرومة الأمل الحلو الذي يداعب قلوب العذارى ؟
وفوق ذلك يهددها الموت بين لحظة ولحظة ؟

والآن وقد عاد مرض جلفدان سيرته الأولى ، بل
ازداد خطراً عما كان ، إنها لتذكر أحياناً حبها المختار ،
وأملها فيه الذي أرجى تحقيقه إلى أجل لا يعلمه إلا الله ،
ولكنها لا تحفل بكل ذلك ، وشيء واحد هو الذي أصبح
يشغل بالها ، ذلك هو صحة جلفدان .

و ذات يوم وكانت قد دخلتُ عليها وهي نائمة ،
 سمعتها تهذي بكلمات رابتها وكادت تصعق لها . ثم لم
 تلبث أن أيدت شكوكها براهين أخرى ، فوقفت على
 الحقيقة وكانت رهيفة مُرّة ، حطمت كل أمل لها في
 الحياة . ومنذ ذلك اليوم وهي فريسة للتفكير في مسألة
 لا تدرى لها حلا . فكانت كلما قعدت بها الحيرة عن
 البت فيها برأى ، لم تجد وسيلة للترفيه عن نفسها
 إلا البكاء .

...

وكان الدكتور مختارٌ يتردد باستمرار على المريضة ،
 ليرقب تطورات الداء ، ويباشر تنفيذ العلاج الذي استقر
 عليه رأى الأطباء الذين عاودوها .

وفي إحدى المرات التي كان فيها عندها ، اعترتها
 نوبةٌ كانت أطول النوبات وأقساها ، كادت تُسلم فيها
 أنفاسها .

وأثناء النوبة ، انتحرت زيناتُ بمختارٍ جانباً وسألته
 رأيه . لا شك أن جلفدان في نوبة كهذه يُخشى عليها

هبوطُ القلب . وهذا ما حدا بزينات إلى أن تتلهف على كلمة منه تبدد مخاوفها . على أنه كان ألبق من أن يصارحها برأيه فراوغ في الإجابة ، ولكنها قرأت كل شيء في عينيه اللتين لم تستطيعا كتمان قلقه .

— وجزعت زيناتُ وقالت له :

— بربك إلا تسكمت يا مختار ؟ خبرني بالحقيقة . ولكن مختاراً تركها وخفَّ إلى المريضة يُعْنَى بها . وازداد قلق زينات من تملصه منها ، وإصراره على عدم التصريح لها بشيء . وفي غمرة هذا القلق ، وتحت تأثير الخوف على أختها من الموت الذي خيّل لها أنها تراه وقد دخل الحجرة وأخذ يرفرف فوقها ، وبعد أن تذكرت الكلمات التي فاهت بها منذ أيام وهي نائمة ، نذرت في نفسها أمراً اعتزمت أن تنفذه ، لو أن أختها نجت هذه المرة وردها الله إليها .

وشاء لطف الله أن تنتهي النبوة بسلام ، وتعود جلفدان إلى الحياة . فلما اطمأنت زينات عليها ، كان أول ما فكرت فيه أن تفي بالنذر . فاختلت بمختار وراحت

تقول له في أسى :

— نَبِّئْنِي بِالْحَقِيقَةِ يَا مُخْتَار . إن جلفدانَ أصبحت
في خطر ، أليس كذلك ؟ إنْ هِيَ إِلَّا دَوْرَاتٌ يَدُورُهَا
حَوْلَهَا مَلَكُ الْمَوْتِ ، كَمَا يَدُورُ الْبَازِي حَوْلَ فَرِيَسْتِهِ ، وَفِي
دَوْرَةٍ مِنْ هَذِهِ سَيُخْطِفُهَا وَيَمْضِي . قُلْ ذَلِكَ يَا مُخْتَار .
لَا تَكْتُمِ عَلَيَّ أُنْبَاءَ أُخْتِي . أَتَكُونُ مَرْمَعَةً الْقِيَامِ بَآخِرِ
رَحَلَاتِهَا وَلَا أَعْلَمُ ؟ دَعْنِي أَعْلَمُ ، فَأُجْمَعَ فِي عَيْنِي كُلِّ
مَا أَشْعُرُ بِهِ نَحْوَهَا مِنْ حُبٍّ ، وَأَلْقَاهَا بِهِ قَبْلَ أَنْ تُفْصِمَ .
دَعْنِي أَعْلَمُ ، فَأَسْكُبُ فِي صَوْتِي كُلِّ مَا أَهْمِلُ لَهَا مِنْ حَنَانٍ ،
وَأُحَدِّثُهَا بِهِ قَبْلَ أَنْ تُصَمَّ . دَعْنِي أَعْلَمُ ، فَأَنْسِجَ مِنْ
قَلْبِي أَثْوَابَ الْحَدَادِ ، وَأُعِيدَّهَا لِلْيَوْمِ الَّذِي سَتَرْحَلُ فِيهِ .
وَأُحْشِدُ لَوْدَاعِ مَوَكِبِهَا دُمُوعِي ، وَأُبْقِيهَا فِي مَآقٍ تَنْتَظِرُ .
مَا يَنْبَغِي أَنْ يَجْهَلَ مَا سَيَحِلُّ بِرَفَاقِنَا ، الَّذِينَ سَيَفَارِقُونَ
عَمَّا قَلِيلٍ . يَجِبُ أَنْ نَعْلَمَ ، لِنُؤَدِيَ لَهُمْ فِي سَاعَاتِهِمُ الْآخِرَةِ ،
مَا لَا يَمْهَلُونَنَا لِأَدَائِهِ .

وَلَمْ يَنْبَسِ مُخْتَارٌ بَيْنَتْ شَفَةِ . كَانَ حَاطِرًا مَاذَا يَقُولُ ،
فَإِنْ مِنْ أَشَقِّ الْأُمُورِ نَعْنَى إِنْسَانٍ لَمْ يَمِتْ بَعْدَ . عِنْدَمَا

يموت المرء وينتهي ، لا يأتي ناعيه بجديد ، أما أن يوضع في
قائمة الأموات وهو لم يزل حيا ، فمن أشق المواقف التي
يواجهها الطبيب .

ولما طال سكوته قالت زينات :

— إذن فلقد نبأني صمتك يا مختارُ بكل شيء . إن
أختي تجتاز الآن أواخر أيامها . وتلك التي كانت حية تروح
ونجيء ، عما قليل ستغدو ذكرى شيء عفا ، ولن تعود
تجيني إلا في الأحلام أ كذوبة . والهني عليك يا جلفدان !
سأظل أذكر على الدوام ، أيام الحرمان التي قضيتها
في هذه الدنيا ، وفمك الذي انطبق على ظمئه إلى
الأبد ، وأتحسر .

واعترتها نوبة عنيفة من البكاء ، فأخذت تنسج
وعضلات جسمها ترتجف ، ومختارُ أمامها يسرِّي عنها وقد
اغرورقت عيناه بالدموع .

ولما هدأت ثورتها نظرت إليه في توسل وهي تقول :
— ولكن اعلم يا مختارُ أن جلفدان وإن كانت
تموت فما يزال هناك خيطٌ للنجاة ، وأن هذا الخيط

في يدك .

وهتف مختار :

— في يدي ؟

— نعم في يدك . إن شئت جذبتَها منه إلى الحياة ،
وإن شئت تخلّيت عنه وتركته تهوى .

— ولكنني لم أدعُ محاولة في علم الطب إلا جربتُها
معه .

— جربتَ طب الأجسام يا مختار ، فهلّا جربتَ
طب القلوب ؟

— ماذا تعنين ؟

— نعم ، إن جلفدانَ ليست مريضة ، ولكن
المريضَ قلبها . لقد كشفتُ بنفسى ذلك . دخلت عليها
مرّة وهي نائمة ، فسمعتُها تهذى باسم من تحب . وفاجأتها
أخرى وببيدها صورة حبيبها ، تناجيها بأرقّ الكلمات
وأشدها يأساً . إن جلفدانَ يا مختارُ محبة يائسة .

— جلفدانُ محبة ؟

— نعم يا مختار .

— ولكن مالي ولذلك؟ وماذا عسى في وسعي أن
أعمله من أجلها؟

— في وسعك أن تعمل الكثير ، إن كنت على
استعداد للعمل .

— وكيف لا أكون؟ مري فإني طوع أمرك .
تالله لو استطعت أن آتيها بمن تحب ، لما توانيت ولو
بذلت عمري في ذلك ثمناً .
— أنـبعدني؟

— دون تردد . أليست جلفدان أختي؟
— ولكن الأمر يكلفك عمرك كما قلت .
— عمري فداؤها وفداؤك يا زينات . قولي :
تحب من؟

— تحبك .

وصعق مختاراً وصرخ :

— تحبني؟

— نعم تحبك . وباسمك كانت تهتف ، وإياك كانت

تفاجي وتتعذب .

— إياي أنا؟

— نعم أنت . إنه سرٌّ رهيب بقي مكتوماً في قلب المسكينة ، ولكنني وقفت عليه ، وقفت بمحض الصدفة . ومنذ اليوم الذي كشفته فيه ، أيقنت أنني إما أن أضحي بحبي أو بأختي . ومع أن الصراع كان هائلاً بين الاثنين ، لأن كليهما على عزيز ، فإني لم أتردد في الإبقاء على جلفدان ، وساعدني على ذلك رؤيتي إياها الآن موت . فكرتُ فوجدت أن تضحيتي بالحب لا تعني تضحيتي بالحبيب ، ولكن تضحيتي بأختي هي تضحيةٌ بإنسان . إذ حسبي منك يا مختارُ وإن انقضى ما بيننا ، أنفاسُ تتردد وتشعروني بأن كل شيء لم يذهب . ولكن ماذا يبقى لي من جلفدان إن هي ماتت وذهبت ريحها ؟ وسكنت ريثما تلتقط أنفاسها ثم عادت تقول :

— اذهب إذن يا مختار وضع قلبك بين يدي أختي ، ثم قابل أباها واخطبها إليه . اذهب وعجل ، فقد يفوت الأوان . اذهب ، ألسنت طيباً كرسست نفسك لمعالج مرضاك ؟ كيف إذن يكون في يدك الدواء

وتضمن به ؟ اذهب لا من أجل مريضتك فقط ، ولا من
 أجل أبويها اللذين ربياك صغيراً فقط ، ولكن من أجل
 أنا أيضاً . من أجل زينات حبيبتيك . ألسنت تحبني
 يا مختار ؟ أليست غاية الحب إسعاد الحبيب ؟
 — بلي يا زينات .

— إذن فاعلم أن سعادتي في زواجك من جلفدان ،
 إن صح اعتبار أهون الشقاءين سعادة . لا تَقُلْ إني
 أنانيّة ، أفكر في نفسي وأنساك ، فإن إسعادك وأسفا
 خرج من يدي إلى الأبد . ذلك أن جلفدان إن ماتت
 ميت . وإن قُدِّر لي أن أعيش بعدها ، فلن يفتتح قلبي
 للحياة حتى يفتتح لحبك . لسوف يجلّله السواد فما يعود
 يتسرب إليه نورٌ على الإطلاق .

وهنا ركعت أمامه واستمرت تقول :

— أُنقِذْها تنقِذْني يا مختار . أُنقِذْها تضمن بقائي
 حياةً على الأقل ، وتشعر بأن لي أنفاساً في الدنيا .
 أُنقِذْها تضمن بقائي حياة ، وتستطيع أن تراني كلما
 هَافاً بك إلى شوق . بل تستطيع أن تحبني أيضاً

يا مختار ، حباً مجرداً عن الهوى كما تحب قديسة .
وتعبدني ولكن كعبادة الوثني للصنم ، عبادة خالية
من كل مأرب . أجل ، تستطيع أن تحب روحك
روحي .

وتنهدت ، ورفعت وجهها إلى السماء كأنها تشهد الله
على ما تقول ، واستطردت :

— وثيق يا مختار بأن هذا الجسد الذي سيغدو
حراماً عليك ، سيغدو حراماً على كل إنسان ، إلى أن
يضمه التراب الذي نَفَضَهُ . نعم ، وحق السماء لن
أهبطه أحداً ، وحق السماء !

وخرت تبكي . ثم عادت تقول وهي تمسح دمعها .
— ففكر جيداً يا مختار . إننا إن تركنا جلفدان
تموت ، فسنخسر كل حبنا ، لأننا سنزهد عندئذ في
سعادة نقيمها على أنقاض إنسان مات . أجل ، إن مثل
هذه السعادة ستظل قدّى في عينينا وشجى في حلقنا
إلى الأبد . وسنخسر فوق ذلك راحة ضميرنا ، لأن طيف
جلفدان المائتة ، لن يلبث أن يتعقبنا ويُفْسِد علينا

نعمة السلام . بل يقيني أننا سننطبق عليه أجفاننا عندما
نموت ، فيظل يزعج رفاتنا في قبره . على حين أننا إن
أنقذناها ، ففضلا عن أننا سنربح لذة التضحية من أجل
إنسان ، لن نخسر حبنا كله .

وراحت تتفرس في وجهه لترى وقع كلماتها عليه ،
فراعاها أن وجدته شديد الامتقاع ، ووجدت صاحبه وهو
يكاد يهوى من فرعه . فصرخت في جنون :

— آه ، لقد طعنتك يا حبيبي ، طعنتك ! وإلا
فأين هربت دماؤك ؟ ولماذا خارت قواك ؟ طعنتك ،
ولكنني من دمك بريئة . سَلِ القدرَ مَنْ ذا الذي
ناولني السكين ؟ وَمَنْ ذا الذي حرك ذراعي بها ؟ سَلِ
فلديه الجواب . مالك لا تصدق ؟ انظُرْهُ أمامك
وخلفك وفي كل مكان ، تجده ممسكاً بالخنجر الذي
ناولَنيهِ ، وعليه آيةٌ من دمك . إنه خنجره . ولقد
قتلني به أيضاً من قبل أن يقتلك . وإذا كانت دماؤى
لا تقطر منه ، فلأنها جفت عليه لقدم العهد . إني
سبقتك يا مختارُ إلى الموت بأيام . مِتْ منذ اللحظة

التي سمعتُ فيها جلفدان تهتف باسمك .
وأصابها الإعياء فطوحت برأسها إلى الوراء وجعلت
تَبِينُ . وانحنى عليها مختارٌ يهدئُ روعها . فلما تملكَّت
قواها نظرت إليه كمن تسأله رأيه . وإذ لم تحفَ عنها
حيرته قالت له مشفقة :

— مختار ! لستُ أطلب منك أن ترتجل القرار في
مسألة تترتب عليها حياةٌ أو موت . فاخلُ إلى نفسك
وفكر ما شئتَ ثم ائتني غداً بالجواب . والآن ، عِمْ
مساء .

...

ووقفت تشيميه وهو يذهب ، وقد انبثقت من عينيها
لؤلؤتان ، تألفتا في الظلام لحظة ، ثم انحدرتا على خديها
ككوكبين تهاويا .

الفصل الرابع عشر

في ذلك المساء ، أوى مختارٌ إلى مخدعه وبقلبه جرح عميق ، لا يدرى كم من الدماء قطرت منه ، إلا الطريقُ الذي قطعه من منزل عمه إلى منزله ، والفِراشُ الذي ظل ليلته يتلوى عليه من الألم .

وبعد أن خفّت حدّة ألمه جعل يفكر : لقد قطع على نفسه عهداً أن ينقذ جلفدان ، ولكنه ما كان يتصور أن يكلفه إنقاذها كل هذا . لو أن الأمر كلفه عمره كما وعد ، لكان الخطب ، ولكنه كان يكلفه أكثر من ذلك ، كان يكلفه أن يعيش بلا أمل ، والعيش بلا أمل موتٌ متواصل . وبعْدُ فالجود بالعمر تضيحةٌ تنتهي في لحظة وينتهي معها ألما ، أمّا أن يذوق الإنسان الموت على مهل ، أما أن يموت في كل مرة تتمرد فيها روحه ، فهو أمر فوق الاحتمال .

وراح يتصور الأعوام التي سيعيشها وهو ميت .

في هذه الأعوام التمسعة ، لن يحيا فقط بلوعة غرامه الضائع
بل سيمتجرع أيضاً مرارة البقاء مع جلفدان في عشٍّ
زوجيةٍ واحدٍ منكود ، وهذا هو الشقاء بعينه . ألا
ما أحب الموت إن كان لا بد من حياة كهذه !

وعزت عليه نفسه . وعول على أن يرفض التضحية
بها على هذا النحو . وزاده استمساكاً بهذه الفكرة ،
خوفه من أن يقنص غيره عصفورته ، إن هو تخلّى
عنها ولم الشَّبَّاك . خصوصاً وثمة صياد واقف لها
بالمرصاد ، هو جارها محرز . وإنه ليموت ولا يمكن منها
هذا الصائد بعينه ، لما بينهما من تنافسٍ جعله يكرهه كما
لم يكره أحداً من العالمين .

حقيقة أن زينات وعدته بأنها لن تهب نفسها لسواه ،
ولكن من يدري مدى ثبات هذا الوعد أمام كُرِّ
الزمن ؟ إن الوعود كثيراً ما تبرد حماسها مع الأيام ، ثم
تتحلل من نفسها . وفوق ذلك فأن تبقى فتاةً عمرها
عذراء ، أمرٌ يجب لتصديقه شيء من الحذر .

ثم . . .

وبدت عليه علامات الاستنكار .

كيف يجروُ على طعن حبه ؟ إنه لآهون عليه أن يطعن نفسه ، بل يطعن زينات من أن يطعن هذا الحب . لقد كان ينظر إليه كعنصر خلوده الذي سيحييا من بعده ، ويخلده . كان يستبعد أن تسكن هذه النبضات التي تحتاج بفؤاده بعد الموت ، ويخيل له أنها ستظل تدب في عظامه النخرة يوم يصبح من الهامدين . ألا إنها الوحيدة التي ستبقى منه عندما لا يبقى منه شيء ، فكيف ، أجل كيف مع هذا يُسكتها ؟

فثبت على ما انتهى إليه من رأى . ولكنه عاد فتصور زينات ملثمة بالسواد حزناً على جلفدان ، وقد مات في قلبها كل حب له ، وأصبحت تنظر إليه كقاتل أختها وتمتته . بل إنه تصور لها تموت من هذا الحزن ، فيعيش بعدها في عالم كله غربة وفناء . تصور هذا ثم ذكر الجملة التي قالتها له وهي : « تستطيع أن تحب روحك روحى » ، وراح يتدبر معناها . إنه إذن لن يفقد كل شيء ، إذ سيبقى بينهما ذلك الحب الروحاني . وأخذ

يتخيل جبهما الأرضي الملهب ، وقد جعل يشفٌ ويتحول
إلى نور سماوي هادئ ، فوجد أنه لا يخلو من جمال . ثم
زاد أن قال :

— ومن يدري ، فربما يبدو في نظري أجمل ، عندما
أشفُ أنا الآخر معه ، وتصبح لي عيننا مملكت ،
تستطيعان أن ترياً من الجمال ما هو رباني ؟ بل إنني لن
أعود عندئذ أحفل بجمال الأرض ، بعد أن آلف التطلع
إلى السماء . وعلى ذلك فسيأتي يومٌ انسى فيه أن لزينات
وجهاً فاتناً وقواماً لدننا ، ولن أعود أحب إلا روحها ،
تلك الأشعة التي كلها نقاء ، والتي لا يبلى حسنهما أبداً .
ولكن ...

وصعد زفرة واستطرد :

— هل يمكن أن يصير الإنسان مملكا ؟ أجل ،
هذه هي المسألة . وأغلب الظن أنه لن يكون . فإن لكل
كوكب ساكنيه ، وما كانت الأرض لتضم ملائكة .
ثم تحسّس الدفء الذي يسرى في عروقه وهتف :
— أجل ، كيف يتسنى لي أن أخلص من هذه النار

إلا إذا تخلصتُ من نفسي ؟
 وغامت الدنيا في عينيه . وبقي طول الليل وهذا الخليط
 المتضارب من الأفكار يحتمل ذهنه كأنه أضغاث أحلام ،
 لا يعرف ماذا يأخذ منها وماذا يدع .

...

أما زيناتُ فكانت بين جها وأختها ، تحترق كما
 دأبتُ على أن تحترق منذ كشفتُ سر هذه الأخت . حتى
 إذا ما طلع الصباح بدت وكأنما تتعذر رؤيتها إلا في تلك
 الأدخنة التي تصاعدت منها في جو الغرفة .

...

وفي اليوم التالي ، التقى هيكلان في الظلام تحت ضوء
 النجوم . وكانت أصوات الجنادب المُنْبَثَّة في الحديقة ،
 ترتفع متغنيةً في سكون الليل بأناشيد المجهول . ونقيقُ
 الضفادع ينبعث غافياً من الجدول الذي وقفا إليه ، كأنه
 يتحدث عن عصورٍ سلفت . فكان من ينظر إليهما
 وقد احتواهما هذا المكان الذي يحمل طابع الماضي
 ويهـجس بوحيه ، يخيل له أنهما طيفان لإنسانين ماتا ،

وقد أخذوا يلوحان من خلال التاريخ .

وهمس أحد الطيفين :

— علام عولت يا مختار ؟

وأجاب الآخر :

— هل فكرت في الأمر ؟

— إنى أسألك .

فاعتدل في موقفه قبل أن يجيب ثم قال :

— اسمعى يا زينات . عند ما أضحيّ بنفسى فى

سبيلك ، ماذا يشفع لى عند هذه النفس ؟ أليس الحب ؟

— استمّر .

— حسنًا . بعد أن أظعن هذا الحب فيموت ، ماذا

يشفع لى حينئذ عند نفسى ؟

وصمت قليلاً ثم استطرد :

— فها أنت ذى ترين أن الوضع الذى تقترحينه

يوقعنا فى دائرة مفرغة . إذ أن الحب الذى هو علة

التضحية ، لن يستمر ليظل يسوّغها بعده . ومن ثم

فسأظل أستشهد كل يوم دون أن أدري فى سبيل

من أموت .

— مهلا . ولكن حبنا لن ينقضى ، إذ سيبقى
بيننا ذلك الحب الروحاني .

— أيُّ حب روحاني ؟ لقد حاولتُ أن أتصوره فما
استطعتُ أن أرسم له إلا صورة مبهمّة كمثل تلك التي نرسمها
للجنة والنار .

— وما قولك في أنني استطعت أن أتبيّن خطوطه
كأوضح ما تكون ؟

— وهل يمكن هذا ؟ هل يمكن العين أن تتصور
شيئاً لم تسبق لها رؤيته ؟

— كلا ، ما بعيني ولكن بروحي رأيته .

— بروحك ؟

أَجَل . عندما شفّ جسمي على نار الألم كما يشفّ
البخور ، ألفتيتني أتحول إلى دُخان يتسامى . فطفقتُ
أصعد في السماء وأرتفع ، حتى رأيتُ والسهدُ ضيفي ذات
ليلة ، مواكبَ ذلك الحب الذي أتحدث عنه . إنه ليس
قَبَلًا ولا عَنَاقًا يا مختار ، ولكنه مزيجٌ من أنوار إلهية

لا عهدَ لنا بها . فيها هدوء تلك الخضرة التي تصبغ الجنة ،
وليس فيها من لَهَب الجحيم . وإمّا دارت في فلَكها
تَنشِيد . ولأنغامها سَكْرَةٌ كسَكْرَةِ الرحيق .
وهتف وقد ذهل :

— هذا عَجَب ! وماذا كان شعورك ؟
— لا أقدر أن أصف . غير أني أحسستُ كما لو
كنتُ في عالمٍ من أثر ، أسبح فيه بغير جناح . إنه شيء
خَفَّ بي عندئذ ، كأنما نَفَخَ في جسمي هواء .
وابتسمتُ ، كأنما تستعيد أمام عينيها مارات . ثم
استطردت :

— وجعلتُ أتساءلُ : « ما هذا الشيء ؟ » . وكأني
بهاتفٌ يَحييني ويقول : « إنه الألم . إنه الجحيم الذي
احترقتِ على مَطْهره ، فحوَّلَكَ إلى دُخان » . أواه !
يا لها من حقيقة !
— أية حقيقة ؟

— سرُّ الخلود . ليس يوصلُ إلى الخلد إلا
الجحيم . إنه مرحلةٌ يجب أن نمر بها ونكفّر ، قبل

أَنْ نَصْبِحَ قَدْ يَسِين .

وَسَهَمَ مَخْتَار . وَأَلْفَى زِينَاتَ تَضَعُهُ فِي عَالَمٍ غَرِيبٍ
لَا يَفْقَهُ شَيْئًا عَنْ كُنْهِهِ وَلَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُؤْمِنَ بِهِ . فَزَمَّ
شَفْتِيهِ وَقَالَ لَهَا :

— إِنِّي أَخْشَى أَنْ يَكُونَ الَّذِي رَأَيْتَ تَهَاوِيلَ الْأَلَمِ .
فَإِنْ لِلْأَلَامِ سَكَرَاتُ تَفْغَمُ الرُّءُوسَ بِالْأَكَاذِيبِ . إِذْ كَيْفَ
يَبْصُرُ عَالَمَ الْأَرْوَاحِ بَشَرٌ ؟

— مَا أَنَا وَقَدْ طَهَّرَنِي الْأَلَمُ بِيَشَرَ .

فَكَابَرَ ، فَانْتَبَتْ إِلَيْهِ قَائِلَةً فِي يَأْسٍ :

— آه ! لَكُنِّي بِكَ تَرْفُضُ يَا مَخْتَار . مَخْتَار ! أَلَا
فَكَّرَ مَلِيًّا .

— بَلْ فَكَّرِي أَنْتِ . .

— رَحْمَاكَ يَا مَخْتَار !

— أَخَافُ أَنْ تَنْدِمِي .

— وَعَلَامَ لَعَمْرُكَ ؟ أَعَلَى إِنْقَاذِي أَخْتِي ؟
وَبَكْتَ .

وَلَمْ يَرْحَمْ دَمْعُهَا .

وعادت تجادله فلم يفهم لغتها . لم يكن قد شفّه
 الألم بعدُ كما شفّها ، حتى يستطيع أن يرى في أثر
 صوفيّته ما ترى . لم يكن قد تحرر من لغة الجسد ،
 حتى يفهم لغة الأرواح . لقد كان حديث عهد بالنكبة ،
 فلم تسحق الآلام جسده حتى النهاية ، لتستخلص
 أنواره . أما هي فكانت قد سبقته إلى ذلك بزمن .
 وأخيراً قال لها :

— الأناة يا زينات ! ولا تتخذى قرارك إلا بعد أن
 تسكن العاصفة ، وتكفّ عن إثارة الغبار الذي ترين في
 تلافيفه هذه التهاويل .

ولم تجبه . وراحت تقول وكأنها تناجي نفسها :
 — أواه ، أرى شبح فاجعة ! فغداً تموت جلفدان ،
 وأنا من بعدها . ولا تعود تراك عيناى يا مختار .
 أجل ، لسوف تغيب من وجودى مع نور عيني .
 فوا أسفى عليك وعلى عهد كنت تطلع علىّ فيه !
 واستطردت :

— ساعحك الله ! ما كنت أتوقع أن يكون انهيارى

على يدك .

فهتف يؤنبها :

— زينات !

— صه ! لَكُنْ لِي بِحُبِّكَ لِي كَانَ أَكْذُوبَةٌ .

وأشاحت بوجهها عنه .

ووقعت عليه كلمتها وقع الصاعقة . وحاول أن يدنو منها ويسترضيها ، ولكنها دفعته عنها في عنفٍ وهي تقول :

— دعني . مالك وتلك التي تريد أن تُغرقك .

اذهبْ وأنشدِ السلامة مع غيري .

وتركته ومضت ، وهي تحمل له في نفسها أمرًا عتاب .

الفصل الخامس عشر

أمام نفيرٍ من الجالوس على أحد المشارب ، وقف شابٌ
يرتدى الأسمال يعرض بيع أوراق النصيب .

ولم يَشْرِ منه أحدٌ أو يسرَّحه بإحسان ، لأن
القوم الذين وقف بهم ، كانوا في شغلٍ عنه بتصويب
النظرات الوقحة إلى حسناء من النِّوَر كانت ترقص
وتصفق بصُّنج .

كانت سمراء البشرة سوداء العينين . لها خدان في
حمرة خشب الورد ، وشعرٌ فاحمٌ أشعث ، يستقر على
كَتِفَيْن مُدْمَجَتَيْن .

وكانت تغنى وتقول :

مَنْ رَأَى لَوْنِي المحروق ، ولم يسْكُر بنبيذه ؟
أو رَأَى شَعْرِي الحالك ، ولم تَضِلَّ نَهَاه ؟
أنا فتاة الغاب .

بَلِيلُ أَجْفَانِي كَمْ أَغْفَتْ قُلُوبُ !
وَلِظِلِّ أَهْدَابِي كَمْ لَجأتْ مُهَج !
أَنَا ! أَنَا فَتَاةُ الْغَابِ .

...

ثُمَّ تَتَبَّ وَتَأْخُذُ تَرْقِصَ وَتَدُقُّ بِسَاقِيهَا ، وَصَوْتُ
صَنَاجَاتِهَا يُصَلِّصِلُ .
ثُمَّ تَعُودُ تَغْنِي :
بَيْنَ الدَّغَالِ نَشَأْتُ .
وَمَعَ الْوَحُوشِ شَبَبْتُ .
أَنَا فَتَاةُ الْغَابِ .

...

إِنْ رُمْتُ حَسَنِي خَمَشَكَ .
أَوْ رُمْتُ صَيْدِي صِدَّتَكَ .
أَنَا ! أَنَا فَتَاةُ الْغَابِ .

...

ثُمَّ تَتَبَّ رَاقِصَةً . ثُمَّ تَبْخُتُمْ أَغْنِيَتَهَا قَائِلَةً :
هَمْجِي رَقْصِي .

كوئب الوحوش .

أنا فتاة الغاب .

....

برى صوتى .

كسجع الطيور .

أنا ! أنا فتاة الغاب .

....

وعندما انتهت الرقصة ، تناولت دُفًّا من صاحبها
وأخذت تطوف على رواد المشرب تجتمع فيه قروش
الإحسان . حتى إذا ما بلغت النفر الذى كان يقف إليه
بائع النصيب ، انبرى لها منهم شابٌ صفيق الوجه كان
يبدو أنه زعيمهم ، وهتف بها :

— لن أنفحك بشيء حتى تعطينى قبلة .

فأدارت عابثة خدها نحوه . فأرسلها إليه فى الهواء
قبلة ذات رنينٍ يندى له الجبين . ثم قهقهه قهقهةً
خنزيرية تردد صداها فى أرجاء الشارع ، وقهقهه على
أثره صخبه .

وابتسمت البوهيمية كمن تتلقى القبلة . فأخرج من
جيبه قرشاً منحنها إياه وهو يقول :

— إن جدت بأخرى جدتُ بآخر .

وعادت تدير نحوه خدما . ومرة أخرى رنَّ صوتُ
قبلة في الهواء ، واستقرَّ قرشٌ في كف الراقصة .

ووسط عواصف الضحك ، والنظراتِ الفاجرة التي
كانت تسدُّ إلى الفتاة ، لوَّح لها بثالث وهو يقول :
— وهذا ثمن القادمة . امنحيني امنحك ، ولو

ظللنا هكذا إلى الصباح .

وظل يأخذ القبل منها في الهواء ويغدق الثمن عليها
بسخاء ، حتى ربحت من هذه المداعبة السمجة عشرة
قروش .

ثم مضت لسبيلها تشيِّعها النظرات الجائعة ،
وعبارات الغزل الوضيع ، بعد أن همس في أذنها بضلع
كلمات لم تلبث أن أمّنت عليها .

وما إن احتفت حتى التفت إليه أحد زملائه وقال له
وهو يغمز بطرف عينه :

— ماذا كنت تُسرُّ إليها يا شقي؟ إنني أفهم
الأعيبك .

فأجابه من فوره :

— صه بحق الشيطان . أتظن أن في وسمى أن
أنقطع للتسييح لتلك البومة التي خطبها لي رجب ؟
قَبَّحهما الله !

ثم رفع إلى فمه قدح الخمر الذي كان أمامه وهو يقول :
— اشربوا يارفاق . نخب البوهيمية الحسنة .
أرجو أن لا أحتاج غداً إلى عصافير أحملها إليها قبلاتي .
أجل ، لن يكون بين في وخذها إلا ما بين شفتي وهذه
الكأس .

ورفع الجميع أقداحهم ، وشربوا نخب هذه الخسنة .
وكان بائع النصيب يرقب كل ذلك ولا يفتأ يكتم
اشمئزازه ، ويلعن في سره أولئك البَطِرين المستهترين ،
الذين لا همَّ لهم إلا الإغراق في الضحك والانهماك في
الملذات . فلما سمع من بطل هذه الخمازي حديثه عن
مخطوبته ، هتف في قلبه :

— يا لك من نذل ! ولماذا خطبتَها ؟

وبعد أن قلب شفتيه في احتقار ، تقدم منه يمرض عليه من جديد شراء ورقة . ولكنه تجاهله وراح ينظر إلى قرّاد كان قد أقبل يجرّ وراءه قرداً وعنزة . وجأة انفجر الوجه ضاحكا حتى استلقى على قفاه ، ثم انثنى ينادى القراد فلما دنا منه قال له :

— هيه أيها الأستاذ المبجل . هلاً جعلت السيد والسيدة يرقصان لنا « فالسا » ؟

وأوما القراد برأسه . ثم جعل ينقر على الدفّ نقرات خاصة ، لم تلبث العنزة على أثرها أن وقفت على رجليها الخلفيتين ، وللحال وثب فوقها القرد ، وبعد أن أتى بوضع حركات ماجنة ، رفع يده للحضور بالسلام . وضجّ الجميع بالضحك . وأخرج الذي هو أسفهم قرشاً وأعطاه للقرد الذي كان قد تقدم نحوه فاتحاً كفه . وبدا لبائع النصيب أن يعاود الكرة ، وكأنما ظن أن دوره قد جاء لينال نصيبه من هذا البذخ ، فدنا من السيد وراح يردد قوله :

— النصير يا بك ألا تشتري ورقة ؟

ولكن السيد الذى ما كان لينفق إلا على ملاذه ،

لم يلبث أن صاح فيه :

— تباً لكم أيها الشحاذون ! أما تكفون عن

مضايقتنا بأشكالكم القذرة وأنينكم البغيض ؟ إليك عنى .

ثم التفت إلى رفاقه وراح يقول :

— لست أدري لماذا لا تجمعهم السلطة كما تجمع

الكلاب ، وتسممهم أو تقتلهم رمياً بالرصاص ؟

وهنا استدرك أحدهم :

— أصبت يا صديقى . ولكن أليس الأبدع أن

تكون إبادتهم « بالفليت » أسوة بالحشرات ؟

وكان صبر الشحاذ قد نفذ ، فرفع عقيرته وأخذ يقول

لهم فى احتياج :

— يا للبغى ! أتبرمون بفقرنا وقد احتملنا

ثراءكم ؟ أما كفاكم أن كتبتم علينا هذا النصير بيدكم

الآئمة ، حتى رحم تعاقبوننا عليه ؟ أعيدوا إلينا حقوقنا

ونحن لا نستجديها منكم . أنصفونا نرُقْ فى أعينكم .

إنكم أنتم الذين خلقتكم لأنفسكم هذا القذى في شخصنا .
 إنكم أنتم الذين جعلتم الإنسانية تغرق في هذا العار .
 إنكم أغبياء مجرمون .

وهال زعيم الجماعة — وكان أسرعهم استجابةً
 لدواعي الشر — أن يجترأ عليهم هذا الصعلوك الوقح ،
 فما كان منه إلا أن رفع يده وهمّ بلطمه .
 ولكن الشحاذ لم يلبث أن صاح فيه بصوت كالرعد
 قائلا :

— مكانك يا عاكف ، وإلا حطمت رأسك !
 وتراجع الباغي أمام هذه الصيحة المخيفة . على حين
 استطرد الشحاذ :

— أمّا تعرفني ؟ إنني مصطفى . زميلك في الدراسة
 وأول فرقتك . ولو كانت هناك عدالةً للبهتت أسماي
 وجلستُ أنا مكانك . ولكن الذي لا شك فيه أنني
 ما كنت أسلك مسلكك ، فأبعثر نقودي على البغايا وأنهر
 السّألة والمحرومين . وإنما كنت أعطيك من فضلي إذا
 سألتني ، أو أقول لك قولاً كريماً . بارك الله في

الأصهار ! الذين جعلوا منك ومن أمثالك وجهاء يجلسون
على المشارب ، ويستحلّون لأنفسهم لطم الناس . بُؤُ
بالخزى ! فلقد برهنتَ على أنك أفقر إلى الخلق ، منى
أنا الشحاذ إلى المال . ولكن متى اتُّخذ الخلق قاعدة
لملء الطبقات ، حتى كنت تعرف مكانك بالضبط ؟
وتركه يتمثر في خجله وانصرف ، وهو يلعن في سره
رمزى باشا ، الذى كان السبب فى كل ما حل به .

.....

وإنه لَمَاضٍ فى تجواله ، وسَيِّلُ اللعنات ينصبُّ
من فمه على ذلك الباشا الظالم ، إذ بُصر به جالساً فى أحد
المقاهى بين رهط من رفاقه من ذوى الأوداج المتنفخة ،
والكروش المدلاة ، والسَّيِّحِىن التى طمَسَها فرطُ
الشيح .

وأثار منظره كوامنَ الحقد فى نفس مصطفى ، وود
لو انقضَّ عليه وأطبق على عنقه بكلى يديه فلم يتركه إلا
جثة هامدة . ولكنه ما عثم أن نكص على عَقْبِيهِ
وسار فى اتجاه آخر ، لئيسكت نزعات الشر التى كانت

توسوس له .

وظل يتنقل من شارع إلى شارع ومن حي إلى حي ،
إلى أن نَهَكَهُ التعب فألقى بنفسه على حافة الطريق
وجلس يستريح . وإنْ هو إلا قليل حتى كان قد أحاط به
لفيف من أبناء حرفته ، وَمَنْ على شاكلتهم من جامعي
أعقاب اللفائف وماسحي الأحذية وموزعي الإعلانات .
وبينما كانت هذه المجموعة الفذة منهمكة في لعب
« الجديد » وإمساك بعضهم بخناق بعض ، كان طبيعياً
أن ينحو زميلهم خريج الجامعة في سلوكه منحسٍ آخر ،
فالتزم الصمت ، وراح يستسلم لخياله الذي سرعان ما جنح
به إلى أمه التي خلفها في البيت مريضة ، وإلى عفاف التي
اضطر إلى أن يختفي عن وجهها ليسترخ خجله .

وبعد أن أمضى وقتاً ساجماً في هذه الأجواء السود ،
تَحَامَل على نفسه ونهض يواصل تجواله . حتى إذا
ما انقَضَت الليلة وأغلقت الحانات أبوابها بعد أن أدت
ما عليها للسكارى والمربدين ، وقف يحصى ربحه فإذا به
أربعة قروش ، كان عليه أن يدخر منها قرشاً لسكراء

الغرفة ، ويكمل ثمن الدواء لأمه بقرشين ، ثم يأكل هو
وهي بالباقي . فابتسم بسمة صفراء وغمغم يتهكم بنفسه :
— لا بأس . نتيجة حسنة .
وقصد إلى غرفته ليأوى إليها .

وكانما شاءت أمه أن لا تشاطره هذا الريح الضئيل ،
فتركته إلى حيث يصبح المرء ولا مَطْلَبَ له . إذ لم يكد
يلجُ عليها الباب ، حتى وجدها ميتة وأطرافها في برودة
الثلج . أجل ، لفظت أنفاسها وحدها ، لا أحد يطمئن
خوفها في ساعاتها الرهيبة ، أو يزودها بكلمة تعينها على
سفرها الطويل .

وهزها مصطفى ، لا ليوقطها وإنما ليراها لا تتحرك ،
فيزداد إحساساً بالفجيعة . فلما ألفاها هامدة ، صرخ
صرخة ثاقبة ثم انكفأ عليها وراح يعصر فوقها دموعه .
حتى إذا ما بلل بها جثمانها الطاهر ، نهض واقفاً وأخذ
ينظر إليها وإلى الحصير البالي الذي تمددت فوقه ، ثم إلى
كسرة الخبز الملقاة بجوارها وزجاجة الدواء الفارغة ،

ويهز رأسه أسفاً والدموع تتقاطر من عينيه . ثم تحوّل
إلى السماء وراح يقول وقد رفع إليها يديه :
— حسبنا الله ونعم الوكيل ! كم من قتلة بين
ظهرانينا وهم في عرف القانون أرباء !

...

وعاد مصطفى من دفن أمه مع مغرب الشمس ، فارتمى
على حصيره وراح في نوم عميق من أثر الإعياء الذي
لاقاه في يومه المشؤوم . وكان بين وقت وآخر يحلم بأمه
وقد أته كما كانت تأتبه حية ، حتى إذا ما فتّح عينيه
وتذكر الحقيقة ، انتفخ صدره بالحسرات التي لم تكن
لتجدى في تصريفها تنهداً ، ثم غلبه التعب فعاد فنام .
وعندما استيقظ في الصباح ، حمل حزمة الأوراق التي
يتكسب منها قوته ، وخرج كعادته يسمى على رزقه
ويقول :

— النصيب ! من ذا يشتري أوراق النصيب ؟
وماراعه وهو يسير ، إلا أن رأى الباشا جالسا على
المقهى نفسه ، وبين الرفاق أنفسهم . فوقف لحظة يصوب

نحوه النظرات الشزراء ، ويلوِّح له بقبضة يده في الهواء
مهتداً ، والباشا مشغولٌ عنه بحديثه مع صحبته ، وقد
أخذوا يصغون إليه في ذلك الوقار المتكلف الذي يحسبونه
من مستلزمات الواجهة ، حتى تحولت حياتهم إلى نفاقٍ
كبير ، راحوا يعيشون فيه حتى بينهم وبين أنفسهم .

وخشى مصطفى أن يتورط فيما لا تحمد عقباه ، فقفل
راجعاً بعد أن أيقن أن هذا المقهى هو محل الباشا المختار ،
وعزم لذلك على أن لا يعود إلى ارتياده .

ولكنه ما كاد يخرج في اليوم التالي ، حتى وجد
نفسه مسوقاً بقوة خفية إلى حيث يجلس الرجل ، وإذا به
يقف لحظة يصوب إليه النظر الشزْرَ من بعيد ثم يعود
أدراجه .

وتتابعت الأيام والحقد يغلي مرَّجَلُهُ في نفس الفتى ،
وكلما أراد أن يتجنب المقهى الذي يتردد عليه الباشا ،
ألغى قدميه تتجهان إليه مدفوعتين بتلك القوة الغامضة ،
لينتقم منه انتقامه الصامت ثم يعود لا يلوى على شيء .
وكأما كان يجد في عمله هذا من حيث لا يشعر ، مجالاً

للتنفيس عن حقه بعد أن لم يتكفل القصاص
بذلك عنه .

. . .

و ذات مساء كان الباشا جالسا في مقهاه بين زمرة ،
حين أقبل عليه رجل مسن بادره صاحبا بقوله :
— آه ! حسن أفندى ! مرحبا بك ! كيف حالك
في تقاعدك ؟

وراح يضحك ملاطفا ثم استطرد :

— ألم توفق إلى عمل ؟

— كلا أيها الباشا . إني قانع بمعاشي ، ولست
أطمع إلا في أن أقضى البقية الباقية من أيامي في هدوء .
— الحق أن المصلحة خسرت فيك رجلا طيبا
محبوبا . حسنا ، هيا ننقل إلى النّضد المجاور لأحدثك
فيما بعثت إليك بشأنه .

وخلا به وجعلا يتحدثان .

وقال حسن أفندى وهو يرشف قدح القهوة ، يرد
على سؤال وجهه إليه رئيسه القديم :

- نعم أعرضه . لقد كان أبوه رحمه الله صديقاً لى .
 — وهل تعرف منزله ؟
 — فى وسعى أن أبحث عنه .
 — حسناً ، قمْ بذلك . واثقتى به على عجل ، لأنى
 أريد أن أسند إليه عملاً أرى أنه أحق به من سواه .
 — لن أتوانى فى ذلك .
 وبدا سعيداً بأداء هذه الخدمة إلى ابن صديقه ورفيق
 صباه .

واستطرد الباشا :

- لكن اكنتم أمر هذا عن الناس ، لئلا يتكالب
 على الوسطاء من الطامعين فى المنصب لذويهم إذا علموا به .
 — لك ذلك أيها الباشا .
 ثم راح يتعجب من نقمة الرجل من غيره أمراً أتاه
 هو ذات يوم . على أن عجبه كان أكثر لهذه الروح
 الجديدة التى لمسها فيه نحو مصطفى الذى نكبه من قبل .
 وكان قد لاحظ انتهاء الحديث فغمغم :
 — أية خدمة أخرى ياسيدى ؟

— شكراً .

ومد له يده فصالحها وانصرف .

وعاد الباشا ينضم إلى صحبه . ولكنه لم يكذب يستقر
على مقعده بينهم ، حتى لمح شابا يرتدى الأسمال والشرر
يقده من عينيه ، وقد أخذ يشق طريقه إليه وسط
الصفوف كأنه سهم مارق ، حتى إذا صار منه على قيد
خطوات ، رفع يده بمدية كان ممسكاً بها وحاول أن
يغمسها في صدره .

وذعر الرجل وتراجع إلى الوراء . وفي هذه اللحظة
كان قد سارع بعض الحضور وأمسك بالشاب وانتزع
المدية منه ، وبذلك نجت فريسته من موت محقق .

وتكاثر الجمهور على الجاني واعتقلوه . على حين خف
آخرون إلى الشرطي يستدعونه ، أما الباشا فلم يكذب
يفيق من ذهوله حتى أخذ يتفرس في وجه قاتله ويمصر
ذهنه ، كأنه يحاول أن يذكر متى رآه .

وجأة هتف :

— أهو أنت ؟

ثم انثنى قائلاً في سره :

— لماذا يا مصطفى ؟ لقد كنتُ بسبيل أن أنصفك .
ولبت لحظة يحدق في وجهه ، ثم التفت إلى من
حوله وصاح بهم :
— دَعُوهُ ! دَعُوهُ ! لقد ساحتُه .

ولكن الشرطيَّ كان قد أقبل وتثبت باقتياد المذنب .
واضطر الباشا إلى الإذعان بعد أن خرج الأمر من يده
وانتقل إلى أيدي العدالة .

ولما كان الجنديُّ يعرف شخصية الشهود وجُلَّهم
من عليّة القوم ، فقد اكتفى بأن سألهم أن يوافوه إلى
المخفر ، على أن يسبقهم إليه بالتهمة .

ثم قبض على مصطفى من قفاه ، وسار به وسط
موكب من الصّنية والرّعاع ، كانوا لا يفتأون
يتصايحون به :

— يا قاتل ! يا قاتل !

ثم يرمونه بالحجارة .

وكان الجندي وهو يقود التهمة لا يكفُّ عن لطمه

وركله دون سبب ، والمتهم يصيح به بين وقت وآخر :

— أما تكفُّ عن ضربى ؟

فيكون جواب جلاّده لطمّةً يهوى بها على وجهه ،
أو ركلةً من حذائه الضخم تصيب أحشاءه .
وعندئذ لا يمالك الفتى أن يقول له :

— لماذا تضربنى وفى البلاد قضاة هم الذين يقضون
فى أمر الناس ، وشريعةٌ هى التى تحدد نوع ما ينزل بهم
من عقاب ؟ هل جعلوا منك قاضياً يفصل فى أمرى ؟
وهل أباح القانونُ الضربَ عقوبةً ؟ تبّاً لكم !
ما برحتم تذلّون الناس حتى جعلتم منهم أمةً من عبيد .
وأخيراً ضاق الجنديُّ ذرعاً بوقاحته ، فلكمه لكمة
على فكه جعلته يترنح ثم يسقط إلى الأرض فاقد الوعى .
وطرب الدّهماء لهذا النظر ، وتعالى ضجيجهم
وصياحهم ، وكأنهم حيواناتٌ استسلمت لغرائزها الأولى .

...

وكان الباشا قد استقلَّ سيارته هو والشهود قاصدين

إلى دار الشرطة . وفي الطريق ، راح يرثي لمصير هذا
الشاب . مسكين ، كم من مصائب لحقته بسببه ! فمن
تشريده جعل منه أفقاً ، إلى تورط في الإجرام يوشك
أن يزج به في غياهب السجن .

وعندما بدأ التحقيق ، شرع المتهم يقصُّ الفضيحة
من أولها . الفضيحة التي ارتكبها الباشا وأسمهم فيها
عاكف ثم توجها الجندي .

وسقط في يد الباشا . وما كاد يبارح الخفر ، حتى
راح يبذل مساعيه لمنع تسرب هذه الفضائح إلى الصحف ،
أو إلى مروّجي الأخبار الذين لا تقلُّ ألسنتهم انتشاراً عن
الجراند .

الفصل السادس عشر

عاني مختاراً من صدّ زينات ، أكثر مما عانى من
المأزق الذي وضعته فيه ، وتركته يبحث عبثاً عن
مخرج .

وأخذت الآلام تهدّ في جسده حتى أوهنته ، فبدأ
يرى الجوهرة المتألقة فيه .

وزادت الأيام تألقاً حتى نسي هيكله ، ولم يعد
يبصر غير تلك الأشعة التي كانت تتلألأ بين جنبيه ، وتنبعث
من عينيه وخلال مسامه .

وهكذا استطاع بعد أن شفّ جسمه أن يرى روحه .
فلما رآها فهم لغتها . وفهم اللغة التي حدثته بها
زينات من قبل ، يوم التقيا لتعرف رأيه في زواجه من
جلفدان .

وذا ليلةٍ والسهاد حليفه ، أحسّ كأنما قد تفتحت
له طاقة في السماء ، وأخذ ينسكب منها ضياءه باهر غمر

عينيه ، حتى إذا ما انتشى منه راح يبصر أشياء فوق
ما يتصور .

وانتظر حتى أقبل الصباح ، فهرول إلى منزل
زينات . وأكبرت شأنه لمّا رآته وقد طوقته هالة
من نورٍ قدسى . ثم دقّ قلبها فرحاً إذ قرأت بروحها
ضميره .

وقال لها وقد خلا بها :

— زينات ! إني سأخطب جلفدان ، ولن أندم على
ذلك . لقد رأيتُ حبنا الروحاني .

وهتفت في جذل :

— حقاً ؟ وافرحته ! وكيف رأيتَه ؟

— كما وصفته لي . أنوارٌ وأنغام . ولا شيء إلا

النور والنغم .

— ألم أقُلْ لك ؟ ومتى تخطبها إذن ؟

— الآن إن شئت .

— ذلك ما أريد . جلفدانُ على شفاهاوية .

— ولكن ...

— تكلم .

— ثمة عقبة .

— وما هي ؟

— أن أقنمها بحبي .

— لا عليك فلقد فكرتُ في ذلك . قُلْ لها
إنك تحب روحها ، وستصدِّقك بسهولة . لأن أولئك
الذين حُرِّموا جمالَ الجسد ، يدفعهم حب الذات إلى إقناع
أنفسهم بأن الجسد ليس كل شيء . وهم سرعان ما يؤمنون
بالنغمة التي تغرد وفقِّ هواهم .

فاعترض قائلاً :

— وإذا كانت مطلعة على حبنا ؟

— ما أحسبها مطلعة عليه . على أن تقدمك إليها
كفيل بأن يزيل من نفسها كل شك . إذ ماذا يملك
على خطبتها إذا كنت بسواها مشغوفا .

— هذا إلا إذا فطنتُ إلى الدور الذي نلعبه . ومن

الممكن أن تظن إليه ، خصوصاً بعد أن علمتُ بأنك
وقفتِ على سرها . وأحسب أنها من النبيل بحيث ترفض

منا تضحية كهـذي .

— لكنها لم تعلم . فعندما كانت تهتف باسمك ،
كانت نائمة ولا تدري أننى أسمعها . وعندما كانت تناجي
الصورة ، تجاهلت أنى رأيتها وجازت عليها الحيلة .
— حسناً . بقى أبوك . كيف أفنعه وهو يعلم ما بينى
وبينك ؟

— ليس علم اليقين . إن هو إلا مجرد ظن سيبدده
طلبك إياها . اذهب . إذن رعاك الله وأنقذها . ومثـل
دورك بمهارة ، فإن أقل هفوة قد تفسد كل شيء .
وهم بأن يذهب ، ولكن فيها استوقفه وهو يلقي
نظرة على محياها الجميل . كان قد سكر بخمر جمالها .
وفى ساعات النشوة ، تجذبنا أمـثـلنا الأرض ، حتى لو كنا
فى السماء . إنما نحن صوفيـون فى محاريبنا فقط .
وأدركت ما توسوس له به نفسه فهتفت به :

— ما لك تتوقف؟ امض فى سبيلك .

ونظر إليها فى ضراعة وهو يقول :

— رحماك يا زينات ! قبل أن تنيه فى بيداء السماء ،

ذلك العالم المفرغ الذى سنفقد فى برودته لهبنا ، هذا
 اللهب الذى هو سر الحياة ، ألا نودّع وجودنا الأرضى ؟
 أنترك هذه الأرض دون أن ننشَقَ جانباً من عبير
 غبارها الممتع ؟ آه ، ما أجمل عبير هذا الغبار ! لكأننى
 به يفوح وقد نفَضْتَه أنداءُ الصباح ، فيبلغ أنفى
 ويسكره ! زينات ! بالله دعينى أقبل فمك الجميل ،
 قبل أن أقول له الوداع . وأعانق قدك المشوق قبل أن
 أحرمه إلى الأبد . كيف نظماً إلى القبلة كل هذه الأعوام
 ثم نروح بظمئنا ؟ كيف نفرس كل هاتيك الزهور ،
 ولا نرشق منها فى صدرنا زهرة ؟ أيسكون لدينا كل تلك
 الفراس ، ولا نترود فى غربتنا منها ؟ قدرى سنين الغربة
 المقبلة ، قدرى الحرمان المؤبد ، ثم اعذرى بالله يازينات ،
 ولا تكونى على شوقنا قاسية !

وأشاحت بوجهها عنه وهى تقول :

— كلا كلا يا مختار دعنا طاهرين . ما يجمل بنا

وقد حلقنا فى السماء ، أن نعود نتردى فى التراب .

— لا يا زينات ، ما دمنا أتينا إلى الأرض ، فيجب
أن نأخذ نصيبنا من ترابها . فإن فيه آية من حر الشمس .
وإن فيه لمن سر الدَّورَة . فيه هذه الشحنة من
جهنم ، التي يحنُّ إليها دَمُنَا كأنما سبق أن عاش في
شياطين .

وتصورت جهنم . وأحست بلذع نارها الجميل يمشي في
عروقها . فتأوهت وهتفت لتخفي ما بها :

— كلا . لا أحب سقر . لا أحب الزبانية .
ولكنه تقدّم نحوها وأمسك بيدها ، فكأنما لمست
كفها جرة . فصرخت :

— أواه ! دعني !

ولسكنها لم تلبث أن تخاذلت وأسلمته فاهها . ذلك أن
تلك التي ظنت نفسها في السماء ، سرعان ما استجاب
دمُّها الذي كانت ما تزال تجري فيه حرارة جهنم .

وهتفت وهو ينهال على ثغرها بالقبلات :

— رؤيدك ! من أين يهب هذا العطر ؟ إني أكاد
أذوب فيه فارحمي .

وأجاب وهو يرفع فيه عنها :

— إنه عطر أجسامنا وهي تحترق . عطر هذا
البخور الذي تكمن لذائذنا فيه ، إلى أن تطلقها نار
تشعله . لا شيء يعدل أن يحترق الإنسان ، ويتحول إلى
دُخانٍ معطر . بل يقيني أننا ما خلقنا إلا لنحترق ،
ونسكر بهذا الحريق . وإلا فعلام قدت أجسامنا من ند ؟
وعلام يجري في عروقنا « الغاز » ؟ كل شيء فينا لإشعالها
مهيأً ، وليس ينقصنا إلا الشرارة . والشرارة الشرارة في
تلامس ثغرينا .

وأطرت زينات وراحت تحدث نفسها وتقول :

— آه يا سحر جهنم ! كيف السبيل إلى الخلاص

منك ؟

ثم نظرت إلى جسمها وهتفت :

— وأنت يا صلصالاً من سكير ، ليت شعري

كيف اخمدك ؟

واتقد جسدها . غير أنها استنجدت بروحها ، فما

لبثت أن أغرقت ناره في فيض من نورها السحري ،

وراحت تمطره سلاماً وبردا . فالتفت لصاحبها
وقالت له :

— حسبنا يا مختارُ ما ذقنا من حريق . لشدِّ
ما هو فتن ، ولكنني أرى في الظل أمناً ودعة . فهيا
نمُدْ إلى السلام الذي جئنا من تونا منه ، وأنحلّق كما
كننا في السماوات العُلا ، إذ ما ينبغي أن نستبدل بالجنة
النار . هيا يا مختارُ وابشر جناحيك .

وعاد يسود لهجتها الجد ، وترسم على وجهها مسحة
القديسات . كان صراعا عنيفاً بين الروح والجسد ،
تقارع فيه سيف الزهد والرغبة ، وتبادلا الهزيمة
والانتصار .

وقال مختارٌ وهو يجاهد ليطير :

— آه ، ولكنني أخشى الهبوط . أشعر بثقل في
جناحي . ما تزال بنا من الأرض بقايا كيدرة ، وأشكُّ
في أن الخلاص منها ميسور .

— بالتقوى سننتخلص منها . قم واقصد إلى مخدع
جلفدان ، وتحقق أنه لا أحد هنالك .

وقال وهو يجرجر قدميه ويبتعد :
— بل أُمّاي الكثير قبل أن أنسى هذا الجمال بل
أُمّاي الكثير . آه ، وارضته لحبنا !
ثم غاب عن نظرها .

الفصل السابع عشر

وسار مختاراً يتحامل على نفسه . لم يكن هذه المرة
يقصد إلى زينات ، ولكن إلى جلفدان . أما زينات ،
فتلك حلم ومضى .

ولاح له باب الحجرة التي ترقد فيها زوجته المنتظرة .
هنا ، عند هذا الباب ، سيتخلى عن كل آماله ، كما لو لم
تكن غير ماءٍ وتسرب من بين أصابعه ، ثم يعود خالي
الوفاض . هنا ، عند هذا الباب ، سيوارى التراب
شبابين ما يزالان يزخران بالحياة ، حيث يبقَى اللهب
الكامن فيهما يصرخ ويشكو إلى الله قسوة القدر .
فتوقف في سيره . كان يريد أن يترث قبل أن يحفر قبره
بيده ، وقبر من يهوى .

ولكنه لم يلبث أن تملكته تلك العزيمة الصارمة التي
تتملك المنتحر . تلك العزيمة التي لا تمهل فريستها حتى
يتسرب إليها الخور . فحرك المزلاج في عصبية ودلف

إلى الحجرة .

ووقف لحظة يلتقط أنفاسه قبل أن يتفوه بكلمة واحدة ، كأنما قد أراد أن يجمع ما تبدد من قواه التي سيمثل بها أبغض الأدوار إليه ، كما يفعل الإنسان عندما يقيم إلى فيه كأساً من الدواء . ألم يكن عليه أن يتكلف دور العاشق ؟ ألم تكن كل خطوة يتقدمها في هذا السبيل تُبعد الشُّقة بينه وبين حبه الحقيقي ؟

فلما استعاد جأشه دنا من جلفدان ورَبَّتَ خدها ملاطفاً وسألها :

كيف حالك الآن يا جلفدان ؟

كانت في صوته نغمة لم تعهدها من قبل . ولا عجب فقد كان المسكين يتصور زينات ويتكلم . أما جلفدان فلم تكذب تسمع هذه النغمة حتى اضطربت ، ثم أجابته وهي تلهث :

— شكراً . لقد سببت لكم متاعبَ جمة . كم أنا

خجلة من نفسي !

— كلنا فداؤك يا جلفدان .

— فدائي ؟ فدائي هذه الأرواح الغالية ؟ لا تَقُلْ
هذا يا مختار . آه ، ليتني أموت وأُدفن عاري ممى ! عاراً
إنسانةٍ عالةٍ على الحياة .

— تموتين ؟ وتتركينى يا جلفدان ؟
وضغط يدها ضغطةً ذات مغزى واستطرد :
— آه ، لو تعلمين ! إذن لأبليت من أجلى ! جلفدان !
ألا أبلّغى بربك !

وارتعشت جلفدان . ما هذه الكلمات الغامضة التي
تُشبه حديث الحب ؟ فنظرت إليه مرتابةً وهتفت :
— من أجلك ؟ وماذا يجديك بقاى ؟
— كل ما يجدى الحب من بقاء الحبيب . جلفدان !
وخيم صمتٌ قال بعده :
— إني أحبك !
فشهقت ، وقالت وهي لا تصدق أذنها :
— تحببني ؟

— نعم أحبك . أحبك من عهدٍ طويل . وما
كُتبتُ إلا رعاية لمن فتح لي بيته واثمننى على

عرضه . فلما أصبحتُ وفي وسمى أن أنالك بالطريق
 الحلال ، وأحبك تحت سمع من بيده أمرك وبصره ، لم
 أجد حرجاً في أن أكشفك . إننى ما جئتُ إلا
 لأستأذنك قبل أن أطلبك إلى أبيك ، لا لأغري بك .
 فسألته وما تزال على ذهولها :

— وماذا تحب في ؟

— روحك يا جلفدان . إنها نقيةٌ كأشعة النجم .
 حلوةٌ كافترار الندى . عابقةٌ كأنفاس الزهور .

— ولكننى لست بزهرة .

— حسبك أن لك عبير الأزهار .

— ولكن كيف تحبني وفي البيت زهرةٌ أخرى ،
 جمعتُ إلى طيب الرائحة حسنَ المنظر ؟ كيف تحبني
 وفي البيت زينات ؟

— زيناتُ كانت طفلةً لما تفتّح قلبي ، فشبَّ وما
 علّق أحداً في الحياة سواك .

— ولكن ...

— ماذا ؟

— لطالما بدوتما كحبيين ، في الوقت الذي كنت فيه تتجنبنى .

— ذلك لأنه لم يكن هناك ما يوجب الاحتشام مع طفلة . أما أنت فقد كان لشبابك حُرْمَتُهُ التي كانت تُلْزِمُنِي بِأَنْ أَغْضَّ الطرف . صدَّقيني يا جلفدانُ إني أحبك ، وإلا ما جئت أضع قلبي بين يديك . فهل تحبينني يا جلفدان ؟ قولِها كلمة ، أصبح أسعد إنسان في الوجود ، وأذهب من فوري لأخطبك .

وعجبتُ لفعل الزمن . أختارُ الذي ظلت عمرها تحبه بلا أمل ، وتخشى أن تفتح له لئلا يردّها خائبة ، يأتيها اليوم متوسلاً وعلى كفّه قلبه ، ويسألها إن كانت تقبله ؟ تالله إن تلك أسعادة فوق ما تتصور ! فعادت الحياة تسرى في أوصالها ، وخيل لها أنها تسمع دبيبها وهي تصارع في جسدها جيوش الموت .

وهتفت وقد ابتسمت من قلبها لأول مرة ، مذ أَحَبَّتْ حبها اليأس :

— أختار ! أتسألني هل أحبك ، وأنا التي أتلّفها

هواك من قدام ؟ أتسألني هل أحبك ، وأنا التي
عشتك من قبل أن يعرف قلبك الهوى ؟ سل
جسمي العليل يا مختار ، سل الموت الذي ينقل خطاه
فيه — ينسبك .

— وا كبدنا ! إذن كانت الأنشودة واحدة ،
ومع ذلك غنيناها منفردين . ولكن لنفرح ، فلن نغرد
منذ اليوم إلا معا .

وفجأة بدا عليها السهوم . ثم قالت تستدرك وقد
عاودتها همومها :

— ولكن عاكف يا مختار . أما فكرت في
عاكف ؟

— اتركي لي أمر عاكف .

وصمت قليلا ثم استطرد :

— وبهذه المناسبة لم قبلت خطبته ؟

— قبلتها مرغمة . أبي توسل إلي . ليتك تقدمت

قبله ، ووفرت على كل هذا الشقاء .

— على كل حال لم يفُت الأوان .

— أواثقٌ أنت ؟

— كل الثقة .

— قلْ لي كيف ؟ زدني اطمئنانا .

— دعيك من هذا . ولتكن مفاجأة أعدّها لك .

— رباه ؟ إني خائفة .

— لا تخافي شيئاً .

— يا حبيبي !

وراحت تنظر إليه في صَبْوَةٍ . أما هو فقد أَرَهَفَ

أذنيه وقتاً ثم قال :

— وهذا والدك أَقْبَل . إني أسمع صوته في الدهليز .

إذَنْ حان الوقت لأفاتحه . يالها من لحظة حاسمة في

حياتنا !

وخرج .

وقالت وهي تتبعه بنظرها إلى الباب :

— وفقك الله !

ثم دَسَّت وجهها في الوسادة وجعلت تبكي . وكانت

هذه الدموع بمثابة تصفية لما بقي من آلامها .

وما إن غسلت بالبكاء أكدار الماضي ، حتى استردت
عافيتها ، فاستطاعت أن تنهض من السرير بعد أن لازمته
أسابيع . وكان أول ما اتجهت إليه المرأة . فلما نظرت
إليها خيل لها أنها غدت جميلة ، وأحبت نفسها لأول مرة
في حياتها . لله ما أعجب فعل الحب ! يردُّ الروح
المسلوبة ! ويمدُّ العينَ غير العين !

...

وأنى مختارٌ زيناتَ الباب وهو خارج . وكانت قد
قدمت لتطمئن على نجاحه في مهمته . لم تلتقِ نظراتهما
على ضنًى كما التقت وقتئذ . ذلك أن لقاءهما هذه المرة كان
وأملهما في النزاع .

ولم تزد الفتاة على أن هزت رأسها مستفسرة .
فأجابها الفتى في اقتضاب :

— كل شيء تمَّ كما ينبغي . وهأنذا ذاهبٌ للقاء
أبيها .

وتركها ومضى إلى عمه والعبرات تخنقه . يا لسخرية
القدر ! منذ أعوام وهو يتوق إلى هذا اللقاء الذى يطلب

فيه إلى عمه يد ابنته . وها هو ذا يذهب إليه الآن لهذا
الشأن ، ولكن أية الابنتين ذهب ليطلب ؟

...

وقابل مختار الباشا ، وكانت عنده شريفة هانم .
ولا تسأل عن دهشتهم عندما ألفياه جاء يخطب
جلفدان . فإن مختاراً عندما فاتح عمه قائلاً : « إني جئتكم
خاطباً . . . » ، لم يشك الرجل زوجته في أن العروس
زيبات ، ونطقا في سرهما بالاسم . أما الآن وقد اتضح أن
العروس أختها ، فإنهما ليكدبان أذنيهما ويراجعانه فيما
قال لعله أخطأ . فلما تثبتا من حقيقة من يقصدها الفتى ،
سقط فكاها من الدهشة .

وكان أول ما انتابهما شعورٌ بالندم . لكم ظناً
الظنون بمختار وزينات ، وها هما ذان يتضح أنهما
بريئان . وإذن فلقد ظلماهما . وإذن فإن بعض الظن إثم .
ومضيا يسخران من نفسيهما . فإن ذلك الإشكال
الذي بلبل فكرهما حيناً من الزمن ، وحاد بالباشا عن
الصواب في تصريف شئون منصبه ، لم يكن إلا محض وهم .

ثم انتقل بهما الفكر إلى عاكف . فقال الباشا مخاطباً ابن أخيه :

— ولكن جلفدانُ خُطبت يا مختار . خُطبت لعاكف . وأنت تعلم ذلك .

— نعم ، ولكنها لا تحبه . ومن أجل هذا مرضت وأضحت حياتها في خطر .

وسنح للباشا خاطرٌ قطَّب له جبينه فقال :

— وهل تقدمتَ لتنقذها ؟

— بل لأنى أحبها .

وهنا سرَّي عن الرجل . إذن فمختارٌ يحبها حقاً ، وليست في الأمر تلك التضحية المخيفة . إلا أنه عاد يسأله :

— ولماذا لم تتقدم إليها من قبل ؟

— كان ذلك في نيتي ، ولكنني فوجئت بسواى .

— ولم سكتَ حتى الآن ، ولم تطلب تغيير الموقف عقب الخطبة ؟

— كان على أن أتردد كثيراً قبل أن أقدم على ذلك ، لأن فسخ خطبة ليس بالأمر الهين .

— وما رأى جلفدان ؟ هل استطعتَ رأيها ؟
 — اغفرْ لي أننى استأذنتُها قبل أن أجيئك ،
 لأثبت لك بقبولها أحقيتى بها من عاكف . ولكننى
 أقسم لك يا عماء إن كلينا لم يكشف صاحبه بحبٍ
 قبل الآن .

ولم يلق الباشا بالآ هذه المرة لاجترأ مختاراً على خرق
 التقاليد المحافظة التى درجت عليها الأسرة . لقد كانت
 ابنته تموت ، فهل يلوم امرءاً جاء ينقذها كيفما كانت
 الوسيلة التى سلكها لذلك ؟

وسألت شريفة هانم مختاراً :

— وهل قبلتْ جلفدان ؟

— أجل ، وكان سرورها عظيماً . بل فوق الوصف .
 إنها وإن لم يسبق أن أبدت لي حبها ، لم يخف عني
 ميلها لي .

وابتسمت السيدة . الآن فقط ، أدركتُ سر رفض
 جلفدان لما كفه أول الأمر . أما الباشا فقد كان بآدى
 التفكير . ثم لم يلبث أن نظر لمختار وقال :

— ولكن ما العمل وقد ارتبطت مع عاكف ؟

— أو ليست سعادة جلفدان فوق كل اعتبار ؟

وأطرق الباشا وراح يحدث نفسه :

— لقد أصاب الفتى كبد الحقيقة . وفوق ذلك فما

يسر عاكف أن أتحمّل من وعدى معه . ألم يخطب جلفدان

لفرض في نفسه ؟ فما حاجته إليها إذن بعد أن نال مأربه ؟ يبدو أنه لا ضرورة حتى لاستثنائه في فسح الخطبة .

على أن في وسعه أن يتزوج زينات فيريح فوق الوظيفة زوجة من أجل بنات حواء . كما يتاح لي أنا تزويج

الابنتين ، وأكون قد صِدْتُ عصفورين بحجر واحد .

كل شيء يسير على مايرام ، ولا عُدَّةُ البتّة في الموضوع .

ولكنّ المهم هو أن تبلى جلفدان من مرضها لتنعّم بهذا

الزواج ، وأقرّ عينا بها . فهل تبلى منه ؟ ألا لَيْتَها !

فرفع وجهه إلى مختار وقال :

— ولكن ما رأيك في صحة جلفدان ؟ هل هناك

أمل في إبلاها ؟ يبدو أن التحقق من هذا واجب قبل

الإقدام على أي شيء .

— الأمل كبير يا عماء . إن مرضها نفساني ،
وسيزول بزوال العقدة التي سببته ، والتي هي فيما أعتقد
زواجها ممن لا ترغب فيه ، وحرمانها ممن تُحب . بل
إن أغلبه قد زال منذ صارتُها بما يكفل تحقيق أمنيته ،
والقليل الباقي سيزول عندما تتم الخطبة إن شاء الله .

وهنا هتفت شريفة هانم :

— حقا ؟ إن هذه لبشرى عظيمة .

ثم نظرت إلى زوجها وكأنما تقول له : اقبل .
أما الباشا فراح يقول :

— حسنا يا بني . ولكن الكياسة ما زالت تقضي

على أن أستشير الفتاة قبل أن أقبل طلبك ، إذ المفروض
أنني لا أعلم أنك جئتني بموافقتها .

وعضَّ مختارٌ على شفته . كانت هذه الملاحظة بمثابة

توبيخ خفيٍّ موجه له من عمه ، على أنه تهجم سراً على
قلب ابنته . لكنما رَفَّه عنه أنه كان مجرد عتاب رقيق
لا أثر للسخط فيه .

فأجاب :

— بالطبع يا عماء .

— إذن ابق هنا حتى أعود .

والتفت إلى زوجته وأوماً إليها أن تصحبه . ثم قصداً
معاً إلى مخدع جلفدان .

...

وكان طبيعياً أن تقبل جلفدان . وكان أن انطلقت
الزغاريد في البيت احتفاءً بأملها الوليد ، في الوقت الذي
كانت فيه زيناتٌ ومختارٌ يسيران في جنازة أملهما . وما
بالعجيب أن يجتمع في وقتٍ واحدٍ ميلادٌ وموت ،
فتلك سنة الحياة من قديم . وإن الزهرة لينفرط على
الأرض عقدها ، فينبت من بقاياها زهرٌ جديد .

...

يا لتدابير القدر ! من كان يظن ، أن الهناء الذي
هيأت الطبيعة سببه للمحبين بما وهبتهما من جمال ،
سيكون في النهاية من نصيب شخص آخر خُلِقَ
محروماً ؟

فهل من لطف القدر بالمحرومين ، أنه عندما يضمنُ

عليهم بالسعادة ، يغدق النبل على بعض من خصهم بها ،
ثم يستخرهم ليتخلوا لهم عنها راضين ؟
ولكن ماذا يفعل هذا القدر بعدئذ من أجل أولئك
الأسخياء ؟ وهل من الممكن أن تكون لذة البذل
وما تبعته في الضمير من راحة ، هي الجزاء الحسن الذي
يعوضهم خيراً عما بذلوا ؟

...

وكما خلف حدث هذه الخطبة في منزل رمزي باشا
سعداء وشقيين ، خلف في بيت جارها أيضاً سعيداً
وشقية . ذلك أن نبأها لم يكذب يبلغ محرراً وشقيقته ،
حتى تجدد للأول أمله في زينات ، ونفّضت درية يدها
من مختار وراحت تبكي .

الفصل الثامن عشر

لم تكذبتم خطبة جلفدان ، حتى هرعت زيناتُ
إليها تغمرها بالقبل وتقول :

— تهنئتي لك يا جلفدان ! كم أود ، لو يومَ المنى
نسجتُ من أهدابي ثوبك ! وجعلتُ من إنسان عيني
خاتمك ! ثم أوقدُ قلبي بَدَلِ الشموع ، وأزفك على نوره !
وأطلق عصافير خواطري لتزغرد لك !
وأجابتها جلفدان :

— شكراً يا أختي ؟ وأنا كم أود لو ليلةَ عرسك ،
حُكْتُ ثوبك من أجنحة الفَراش ! وقَبَسْتُ من
خفق النجوم جواهرك ! ثم أحشد من الطواويس
صفين لتكون وصيفاتٍ لك ؟ ومن البلابل قيسناتٍ
تزفك !

وكانما هاجت هذه الجملة شجنَ زينات ، فلم تكذب
تسمعها حتى أحست ببحارٍ من الدمع تتجمع في مآقيها

وتوشك أن تفيض . فانسدت من بين القوم وذهبت
تذرفها وحدها في صمت وهي تقول :

— لَعَمْرُكَ قد نشدت المستحيل يا جلفدان ، قد
نشدت المستحيل . إذ كيف أتزوج وقد وهبتك
زوجي ، أو أهناً وقد نزلت عن هنائي لك ؟ لك الله
يا زينات ! لقد بذلت فوق الذي ينبغي ، وجئدت بما
ليس يسمح به الجود !

واتفق أن دخل مختار الحجرة التي خلت فيها بنفسها ،
فما إن رآه حتى تلقته ملقاة وهي تهتف :

— مختار ! هل انقضى كل شيء ؟ وأصبحت
حراماً على زينة وزينة حراماً عليك ؟ ولكن لم أقول
زينة ؟ إنك لن تدلني بعد . ولا عدت أناديك
حببي ! واحسرتاه ! كان يجب أن نفرس هذا الزهر في
حياتنا . ونوقد لرفافنا هذه الشموع . أليس كذلك
يا مختار ؟ تكلم . من كان يظن ، أن الهوى يعطفنا
فتأبى التضحية ؟ ويشرينا فنيئعه بيع السماح ؟ وأنتك
لا عن سؤل تهجرني ، وأنتي لا عن ملال أهجرك ؟

وتتخلى عني وقد أحببتني ، وأبذلّك يا حبيبي باليمين ؟
مختار ! يا أعزَّ مَنْ في الوجود ! ويا حُلماً مضى فما
يعود ! — تكلم .

وأخذ مختارٌ يرفه عنها ، ولكنه اضطر إلى أن يخرج
عندما سمع وقع أقدام تقترب ، تاركاً إياها مستسلمة للبكاء .
لم يكن من السهل أن تتخلى عن أمل العمر في لحظة ،
ولا أن تصبّ الماء البارد على شبابها فتطفئه ، وهي التي
ذاقت من توها حلاوة الاحتراق على ناره ، عندما أذكتها
قُبْلُ مختار ساعة ودَّعها ليخطب أختها .

وإنها إذ تذكّر الآن هذه القبل ، لتذكر الشرارة
المقدسة التي التمت على فيها عندما لمستهُ شفتاه ، وذلك
البخور المسكر الذي راح يفوح منه وهو يحترق تحتها ،
فتذوب هي في عطره ذلك الذوبان اللذيذ .

لقد كانت تتعلل بذلك الحب الروحاني ، وحسبت أنها
تستطيع أن تظفر به وتلقّى السلام في نوره الهادي ،
حيث لا لهب يُلحّ ويبيد رغبات ، وفاتها أن
الإنسان قطعة من جهنم ، وهذا دمُّه يجري بنارها

فيه ، ويُثبت أننا كنا أبالسةً هناك . فلما أدركت ذلك
كفرت بالروح ، وأمنت بجهنم وبالزبانية ، وودت لو
تشعلها حاميةً في دماؤها وتجلس تحترق على لهبها وتتأوه .

فلم تمالك أن هتفت في جنون :

— مختار ! تعال وأشعلها جهنميةً في دماي ،
ودع فؤادي يحترق على لهبها ، ويصعد ذلك البخور
الذي أذوب في عطره ! تعال تعال يا مختار ! كيف
نؤمن بالسماء وفي أعماقنا هذا الجحيم ؟ تعال نتطهر على
ناره أولاً ثم نرقى إليها في دُخان ، مخلصين الرماد تحتنا .
ولكن مختاراً لم يحضر . وهو لن يحضر أبداً
ليقبلها . لقد أضحى فيه الجميل حراماً عليها إلى الأبد .
بل إن كل فم قد أضحى عليها حراماً مذ وهبت نفسها
لحبه . وما هي ممن ينقضون العهد ، ولا هي بالتي في
وسعها أن تنقضه ، وهذا هواه يسد عليها السبل ، ويجعلها
ترهد في كل زوج سواه . ومن ثم فستعيش هذه الزهرة
منزوية . لا يد تمتد لقطفها ، ولا أنف ينشق عطرها
الجميل . وتظل هكذا إلى أن تذبل وحدها .

وضاقت بها الدنيا فلاذت بذكريات الهناء ، أيام
 كانت تجلس مع مختار طفلة ، يضعان أحجار الأساس
 في قصور الأمل . وأيام عاد من أوربا فعكفا على بناء
 طبقاتها الشاهقة . وأيام خطب عاكف جلفدان فتم
 صرحها وأوشكا أن يلججا حجراتها ويقيا فيها ، وإذا
 بها فجأة تنهار ، فلا يبقى منها إلا هذا الغبار الخائق .
 فكأنما آخرة تشييد الأمل أن ينهدم على رأس بانيه !
 وخاتمة أيام الرجاء أن نُسْـنَق في حبال ذكراها .

ذكرت هذا فأدركت أن هذه السعادة شيء ضنين .
 فهي أبداً فرحة لا تتم . وعلى من يطلبها أن يقنع بالقليل
 الذى يتحقق منها فقط . وحتى هذا القليل ، يظل وهو
 بين أيدينا غير منظور ، فلا نستطيع أن نراه لنكحل
 أعيننا به ، حتى إذا ما حان وقت ذهابه ، صاغ له أجنحة
 من نور وطار بها إلى أصقاع مجهولة ، وعندئذ نبصره
 وهو يبتعد ، ونشيّع قلوبنا فى أثره من كلف به ، حيث
 لا عودة لها بعده ترجى .

ذلك أن زينات أيام كانت تنعم بالهوى ، شاء الهناء

أن لا يُريها نفسه كمعادته ، فعاشت وهي ترتاب في وجوده ،
وفوت الشكُّ عليها لَذَاذَتَه . وإنها إذ تدرك الآن
ذلك بعد انتهاء كل شيء ، لتتمنى أن يعود بها الزمانُ
إلى الوراء أياما ، لتحيا ساعةً في هذا الماضي الجميل وهي
مؤمنة به ، وتحقق منه بالإيمان ما فوتته عليها الشك من
قبل . ولكنْ . أننى لها ذلك والزمان لا يرجع إلى
الخلف ، ويأبى أن يردنا إلى العهود التي أسعدتنا ولو
لنقيم في ربوعها لحظة . فهل تلك شيمة السعادة ؟ تعمينا
عنها وهي بين أيدينا ، حتى إذا ما فارقتْ فتَّحت أعيننا
في أثرها لتملأنا حسرة ؟ ثم جدت في السير وهي لا تفتأ
تُزجى لنا تلويح الوداع ، وفي كل خطوةٍ تنقلها
تخطف جانباً من قلوبنا ؟

وبدا لها أن تتفلسف . وخيِّل لها أنها تستطيع
بهذه الفلسفة أن تصرف آلامها . وهكذا لا يخلص
المُوجع من همومه كتصعيدها في فكرٍ عظيمة .
فكان من فضل الهموم على الإنسان أنها تتسامى به إذا
أراد . فراحت تناجي السعادة التي ذقت طعمها ذات

يوم وتقول :

— أيتها السعادة بماذا أشبهك ؟ أبأصبع ذهبية
تتقل على أوتار قلوبنا وتجذب نغمها الحبيس ؟ أم بنسيم
رقيق يهز أوراقها وينفض ما حوت من عبق ؟
إن كنت هذا فنحن لولاك أغنية ميّنة ، وأكلام
مغلقة على سرها بدونك . وهيّات من غيرك أن
نلمس ذواتنا ، أو نستدل على أرواحنا التائهة في مغاور
القلب !

أم بفجر يشرق على أحلامنا فيشتت ضبابها
في قطر نحتسيه ؟ أو حريق مسكر يشب
في قصور أمانينا فيحولها إلى بخور يضمّخنا ؟ إن
كنت هذا فلأنت عطر المنى وعصير زهر الأحلام .
وفصل الخطاب إذا طال الحديث ، ولحظة الاستقرار
لشوق معذب . ولولاك لعشنا في أكاذيب الأمل إلى أن
نموت بظمئنا .

أم بالفراDIS الموعودة تراءت لنا عبّر نظراتنا
الوامضة ببريق النشوة ؟ أو طافية على بحور النور التي

تتفجر عنها بسماتنا ؟ أو راقصة في ذوب دمة فرح
 رجراجة نذرفها ؟ إن كنت هذا فلا بد أنك شيء
 مقدس ، يهبط علينا من الخلد ولا يمت لدينا بسبب .
 فِيرينا من مآب أرواحنا لمحات ، أو من مهود طفولتها
 الغالية .

أم بسرب من الطير المجنح يطير من عشه القائم على
 قنن الفؤاد ، وقد زف في موكبه الفخم أرواحنا ،
 مر كيباً إياها مر كبات من أجنحته المنشورة ، عازفاً
 لها من زقزقته الألحان ؟ إن كنت هذا فلماذا تمضين
 كال مصافير مسرعة ، وقد اختزلت في ركابك الساعات
 إلى دقائق ؟ فإذا أقت نخال عامك يوماً ، وإذا رحلت
 نخال يومك عاماً ؟

أم زورق أنت أقلل المني ثم أغرق نفسه في أعماقنا
 المجهولة ، ومضى يسبح في القاع بعيداً عن عيوننا فما
 نحس منه إلا دبيبه ، حتى إذا ما أتم رحلته طفاً على
 لجج الذكريات ، فنراه ولكن في البحار النائية ، التي
 تفصل بيننا وبينها عوالم الزمن ؟ إن كنت هذا فلم

لا تزورين إلا ملثمة ، فنخال كذباً ما نحن فيه ،
 وتُسفرين إذا رحلتِ فما نشكُّ في رحيلك ؟ فإذا رشفنا
 كأس الهناء ففي أفواهنا مرضٌ ، فإن كانت شجى
 صحت فذاقت علقمه ؟

أيها السعادة ! وددتُ وإن فات الأوان ، لو بدّل
 التخفى نمّ عنك سفورك ! إذن لا تنبهنا لِمَزَازِ لن
 يطول ، ولا يكون في العمر إلا مرة . واهّا لنا ! كلنا
 كنا سعداء يوماً ، ولكننا لم نفطن لهذا إلا في أيام
 الشقاء . فياليتنا كنا فطنّا له في حينه ، ياليتنا !

...

وأفاقت من هذه الهواجس على صوت أبيها يدخل
 حجرتها ويناديها . وبعد أن طبع قبلة على جبينها السيلوري ،
 دعاها للجلوس إلى جواره وبدأ يتكلم قال :
 — أهنئك بأختك يا زينات . العقبي لك إن
 شاء الله .

— شكراً يا أبي .

— لم يكن بدّ بعد أن علمتُ بما بينهما من حب ،

من أن أفسخ خطبتها لعا كف وأعطيتها لمختار ، لأجمع
الحبيب على الحبيب ، ولئلا أكون قد عملت على جرح
قلبين بريئين .

— خيراً فعلت يا أبى .

وسكت قليلاً ثم استطرد :

— والآن يدور بخالدى وقد أصبح عا كف في
حلٍّ من جلفدان ، أن أهديه أئمن هدية في الوجود ،
وهي زينات أو زينة بنات جنسها . ولكن كان على
أن أستشيرك قبل أن ألمّح له بهذا العرض ، حتى
لا أكون قد حنثت معه في كلمتي مرتين إذا بدا لك أن
ترفضي . فما قولك في هذا يا ابنتي ؟

ودارت الدنيا بزينات . ما للأقدار وما لها ؟ أبعد
أن ضحت في حبها بكل شيء ، تراودها على التناكح له ،
والقدر بمختار الذى قدّم نفسه قرباناً لأختها ؟ أبعد أن
ندرت نفسها للزهد ، تريد أن تنزعها من سماءها العالية ،
لتلقى بها في جحيم الحياة مرة أخرى ؟ حقيقة أن هذا
الجحيم جميل ، وبرد ناره وسلام ، ولكنه لا يطاق في

أحضانٍ غير أحضان مختار . لقد كان ججياً واحداً ذلك
الذى أحبته ، وما ترضى أن تكتوى بسواه وإن غزت
عليها الآن ناره . وكان وهماً واحداً ذلك الذى تفتح له
قلبها طفلة ، وإنها لتفضل أن تغمضه عليه بدلاً من أن
تفتح له غيره فيهرب ، ما دام قد كان فيه حلاوة الخيط
الأول من الشعاع ، الذى شعرت تحته بجمال الصحوة
الأولى ، تلك الصحوة التى تطرب لها البراعم عندما
تتمزق عنها الأكام فى البكور ، وتستقبل أوراقها الضوء
أول مرة ، فتأخذ ترتعش وتتبسم . فلم تملك إلا أن
رفعت وجهها إلى أبيها وهتفت :

— كلا يا أبت . إني أرفض .

— ولماذا يا ابنتى ؟ ألا يروقك عاكف ؟

— لا أشعر نحوه بأقل ميل يا أبى .

— ولكنه جذاب ، وسميلين إليه حتماً بمجرد أن

يشتغل فكرك به .

— الحب يأتى أولاً ثم يشتغل الفكر ، وليس

العكس .

وأرادت أن تقطع عليه خط الرجعة فاستطردت :
 — ومع هذا فثمة سبب أقوى يمنعني من قبوله ،
 ذلك أنه كان خاطبَ أختي .
 — ولكنَّ علاقتهما قد انتهت .
 — انتهت ولكنَّ عبيرها سيظل في ثيابه . إني
 لأشعر بأن أختي ستكون معنا كلما جمعنا خلوة .
 — لعمرى ذاك وهم .
 — ليكن ، فبعض الأوهام لا سبيل إلى التحرر
 منها . كلا يا أباي . أعفني من هذه الخطبة . أعفني
 أتوسل إليك .
 ولم يُجدِ معها إقناع أبيها . فلما أصرت على
 الرفض تركها ومضى . ولكنه لم يأسَ كثيرا على ضياع
 هذه الفرصة . فإن زيناتَ شابةً جميلةً ، وما يزال الأمل
 فسيحاً أمامها ، خصوصاً بعد أن زالت من طريقها
 جلفدان . وفوق ذلك فإن عاكفاً الذي داسَ قلبه
 ليطمع فيه ، ليس بالزوج الذي يؤسف على ضياعه .
 لكن ماذا يقول له ؟ ذلك ما بقي يحيره . غير أن

نجدة هبطت عليه من السماء . إذ أتته أنباء بأن الفتى قد
تعمشّق راقصة من النّور ، وصار يشاهد معها علناً
في شوارع المدينة وحاناتها . فوجد في ذلك سبباً يتذرع
به للتخلص منه ، وحمد الله على أن هذه المصاهرة لم تتم .
ولم يفقه أن أدرك أن زواج المنفعة وخيم العاقبة .

وعندما قابل عاكفاً في اليوم التالي ، واجهه بما بلغه
عنه ، ثم شفع ذلك بإعلانه بفسخ الخطبة . وطار الفتى
فرحاً في قلبه بهذه البشرى التي لم تكن له على بال ، وإن
راح يتصنع الأسف .

الفصل التاسع عشر

لم يكد مختارته يدخل بحلفدان ، حتى شعر كأنما قد
أُلقيَ به في جُبٍّ . ظلامٌ مُدُّ لِيهِمْ وجوٌّ خانق ،
ومياهٌ آسنةٌ هي السمُّ البطيء . وَبَعْدُ أَلَمْ تَقْبِضْ
سَحْنَتُهَا قَلْبَهُ ، وتخنقهُ أنفاسُها ؟ أَلَمْ تَكُنْ كلَّ قَبْلَةٍ
يَضْطَرُّ إِلَى أَخْذِهَا مِنْهَا ، بِمَثَابَةِ جَرَّةٍ مِنْ جَوْهَرٍ
سَامٍّ ؟

فلا عجبَ إِذَنْ إِذَا بَدَأَ الْمَسْكِينُ أَنْعَسَ أَهْلُ الْأَرْضِ .
ولا عجبَ إِذَا تَقَدَّمَتْ بِهِ الْأَيَّامُ إِلَى الشَّيْخُوخَةِ مُسْرَعَةً
الْخُطَا . أَلَمْ يَكُنْ تِلْكَ الزَّهْرَةُ الَّتِي نُقِلَتْ مِنْ أَرْضِهَا
الْخَصْبَةِ إِلَى أَرْضٍ مَجْدِبَةٍ ، وَبُدِّلَتْ عَنْ نَسَمَاتِ الصَّبَا
رِيَّاحَ السَّمُومِ ؟ فَلَمْ إِذَنْ لَا تَذْبُلْ ؟ وَلَمْ لَا تَصْفَرَّ ؟
وَمَعَ ذَلِكَ فَقَدْ كَانَ كَرِيمًا مَعَهَا . فَلَمْ يَشْعُرْهَا مَرَّةً
وَاحِدَةً بِتِلْكَ الْمَرَارَةِ الَّتِي كَانَتْ تُمِضُّ فِيهِ عَقَبُ كُلِّ
مَلْعَقَةٍ يَتَعَاطَاهَا مِنْ شَرَابِهَا الْكَرِيهِ . وَلَكِنَّهُ كَانَ كَلِمًا

تعاطى منه جرعة ، خلا بنفسه ومجَّها في تلك الزفرات
العنيفة التي كانت تكاد تُزهق روحه ، ثم راح يغسل فيه
بكأس من نور ذلك الحب الروحاني الذي كان ما يزال
يسبج في فيضه مع زينات . فكانت هذه الكأس
ومثيلاتها ، هي العزاء الوحيد الذي بقي له في محنته ،
بالرغم مما كانت تحمل إلى قلبه من تبريح ، لأنها تهييج
الشوق ولا تروى الظمأ .

.....

أما زيناتُ فقد نشب الصراع عنيفا بينها وبين الحياة .
هي تود أن تتحصن منها خلف أسوار الزهد ، لتفرغ إلى
نشاطها الروحي الذي حبست نفسها عليه وعللتها بأنها
ستدق السلام في كنفه ، وتأبى الحياة بما لها من بطش
إلا أن تحطم هذه الأسوار ، ثم تمثل أمامها وتذكرها
بنفسها . فكانت كلما جمعت بالنسيان طبقة من الرماد
على قلبها المشبوب ، هبت نسمة من نسيمات الحياة
فاجتاحتها ، وتركت ناره تندلع بين ضلوعها .
فشعرت بأن الحياة عدو لدود لها ، وودت لو لاذت

منها بالفرار واعتصمت بفارٍ قَصِيٍّ ، منقوبٍ في صخرة
منقطعة وسط الصحارى ، بعيداً عن ضجيج الحياة
ووسوستها . وراقبها الفكرة ، فتصورت نفسها تخلع
حليها وملابسها الحرير ، وترتدى مسوح الزاهدات ، ثم
تضرب في الفيافي متجهةً صَوْبَ هذا الغار ، وقد
أخذت تستمع لوقع قدميها وهما تتنقلان فوق الحصى ،
وتصفي لضربات عصاها وهي تصطدم بالأحجار .

ولكنها لم تلبث أن هزت رأسها أسفاً ، إذ أنسى لها
أن تفوز بذلك ، وهذا أبوها لا بد واقفٌ في وجهها يذود
عن حبه لها الذي لا شك سيصنّعه مثل هذا الفراق ،
وعن تقاليد أسرته العريقة التي لا تسمح لبناتها بالإقامة
بعيداً عن حياضها . كما أنها لن تجد سبباً تعلل به
مسلكتها أمام القوم ، إلا إذا صارحتهم بالحقيقة ، وفي
هذا ما فيه من إيلاهم لهم ، وإفساد للحياة على جلفدان .
فلما أعيتهما الحيل ، لم تجد بداً من أن حاولت
مخدعها إلى معبدٍ صغير ، وأقامت من نفسها ناسكةً
تصلي فيه . وفي هذا المعبد الذي كان يعقب بشذى

البخور ، ويعجُّ بأطيف الملائكة الأبرار ، اعتزلت
زينات الدنيا ، وانقطعت لعبادة الله ومناجاة مختار .

ولكن هل كانت الحياة تترك قلبها دون مناوشة ؟
كلا ، فكثيراً ما كانت هذه الحياة تنسلُّ إلى معبدها
فتشتت البخور السابح فيه ، وتطرد الملائكة القائمين
للصلاة في محرابه ، ثم تحوِّله إلى مسرح للشياطين
يصخب بالنار . النار التي أحببها يوماً ما ، ولاذت
بمعبدها لتتنجس من سحرها .

فكانت كلما وافى ربيعٌ جديدٌ فعطَّر الجوَّ بشذى
الأزهار ، أو تناهت إليها من النافذة نغماتُ قيثارة تعزف
في سكون الليل ، ذكرتُ الماضي الذي حرصتُ على
نسيانه ، فتقوم قيامةٌ شبابها عليها ، وتهيج في معبدها
الصغير كعجونه ، وهي تهتف في سرها :

— مختار ! تعالَ أحرِّقْ بخوري ! يا ما أحيلى
النار ! تمتعنا بالدفء الجميل ، وتنفض عبيرنا في دُخان !
ولولاها لعشنا هامدين ، ولمّا نشقنا عطرنا !

فإذ لا يوافقها تستطرد :

— مختار ! أي حبيبي ! لم لا تردُّ عليّ ؟ ما كان
هذا عهدي بك . أيُّ أمرٍ لعمركَ باعدَ بيننا ،
والنوى ليس في شرع الغرام ؟ كنا وكان الهوى ،
كغردَيْنِ حواهما غصن ، فأىُّ ريحٍ هبَّت فقَصَفَتْ
عوده ، وألقت بكلِّ في مكان ؟

وإذ لا يجيبها تستمر :

— أختار ! لم ذبلت في كفنا الأزهار التي
جمعناها ، ولمّا تغرب عليها الشمس ؟ لم ماتت على
ثقب نايانا الأنغام ، ولمّا نأت على آخر الأغنية ؟ لم
جفّ بنا الغدير ولم نعبره بعدُ إلى الضفة الأخرى ؟
وهوى علينا قصر الأمل ، وما احتوتنا حُجراته
ليلة ؟ لم فَنِيَ كل شيء في أيدينا وحوْلنا ؟ لم أينما
سرنا نجد ما كان عامراً فناء ؟
ثم تقول كمن تشكو إلى الله :

— ربا ! هل نموت ، ويحمد الله الذي أذكينا ،
قبل أن ننعم بالاحتراق عليه ؟ هل نموت ، وعطّرنا
فيها دفين ، لا أنف ينشقه ولا جسد يضمّ به ؟

يا ليت أنا إذْ ن لم نُذْكَ اللَّهْب ، ولم نذَرِ ما لذة التأوّه
فوقه ! يا ليت أنا خُلِقْنَا بِدَلِّ النَّدِّ من رَمَاد ! أَى
ثأْرٍ كانَ بيننا وبين الأقدار ، حتى راحت منا تنتقم ؟ لم
بتنا وكأنا نكفّر ، ولا ذنبَ لى إلا أنه سَحَرْنى ، ولا
له إلا أنى تَيْمَمْتُهُ ؟

وتظل تندب حظها العاثر ، وتنادى مختاراً ومختاراً
لا يحيب ، إلى أن يُسَبِّح صوتها فتذعن للأمر الواقع ،
وتلوذ بالبكاء الذى هو آخر أسلحة الضعيف . فما إن
تذيب فى الدمع السخين آلامها ، حتى تغمرها الطمأنينة
من جديد ، فترحل الشياطينُ عن معبدها وتُفسح مكاناً
للملائكة ، ويعود جوُّه يَعْبَقُ بالبخور ، وتعود هى قائمةً
تصلى فيه . وهكذا كانت كلما أبى عليها القدر أن تتطهر
فى مَبْخَرَةِ اللذة ، راحت تتطهر فى بوتقة الألم . وشستان
بين احتراقٍ واحتراق ، وإن لم يختلف المصير .

ولما كان من المستحيل أن تشفَّ فى احتراقٍ واحد ،
وهذا شبابها يغذيها بالوقود على الدوام ، فقد كانت كلما
التهمت النيرانُ جانباً منه ، قفز مكانه غيره ، فى انتظار

الشرارة التي تبعثها إليه الحياة مع نعمة حلوة أو عطر
ذكي ، فتشعل فيه اللهب وتكويها من جديد . وهكذا
طال تعذيبها ، وخلصها شبابها في النار .

...

وكان مختارٌ يتردد في الفترات على منزل عمه مصطفى
زوجته . فكان ما يكاد يجتمع بزينات ، حتى يضطرم
في قلبيهما جوى حبهما القديم ، ويتشوقا إلى خلوة
يؤديان فيها للشوق ما وجب ، ولكنهما ما يكادان
يذكران جلفدان ، وأن لها حرمة ما ينبغي أن تستباح ،
حتى تنسل هذه النار هاربة وكأنها خجلت من نفسها ،
ثم يحل محلها شعور من الورع هادئ القرار ، يرى
كل منهما الآخر خلاله كما لو كان تمثال قديس من
القديسين ، يود لو يفنى بروحه فيه ويفوص في بركاته ،
دون أن يشعر نحوه بذلك الجوى الذي يشعر به العاشق .
ولكن هذا التعفف الظاهري لم يكن ليطلق الجذوة
المتقدة في الأعماق ، والتي تفعل فعلها في الخفاء كما يفعل
السم ، ومن وقت لآخر يتألب لها الكظيم ويشتمل

حامياً في ضلوعهما ، فإذا بتمثال القديس يخلع مُسوحه
ويبدل شَبَّهه ، فيبدو في عين مختارٍ في جمال « فينوس » ،
وفي عين زيناتٍ في سحر « يوسف » ، وإذا بكليهما
يتمنى لو ذاب صباةً في صاحبه .

ولقد حدث مرة أن ألفي العاشقان نفسهما في خلوة ،
فغلى الدمُ المسكبوت في عروق مختارٍ فجأة ، وراح ينظر
إلى زينات نظرة كلها ظمأ ويقول :

— كيف يغدو جمالك حراماً عليّ وقد حلَّله لي
الحب ؟

وانقضَّ عليها يود لثمها . وإذا بقوى المسكينة تخور
وتوشك أن تستجيب للغزل ، لولا أنهما ما لبثا أن ذكرا
جلفدان ، فتردد العاشقُ وأجفلت العاشقة ، وتركته يلوم
نفسه على تلك الجماعة التي أوشكت أن توقعهما في
معصية .

وهكذا أيقنت الضحيتان أنه من المستحيل أن يطفئا
في جسديهما الجذوة وإن غيَّباها في كهوفه . ولكن
ماذا كانا يفعلان وقد انقضى كل شيء وخرج الأمر من

يديهما ، إلا أن يستسما لقضاء الله ويخرجوا العذاب
المقدّر ؟

فهل علمت زيناتٌ وعليم مختار ، يوم نزلا عن
غرامهما جلفدان ، وظننا أن في وسعهما أن يحولا لهب
القلب إلى نور سماويّ ليس له إلحاح اللهب ولا مآربه ،
أنهما ما انخدعا بذلك إلا لأن جبهما غرق يومئذ في صوفيّة
الألم من أجلها ، مما جعلهما يحسبانه مات أو كاد ، حتى
إذا ما انجابت الموجة عنه غبّ إنقاذها إياها ، ظهر
الفريق وما تزال الروح فيه ، ثم انتعش فانقضّ عليهما يريد
أن يثار لنفسه ؟

هل علمّا ذلك ؟ وأن ما لاح لهما يومئذ من تهاويل
حسبها حبا روحانيا ، لم يكن إلا هذيان نفس شفّها
الألم ، حامت بالمستحيل في ذات ليلة كشف فيها عنها
الحجاب ، فلما طلع الصباح استيقظت على منظر نار
وموقد ، ومهجة تصهر فيهما ؟

لا شك أنهما لم يعلما . وإلا لَمَا بدا إيمانهما
عميقا بالخرافة التي رأياها وقتئذ ، فإذا زينات تتحدث

عنها كأنها دينٌ وتبشّر مختاراً به ، ثم إذا بالعدوى تسرى إلى الفتى فيتنزّل عليه الوحي بدوره ، ويطير إليها يقصُّ عليها كراماته .

ولكن أيّ موقف كانا يقفانه من جلفدان ، لو أدركا يومئذ سر الخدعة ؟ أكانت ماتزال تنتصر فيهما الرحمة ، فيمضيا في تقديم نفسيهما قرباناً للمحبة اليائسة ، وهما يعلمان مبلغ ما يكلفهما ذلك من ثمن ؟ أم يصيخان لنداء الحب تاركين إياها تروح شهيدة ؟

سؤال لم يكن يواتيهما عنه الجواب . وكل الذي كانا يظفران بالإجابة عنه ، هو أن الأقدار وضعتهما أمام أمرين كلاهما مُرٌّ وقالت لهما : « اختارا » ، دون أن يكونا قد جنيا ما يستوجب العقاب ! ولكنهما بعد أن تفتّحت لهما بالتفكير آفاق المعرفة ، كانا سرعان ما يجيبان على حيرتهما قائلين : ولكن متى كانت الأقدار تتخير ضحاياها من الآتمين ؟ وهل يكون لها في ذلك حكمة ؟ هل تعتمد البطش بالأخيار ، لتمحو بالآلم بقايا أوضارٍ أرلية مازالت عالقة بهم ؟ وهل من ثم يكون حتماً على المرء أن يدفع

دنياه ثمناً لهذا النقاء السرمدي ؟ إن كان هذا فما
أرجحها صفقة ! وعندئذ تسود الطمأنينة نفسيهما ، إلا
من صرخات لا بد منها كانت تنبعث منهما وهما تحت
مبضع الأقدار ، كتلك التي يرسلها مريض أسلم
نفسه للجراح برضاه .

...

كان ذلك حالَ العاشقين وهما يجتازان محنتهما .
على أن تلك اللحظات التي كانا يلتقيان فيها ، مهما قيل
إنها كانت تثير حولهما الغبار بنفش صبوتهما الدفينة ، طالما
سربت إلى روحهما شيئاً من البهجة ، لأنها كانت
الخيط الوحيد من الشعاع الذي يصلهما بماضيهما
ويذكرهما به .

وشاء لطف الله أن يضيف إلى هذا العزاء عزاء آخر
أشد جدوى ، راحا ينفثان فيه هواهما المكتوم . إذ
رُزق مختارٌ بطفل حوّل إليه جانباً من حبه . كما
علّقته زينات لأنها نشقت فيه عير حبيبها ، وعير
حبه لها وقد تسرب إلى الطفل مع دم أبيه . فكانت

الأوقات التي تجلس فيها لمداعبته وتدليله ، تُعَدُّ أسعد
الأوقات في أيامها الحزينة .

أجل ، كان هذا الطفل بمثابة نجمٍ سَبَّحَ في ليل
حياتهما فبعث فيه بصيصَ نور ، إن لم يَكُنْهُمَا عَثْرَةُ
السير ، فقد أعانهما عليه إلى حين .

الفصل العشرون

باء محرز بالخبيبة ، في محاولته غزو قلب زينات . كان
كلما طَرَق إلى قلبها باباً أوصدته في وجهه . فكأى
من مرة حاول أن يصيد نظراتها في نظراته فكانت تُغَضِي .
وكأى من مرة بَعَث لها بأخته زائرةً فما كانت تردُّ لها
الزيارة . ولقد اجتراً ذات يومٍ وأرسل لها معها وردة ،
ولكنها امتنعت عن قبولها وعادت إليه الوردة بحديث
قلبه الذي لم تُفَضِّ به . فلما أعيته الحيل ، عول على أن
ينال منها عن طريق الزواج ما لم يستطعه عن طريق الغزل .
فأوفد أمه إلى أهلها خاطبة .

ودخلت شريفة هانم على العذراء في معبدها تستطلعها
رأيها . ووسط سحُب البخور التي كانت تنعقد في جو
الغرفة ، طاويةً في تلافيها صور الحياة ، انبعث صوت
من فم الناسكة الصغيرة يقول في إصرار :
— كلاً .

وكان هذا رد الزهد على الدنيا ، التي لا تقفأ تقتمح
عليه حَرَمه وتناوشه ، ليقول : « لا » ، بعد أن تكون
قد استيقظت أشجانه .

وإذ لم تظفر السيدة من إقناع ابنتها بطائل ، لم تجد
بداً من أن استمهلت الخاطبة أياماً وخلت إلى نفسها تفكر
قبل أن تبت في الأمر الجليل الخطر .
وأنشأت تتساءل قائلة :

— كيف ترفض زيناتٌ من كان في شباب محرز
وجماله ؟

ورجحت أن في الأمر سرا ، ووجدت نفسها أمام
أحاجر . إذ ما لزينات إلى جانب رفضها الخاطب
تنفسك وهي صبيّة ؟ ما لها عافت نفسها الزينة فخلعت
حليها وصارت لا تلبس إلا خشن الثياب ولا تُبدي من
محاسنها ما كانت تُبدي ؟ ما لها تغلق على نفسها الأبواب
الساعات الطوال فما تجالس الناس إلا لِمَماماً ولا تخاطبهم
إلا بمقدار ؟ ما لها زهدت في صويحباتها فما عادت تزورهن
ولا تطير بهن إذ قد من ؟ وما لورد خديها قد غاض

ولجسمها تحل ذلك النحول الذي كشف عن عظمها؟
 ولوجهها اكتأب والعهد فيه بسام ونشأطها فتر
 وقد كان موفوراً؟ أجل ، ما لها سئمت كل شيء ، وبرمت
 بكل شيء ، وبدا عليها أنها مغتربة في هذه الحياة وكأنها
 ليست من أهلها ؟ ثم ما لكل هذه الأعراض تظهر فجأة
 غيب خطبة أختها لمختار ؟

وتطرق بها الفكر إلى موضوع هذه الخطبة ،
 فاستطردت في حديثها لنفسها :

— لادع أنها مربية لِمَا بين الزوجين من فارق ،
 ولأتساءل عما هو أعجب : كيف أدار مختار ظهره لزينات
 من بعد إقبال واتجه لأختها ؟ ولم لم يحدث هذا إلا بعد
 أن ساءت حال هذه الأخت ؟ ثم ما لمختار يغدو بادي
 السكابة بعد الزواج وكأنما لم يتزوج غير الهموم ؟ حقاً
 إنني لأمام الغاز . غير أنها الغازة إذا أخذت فرادى ،
 فإذا ما وُضعت بعضها بجوار بعضها فما أسرع أن
 تحل نفسها .

وأدركت المعنى الوحيد الذي رمز إليه أو هي

حَدَسَتْ بِهِ . وفزعت من فرط ما ينطوى عليه من هول ،
وتمنت لو أنها ماتت من قبل أن تدركه ، أوطلع عليها الصباح
فلم تجد نفسها .

وإذ أرادت أن تستوثق من ظنها علَّها تصل إلى أنه
أخطأ ، أو إنْ يَكُنْ صَحَّ تَفَكَّرَ فِي مَخْرَجٍ ، بعثت في
طلب مختار .

وعمدت إلى الحيلة معه في الحديث ، لتحصل منه
خلسة على ما يتحرز من التصريح به . فقالت له :
— إنها بشرى أزفها إليك . زيناتُ رَبَّةُ الحسن
مُخِيطَت .

ورفعت عينها إلى وجهه تتفرس فيه . ووجدته
ممتعاً فرجحت أن ظنها لم يخطئ ، وراحت تهمس في
سرّها :

— صدق من قال : يكاد المريب يقول خذوني .
أما هو فقد هتف بعد أن عقدت الدهشة لسانه
لحظة :

— مبروك ! مُخِيطَت لمن ؟

— لجارنا محرز .

فصرّ بأسنانه وقال :

— حسناً .

ثم أردف :

— وكيف قابلت الخبر ؟

فأجابت وقد ابتسمت في خبث :

— بما كان يُنتظر . جميع ما فيها ضحك .

وعادت تتفرس فيه .

لم يكن ذلك الموتور الذي أخذت تهش الغيرة قلبه
فحسب ، ولكن كان إلى هذا ذلك الوحش الذي اغتيل
غدرا . كان مظهره كمن طعن من الخلف فأساء الظن
بكل الخليفة ، وود لو فتك بها .

وبدا لها أن تفاجئه مفاجأة أخرى تكون الحاسمة .

فتمتت وهي تتصنع الأسف :

— ولكن أتدرى لم كان ضحكها ؟

— لم ؟

— كانت تسخر مني . لقد راحت تتعجب كيف

أعرض عليها زوجا كحرز . فهل رأيت كهذا تعنتا ؟
 أليس محرز شابا ووسيا ، وفوق هذا من بيت مجد
 ومهندسا ناجحا ؟

وغمغم وهو يتنفس الصعداء بما لم يدع مجالا للشك
 عند السيدة بأنه يحب ابنتها :

— وفيم البشرى إذن ؟

— ما كانت بشرى ولكنني كنت أتمكم ، أتمكم
 على خيبتى . على ابتلائي بهذه الابنة المغرورة التى ستتحس
 نفسها . ومن هنا لجأت إليك لأستعين بك على رأسها
 العنيد عساك تستطيع أن تلينه . فما رأيك ؟

وشعر بالخرج . غير أنه لم يسمعه إلا أن قال :

— سأبذل جهدى .

— بل أريد أن تقول إنك ستنجح .

— ولكنك تعرفين رأس زينات وكم هو صلب .

وفهمت مداورته فقالت له وقد اصطبغت لهجتها

بصبغة الجد :

— رفقاً بالفتاة يا مختار !

ثم نظرت إليه نظرة ذات معان .

وصمق لنظرتها فهتف :

— ماذا تقصدين يا عمتاه ؟

وعادت تقول في لهجة أشد صرامة :

— ماذا بينك وبينها ؟

وأجاب وهو يُسـمِغ ريقه :

— ماذا بيننا ؟ أيسكون إلا ما بين الأخ وأخته ؟

— ولم غرتَ عليها كما لو كانت زوجتك ؟

— عمتي !

— صه يا مختار . ولا حاجة بك إلى أن أقول أكثر

من هذا ، ولا بى إلى أن تفضى بما عندك . فلتبق الأسرارُ

مصونة في حرمها دون أن يחדشها البوح ، وكفانا أن

فهم أحدنا الآخر .

— ولكنك ...

فقاطعته قائلة :

— لا فائدة من الكلام . إن كنت على استعداد

لأن تعمل شيئاً — وما إخالك إلا كذلك — فاذهب

وَأَنْقَذَ الْفَتَاةَ كَمَا أَنْقَذْتَ أَخْتَهَا ، وَكُنْ ذَلِكَ النَّبِيلَ الَّذِي
كُنْتَهُ مِنْ قَبْلُ .

— رَحِمَاكَ يَا عَمَّتِي ! وَمَنْ ذَا نَبِيَّاكَ بِهَذَا ؟

— نَبِيَّائِي بِهِ مِنْطَقُ الْحَوَادِثِ . وَمِنْطَقُ وَجْهِكَ
وَهُوَ يَعْقِبُ عَلَى كَلِمَاتِي . وَأَلْفُ لِسَانٍ وَلِسَانٍ غَيْرِ هَذَا
وَذَاكَ . لَقَدْ كَانَ كُلُّ مَا حَوْلَى أَلْسِنَةِ تَفْشَى سِرَّكَ .

وَهْتَفَ وَهُوَ لَا يَعْلَمُ أَنَّهُ يَكَادُ بِذَلِكَ يَنْمُ عَنْ نَفْسِهِ :

— وَهَلْ عَلِمْتَ جُلْفِدَانُ ؟

ثُمَّ لَمْ يَلْبَثْ أَنْ فَطِنَ إِلَى خَطْئِهِ ، فَجَعَلَ يَصْنَعِي وَهُوَ
مَطْرُقٌ خَجَلًا إِلَى جَوَابِ زَوْجَةِ عَمِّهِ الَّتِي رَاحَتْ تَقُولُ :

— كَلَّا لَمْ يَعْلَمْ إِلَّا أَنَا فَاطِمَةُ . فَجُلْفِدَانُ فِي شَغْلٍ

عَنْ أَخْتِهَا بِنَفْسِهَا . وَأَبُوهَا لَمْ يَعُدْ يَهْتَمُّ إِلَّا بِالْقَضَاءِ عَلَى
مَشْكَالَةِ الْجُوعِ . أَمَّا أَنَا وَمَا لِي شَاغِلٌ غَيْرُ زِينَاتٍ ، فَقَدْ

كَانَ كُلُّي عِيُونًا مُنْتَبِهَةً وَأَذَانًا صَاعِيَةً لِمَا يَجْرِي حَوْلَهَا .
فَازْهَبْ لَتَنْقِذَهَا وَلَا تَتَرَدَّدْ ، فَإِنَّهَا تَسِيرُ إِلَى الْمَهِاوِيَةِ .

تَسِيرُ إِلَى الْجَنُونِ . وَلَيْتَ شَعَرِي مَاذَا يَجْدِيكَ حَبِهَا إِنَّ

هِيَ نَسِيَتْهُ يَوْمًا مَعَ عَقْلِهَا ؟

فهتف وقد أحس كأن سكّيناً تغوص في أحشائه ،
أو حجراً يهوى عليه :

— ماذا ؟ زيناتُ تسيرُ إلى الجنون ؟

— أجَل ، فلقد قلّ كلامها وكثرت صلواتها .

وذاك لعمري نذيرُ سوء ، أن تتنفسك فتاةً في صباها .
فالنجدة يا مختار ! يا مَنْ أنقذتَ جلفدانَ ولم تكُ تحبها !
ها هي ذى زيناتُ حبيبتك ، تقع في المكروه نفسه
وتطلب إليك العون . مسكين ! إني أعلم أن عبئك عظيم .
وأنه يتطلب من البذل مثل ما بذلتَ لجلفدانَ وأكثر .
إذ عليك اليومَ أن تتنكر لمن أحببتَ لتنساك . عليك أن
تظهر أمامها بمظهر الخائن ، الذي يقول لها : لقد نسيتُك
فانسيئني . فيما مضى قد ضحيتَ من أجلها بأملك ، ولكن
عزائك كان أن نقشتَ صنيعك في قلبها . أما الآن
فستمسك الممّحاة بيدك وتمحو سطوراً فيه كتبتَها
بدميك . وعندئذ لن تبقى منها سوى أخلاط ، كلُّ
منها يحمل لك في نفسها صورة مشوهة .

وأطرت قليلاً ثم عادت تقول بصوت هادي :

— هأنذا يابني قد أوضحتُ لك الموقف ، وتركْتُك
لتختار بين رأى زيناتَ فيك وزيناتَ نفسها . واعلمُ
أنك وإنْ محوتَ لك صفحةً في قلبها ، فستدوّن لنفسك
في قلبك صفحات . أجَل ، لن يكون على وجه الأرض
أعظم منك في نظر نفسك .

وقال مختارُهُ بعد أن أمضى وقتاً غارقاً في التفكير :
— ولكنْ أواقفةُ أنتِ من أن تنكُرى لها
سينسيها هواي ؟

— نعم ، فالحب طائرٌ يموت إذا احتبس في قفصه .
لا بد للحب من جوٍّ يطير فيه ويتنفس ، وهذا الجو هو
فكر المحبوب . فإذا ما أُقصِيَ عنه ، رُفِرَ مرةً أو
مرتين ثم اختنق فمات . ولسوف يرفرف الحب في قلب
زيناتَ وكما لم يرفرف من قبل ، عندما تطرده من سمائك .
فلا تياسُ وتحسبِ الروح فيه ، فتلك رفرقة الذبيح قبل
أن يُسلم الأنفاس .

وأمام جزع مختارِهِ على زيناتَ ورغبته في إنقاذها ،
وبالرغم من هول الموقف الذي كان بسبيل أن يضع نفسه

ويضعها فيه ، لم يتردد في أن هتف :

— حسناً يا عمتي . إني سأختار زيناتَ دون رأيها
في . ولذلك سأححو نفسي من قلبها .

وهكذا ألقى سلاحه وانسحب من المعركتين :
معركة الجدل الذي نشب بينه وبين عمته ، ومعركة
الهُوى .

أما شريفةُ هانم فقد هتفت والدموع تترقق في
عينها .

— يا أنبلَ من رأيت !

فاستدرك :

— لا تحسبي . فزيناتُ قد علمتني النبل من قبل .

— كيف ؟ أترأها هي التي دفعتك إلى الزواج

من جلفدان ؟

— أجل هي بعينها . نزلت لها عن الكأس التي

لا تظفر بها الشفاهُ في العمر إلا مرة .

— لله درها ! غير أنك ما زلت أنبل . هي كانت

وراءها أختها .

— وأنا كانت حبيبتى ورأى . هى منى أعظم .
 وسادت لحظة صمت . وكأنا طافت بالمكان سحابة
 من جلال أخذت تخاطر فى موكبها الفخم ، وتطوى فى
 عظمتها كل شىء حتى الحب . فشعر مختار لثانى مرة فى
 حياته بأن هناك ما هو أسمى من الهناء ، ذلك أن
 يكبر الإنسان بنفسه حتى يملأ بوجودها الأرض
 والسماء . ولكنه والأسفا لن يكبر بها حتى يذلها
 أولاً للخطوب .

وفى الوقت الذى كانت فيه شريفة هانم ترقب وهى
 مأخوذة سحابة الجلال السابحة ، والبطل الكبير الواقف
 تحتها وقد توجت هامته ، قطع الصمت السائد صوته
 يقول :

— والآن يا عمى . اتركى لى الليلة أفكر فيما سأقوله
 لها . وغداً إن شاء الله ، أرجو أن آتيك بنتيجة طيبة .
 — كما تريد . لكن لا تبج بما دار بيننا لأحد
 حتى لعمرك . فما أظن أن أعصابه باتت تحتل صدمة
 جديدة . كان الله فى عونك ! إنه منذ اضطلع برسالته ،

لا يفتأ يذوب كالشمعة التي تحترق لتضيء للناس .

— لا بأس . إلى اللقاء .

وقبّل يدها وانصرف ، وهو مصعوقٌ بتلك المفاجأة التي توقّع كل شيء إلاّها . له الله ! لا شيء يريد أن يبقى له . حتى حبه الأثيري ، أبتنه عليه الأقدار .

...

وفي حجرته جلس يفكر : غداً تنقُمُ عليه زينات ، وما أراد بها إلا إحساناً . غداً لن تنقش اسمه في قلبها ، بعد أن بقيَ منقوشاً فيه سنين . غداً تنساه ويظل يذكّرها وحده ، وإذا طائرُ الحب شدا وحيداً ناح . ولكن كيفما كان الأمر فلا بد من إنقاذها . مَنْ كان ضحّى من أجلها بالروح ، أياضنٌ عليها بالذّمّاء ؟ فلستأخذُه كذلك ، وليكتفِ بالتاج الذي تضعه البطولةُ على رأسه . ذلك التاج الكائن في السحاب ، والذي لن يظفر به المرء حتى يتناول بهامته إليه ، متسلقاً في سبيل ذلك جبال الصعاب .

...

- فلما طلع الغدُ قصد إلى منزل حبيبته ودخل عليها .
وبادرتَه حالمًا رآته قائلةً وكأنما تشكو إليه :
- لقد جاءوني بخاطبٍ يا مختار .
فقال وهو يرثى في نفسه لبراءتها :
- وفي هذا جمُّتك .
— لكن اطمئنْ فلقد رفضتُه
— ما لهذا قصدت .
— وفيه جمُّتَ إذن ؟
فقال يسقيها السمَّ في شراب :
- لأنصحك بأن تقبله . أجل ، يكفيك شقاء .
فهتفتْ وقد اكفهر وجهها :
- ما هذا الذي تقول ؟ أخذتُك بي شفقة ؟
— ولم لا تأخذني ؟
— ولكنك تهينني . تستصغر حبي وتستعكث
التضحية عليّ .
— أيُّ حب وأية تضحية ؟
— مختار !

واستطردت :

— إنك تتكلم كمن يتجاهل ما بيننا .

— وماذا بيننا ؟

فشبهت وقالت :

— حبنا . أنسيته ؟

— حبنا ؟ ما هذا الحديث القديم ؟ قولي السلام

على ذكراه .

— ويحك ، ماذا تعني ؟ أمتَ هو حتى يصبح

ذكرى ؟

— هببه مات ، أفلم يكفَّ عن سقيه الأمل ؟

فلم تزد على أن صرخت :

— واهاً لي !

ثم خرت تبكي . فقال لها :

— أمّا كففتِ ؟ ما جدوى التسريح بذكري

أشياء فانت ؟

ولم تُلقِ بالاً إليه . وعادت تقول وصوتها يتهدج :

— ماذا قلتَ بربك ؟ أمتَ هو وأصبح في قلبك

ذَكَرَى ؟

— نعم ، والعُقْبَى لَهُ عِنْدَكَ . ماذا وَقَدْ نَفِدَ
الصَّبْرُ إِلَّا النِّسيانَ .

واستطردت وكأنا لم تسمعه :

— أَمَاتَ إِذْنَ ؟ أَوْ مَا يُمْكِنُ بَعْثُهُ ثَانِيَةً ؟

— ها ! وَهَلْ يُبْعَثُ الْمَوْتَى ؟

ومضت في تساؤلها :

— أَلَمْ تَعُدْ تَسْحَرُكَ عَيْنَايَ ؟ وَفِي ، أَلَمْ يَعُدْ
يَسْمِيكَ ؟

— كَلَّا ، وَحَبِّذَا أَنْ بَطَلَ سِحْرُهُمَا فِي قَلْبِي .

— وَلَمْ ؟ أَلَمْ أَحْفَظْكَ عَلَيْهِمَا أَنْ سَاءَاكَ ؟ أَمَا

زَلَّتْ تَذَكُّرُ جَنَائِتِهِمَا عَلَيْكَ ؟

— أَجَلْ ، وَحَسْبِي مَا ذَقْتُ مِنْهُمَا .

— وَلَكِنْ رُوحِي ، هَذِهِ الْأَشْعَةُ النَّقِيَّةُ الَّتِي لَا

تُؤْذِي ، أَلَا تَبْقِيهَا فِي جَوَارِكِ ؟

— وَلَا هَذَا . مَا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ بَيْنِي وَبَيْنَ زَوْجَتِي

دَخِيلٌ .

فلم تمالك أن صرخت بمرارة :
 — أنا ؟ أنا دخيلة ؟
 وأنشأت تـيـئـن .

وندم مختار . لقد فاته أنه بتنكره لها لا ينقذها
 بقدر ما يجمعها في أقدم ما عندها . ولكنْ هي الشفقة ،
 تأتي أحياناً بعكس المقصود . وكاد أن يكشفها بالحقيقة ،
 لولا أنه أمـلَ في أن تنسى حينما يزول أثر الصدمة .
 أما هي فقد استمرت تقول وقد أبـحـثت صوتها
 ذبحة الألم :

— أنا دخيلة ؟

وتتلفت حولها كأنما تستشهد بكل شيء .

ثم هتفت :

— أنا فسـحـتُ لها في بيتي . أنا كنت ربّة الدار
 التي شاركتني سيادتها ، فهل أُسمّى دخيلة ؟ شكراً
 يا مختار ! إنك حطمت لك صنما في قلبي ، كم كنت أفزع
 إليه إذا افتقدتُك وأنا وحدي في الليالي فلا أجـدك ،
 فأبـثـك في شخصه شكواي ، وأناجيك فيه وأعبدك .

ثم استطردت كمن تناجي نفسها :

— فلماذا ياربّي ؟ حتى الصنم ؟ حتى الظلال التي بقيت من الحقيقة لي ؟ حتى أصداء أغنيّتي المائتة —
تؤخذ مني ؟ يا لي من مسكينة ! لن يعمّر قلبي شيء بعد الآن . ولن تعيش فيه إلا أنقاض أرزح تحتها .
وخاوية ستصبح حياتي في ظل قلبي الخاوي . وخراباً سأراها من خلال هذا الخراب . فيا بدّس ما صرتُ إليه وصارت حياتي ! ويا نعم ما تفعلُ يا موتُ إن أنت أرحمتني !

وراحت تبكي وتنتحب ، ومختارٌ واقف أمامها يتجلد ،
وفي كل لحظة يكاد لسانه يفلت بالحقيقة .

وكانت وهي تبكي تحس لأول مرة في حياتها بأن
كبرياءها قد جُرحت . وبأن الذي جرحها مختار . مختارٌ
الذي عبدها ذات يوم . ألا بدّس الذنب الكفر بعد
الإيمان !

وللحال وثب إلى ذهنها محرز . كمنقذها الوحيد من
هذه المحنة ، الذي سيضع المرهم على جرحها . فرفعت

وجهها إلى مختارٍ وقالت له :

— حسبك الله ، يا مَنْ سرقتَ تمثالِي وخرّبتَ
معبدِي ! ولكن اذهبْ به إلى غير رجعة ، فما عادت بي
حاجة إليه . غداً سأقيم بصدرِي تمثالاً خيراً منه . تمثالاً
لا ينسلُّ صاحِبُهُ هارباً به كما انسلتِ أنت . تمثالاً
لا ينوءُ إِلَهُهُ بعبءِ اضطلمتْ به امرأةٌ مثلي . لله أنت
يا محرز ! على الرغم من صدّي لك لم تنسني ! ولا تنسك
عن حبي العقبات ! غداً سيهبط معبدِي تمثالٌ لك . في
حفلة باهرٍ وسط التراتيل والطُّقوس . وسأجمل منه
صنمي المعبود .

ثم رمتَه بنظرة ازدراء ، وغادرت الحجرة وتركتَه
وهو يكاد يموت قهراً . كان يمثّل أنطق صورة لظلوم .
وكان إلى هذا ذلك الحبيب الذي لسمته الغيرة بنارها ،
فأصبح وكل عضو فيه يستغيث .

وإذ كان ما يزال عليه أن يؤدي حساباً عن مدى
نجاحه في سحق نفسه ، فقد راح يزف بشرى محنته إلى
شقيقة هانم . فلما لقيها هتف :

— مثلت دورى يا عمى بنجاح ، وآتى ثمره . لن
 ترفض محرزاً زينات .
 ثم أخذ يروى لها ما حدث ، وهى تنصت إليه معجبة
 ومشفقة .

فلما انتهى من حديثه قال لها :
 — ولكن لا تقايحها الآن . واركى لها بعض
 يوم تستجم فيه .
 وشد على يدها وانصرف .

...

وبعد أيام لبست السيدة ثوب الفرحة ، وهولت
 تستقبل به رأى ابنتها الجديد . ولكن البنية رفضت
 وأصرت على الرفض ، وإذا بالأم ترجع وقد انقلبت أذيال
 فرحها أغلالاً تتعثر فيها .

ذلك أن زينات كانت عندما خلت إلى نفسها
 وتذكرت محرزاً ، لم تلبث أن نفرت منه وطردته من
 ذهنها . على حين أخذ يتعالى صدرها بوجيبٍ مَدَوٍّ عجبت
 له . فلما تحسست موضعه شهقت وانثنت تهتف فى ضنى :

— ويلاه ! ماذا لمسَتْ يَدِي ؟ مختاراً ؟ نعم ،
 هذا تمثاله ، يا لله لمْ يتحطم ! وإن كان قد تدشّر برداء
 أسودَ حجب عني قسّماته ! ولكنه باق ! باق لا يريد أن
 يتزحزح لغيره ! لقد حسبته ذهب بأحزانه ! ليته فعل ،
 فما عدت أطيعه من خلال هذا السواد !
 ولكنها لم تلبث أن استدركت :

— رباه ، ماذا قلت ؟ لقد كَفَرْتُ بصنمي ، وما
 ينبغي . نسيتُ عباداتي الماضية له . ونسيتُ نِعَمَهُ
 عليّ . أيها الصنم لأنّك معبودي رضيتُ أو غضبتُ وأنا
 أنا كاهنتك . اغفر لي ! ودعني أطوّف بك وأنشيد
 التراتيل . وأحسّسك بيدي وألمسُ بركاتك . ثم ...
 ثم أجتو عند قدميك وأعبّدك .

وهكذا أيقنت أنه من المستحيل أن تنسى حبها
 الأول ، لتفتتح لبّ جديد . لقد كان حبّاً واحداً ذلك
 الذي نبّت في قلبها ، وإنها لتؤثر أن تحتفظ بزهره
 الذابل الذي يحمل عطر الماضي ، على أن تستبدل به ألف
 زهرة ناضرة وزهرة ، لا تنفحها بهذا العطر . وكان

نجماً واحداً ذلك الذى طلع فى سماء حياتها ، وإنه لمّا
 يزال على رغم الغيوم يبعث إليها ببصيصه من وراء السحب ،
 كأغلى — بما يحمل من طيف السنين — من شعاع
 أسطع كوكب . فعادت ترفع الغطاء عن زهرها القديم وتشم
 عبيره الواهن . وترنو لسكو كهها الخابى من خلال الغيوم
 الملبدة . وكلما اشتد بها الوجد بكت على قسّمتها .

. . .

وكان إصرارها على رفض محرز مفاجأةً لوالدتها
 جعلتها تسيء الظن بمختار . فلما أقسم لها على صدق
 روايته ، ودل على ذلك بازورار الفتاة عنه ، اطمأن بالها
 وقالت له :

— إذن ما ينبغى أن تقنط ، فما كان حبُّ أعوام
 ليُنسى بين يومٍ وليلة . فابق على موقفك منها . ولئن
 رفضت اليوم محرزاً فقد تقبل غداً سواه .

. . .

ومنذ ذلك اليوم قلّت زيارات مختارٍ لمنزل عمه ،
 واتسمت نظراته وكلماته لزينات بطابع الجفاء . فكان

لهذا المسلك الجديد من جانبه نحوها ، صداه النائح في قلبها
المشوب ، مما ضاعف شجتها وجعلها بالشفقة أخرى .

أما محرزٌ فما إن يئس منها حتى نقل سكنه من
جوارها لعله يلقي في البعد عنها السلوان . وكانت درية
لا تفتأ تمنّيه بنسيان وشيك ، ما دام أن جبل الأمل
الذي يربط الحب قد انقطع . وتضرب لذلك مثلاً
نفسها إذ نسيت مختاراً بعد أن تزوج .

الفصل الحادى والعشرون

مرت السنون وزيناتٌ ملتزمةٌ عزلتها ، باقيةٌ عند
رأيها فى أن لا تتزوج ، حتى فاتها سن الزواج وأصبحت
عائسا .

وما إن صحّت من غفلتها على هذه الحقيقة ، ورأت
شبابها ينحدر إلى المغيب وجمالها يذبل ، حتى ساورها
القلق على نفسها ، وبدأت تندم على ذنبٍ اقترفته فى حق
هذا الشباب ، ولم تكن مخيرة فى اقترافه . ولا عجبَ إن
حسّت لجمالها زاهدة . فما كان الزاهدون لِيَتَنَسَّوْا الدنيا
وإن بادلوها قطيعةً بقطيعة . لهذا كانت كثيرا ما تنظر
فى المرأة وتناجى نفسها وتقول :

— أيتها الزهرة التى وهبتْ عطرها للرياح ! ها قد
انقضت أيامك ، فمن ذا سَمَلَ من عطرك الجميل غيرُ ريحِ
النسيان ؟ هل قدَّمَتْهُ لعايرٍ سبيلٍ جاء يقطفك فى
الصباح ؟ هل مَزَجَتْ أنفاسك بأنفاسه وذبتما معاً فى

هذا المزيج؟ وارحمتهاهُ للزهور العَوَّانس! اللواتي
 قضَيْنَ شبابهنَّ وحيدات، وعندما ذُبُلْنَ نُسَيْنَ!
 حدَّثني القومُ عنا غداً يا رياح، وأخبريهم أنه كان لنا عطرٌ
 وذهب، وسَنَّا على أوراقنا مات. طوبى لأزهار
 البُكور! اللواتي لم يُنْسَيْنَ بَعْد! اللواتي يرقبن
 القاطفين وكلَّهنَّ أمل!
 ثم تخنقها العبرات فتبكي.

وكان مما يزيد في شقاءها بقاؤها على حب مختار. فلکم
 حاولت أن تسلوه متدرة بينها وبين نفسها بما بدر منه فما
 كانت تفلح. ولعل ذلك كان يرجع إلى اعتقادها بأنه
 ما نسيها غداً منه، وإنما لأنها أَمَات قلبه، فنسى في
 سُبَّاته كل شيء، ونسيها فيما نسي. فكانت لا تكاد
 تصل إلى هذه النتيجة حتى تأخذها الشفقة عليه، وتعاتب
 نفسها على أنها تسببت في هدم حياته عتاباً تخرج منه
 مثقلة الضمير.

وإذ كانت برغم ما شاب علاقتهما من جفاء. ترقب

تطوراته من بعيد مدفوعة بحبها له ، لم يكن ليغيب عنها
كلما رأت وجهه الذي بدأ يتفضّن وشعره الذي راح
يتخلله الشيب ، أنه قد أدركه مثلُ المصير الذي أدركها ،
وأنهما يسيران إلى النهاية جنباً إلى جنب ، كورقتي غصنٍ
جرفهما تيارٌ واحد ، ليلقي بهما إلى شاطئ الفناء .
وعندئذ ما تلبث أن تذوب حسرة عليه كما ذابت على نفسها
من قبل .

وهكذا كان كل شيء في الحياة ضد زينات . حتى
مختار نفسه ، كانت رؤيته تثير شجنها ، وتذكّرها بصباه
الذاهب الذي فتنها ذات يوم . حتى وجهها الذي كان
يلازمها دوماً ، كانت ترى فيه حُطام جمالها القديم .
فوجدت أن كل ما كانت تعتر به ، قد تحول إلى ذكرياتٍ
نائية ، تفصلها عنها هوةٌ سحيقة من الزمن ، كلما حاولت
أن تعبرها إليها سقطت فيها وتحطمت روحها .

ومن ثم ازدادت إيماناً بالفكرة التي انتهت إليها من
قبل ، وهي أن خير وسيلة للتخلص من آلام الحياة ، هي
نسيانُ هذه الحياة وإغراق كل شيء معها . وهو

ما لا يكون إلا بالتحصن منها في كهف بعيد ، أو التطوع
للعمل في ملجأ أو مستشفى تتركها عند بابه وتغلق
الأبواب . ولكن كيف السبيل إلى تنفيذ هذه الفكرة ؟
ذلك ما كانت تُعوّزها الإجابة عنه ، فترتد يائسة .
مسكينة زينات ! حتى النسيان الذي يُلحِق الإنسان
بالأموات ، بات عزيزاً عليها .

...

وكأنما لم تَقنع الأقدار بما أحدثته في قلبها من جراح ،
فسددت إليه طعنة جديدة بأن خطفت منها أباهما المحبوب .
كان هذا الأبُ مذ جنى على مصطفى يعيش سقيم
الوجدان . وكان إلى جانب ذلك فريسة لهم من جرّاء
ما طرأ على زينات من تحوّل هدم حياتها وحرار في
تعليله . ومما زاد من كربه أنه كان يعدّ نفسه مسئولاً عن
نكبتها . كان يظن أن ما أصابها ما هو إلا انتقام صَبّه
الله عليه في شخص ابنته ليشار لمصطفى ، جرياً وراء تلك
العقيدة التي تقول بأن الإنسان يعيش مرة أخرى في
أولاده ، ومن ثمّ فأعماله تبقى لهم في حياته ومن بعده .

ولم يكن يعقد الهدنة بينه وبين ضميمه ، إلا عمله
مخلصاً لخير الشباب البائس ، وشعوره بلذاذة التكفير وهو
يضطلع بهذا العبء الشاق . ذلك أنه كان قد وصل إلى
مركز في الحكومة من شأنه أن يضع مقاليد الأمور في
يديه ، فوجد الفرصة سانحة لتحقيق الإصلاحات التي
طافت بذهنه عقب أن غاب مصطفى فشرع بالعطف على
الجائعين .

وبدأ العمل بأن جمع حوله طائفة من الأنصار ، من
بينهم الكثيرون من ذوى الألسنة الذريرة من الخطباء ،
والأقلام الجهيمة من الكتاب . فكانوا يمهّدون بالدعاية
لكل خطوة يزعم أن يخطوها ، ثم ينبرون للدفاع عنها بعد
أن تتم ، ليقضوا على تحرّصات المغرضين الذين كانوا
لا يكتفون عن السعي بالوقية بينه وبين الشعب .

ولكم عانى من عنّت أولئك الجشعين الذين يهتمهم
أن يبقّى الماء عكراً ليصيدوا فيه ، ولكنه كان دائماً
يتغلب عليهم بدهائه ولباقته . على أن عاضده الأكبر
كان عدالة الفكرة التي أخذ نفسه بالعمل على نصرتها ،

وتأييد الرأي العام الذى جاءت رسالة الباشا معبرة عن أمانيه .

ولما كان هدفه الأول هو أن يفسح فى مجال العمل لكل راغب فيه ، فقد كانت باكورة إصلاحاته أن زاد عدد وظائف الحكومة ، بعد أن دبر المال اللازم لذلك مما اقتصده من المرتبات الكبيرة . كما حَظَرَ الجمع بين أكثر من طريق واحد للكسب ، لئلا يكون تكدُّس الأرزاق فى أيدي البعض سبباً فى حرمان الآخرين .

وكان سنده فى ذلك أن العمل وهو وليدُ تضامن الجميع ، يجب أن يقسَّم على الجميع ، فإن وَفَّى بحاجاتهم فيها ، وإلا فمن مقتضى التضامن أن يستوى الكلُّ فى تحمل التبعة .

ومن هنا جاء قوله :

— كما أن على الفرد واجباً هو أن يتقدم للعمل ، فإن على الجماعة واجباً هو أن تتقبل منه ذلك ، مادام الربح لا يوزع إلا على من يعمل ، ومادام الفرد بحاجة إليه ليعيش .

وقوله :

— لو أن الفرد تَرَكَ شأنه ولم ينضم إلى جماعة ،
لأصاب الكَفَافَ على الأقل بمحض جهده ، ومن ثم
لا يمكن أن يكون قد تضامن معها لتجميعه .
ثم كلمته الماثورة :

— إن الناس ما تضامنوا إلا ليعيشوا ، فيجب أن
نكفل لهم العيش ليظلوا متضامنين .
وكلمته التي كانت فصل الخطاب :

— إن من حق الجميع أن يعملوا تمهيداً لأن
يأكلوا .

ولقد تساءل ذات مرة قائلا :

— لست أدري لمَ تَحْصِي الجماعاتُ المالَ وتغفل
طرائقَ كسبه ؟ ألا يجدر بها بدلاً من أن تَقْنَع بالظهور
في منتصف الطريق ، أن تبدأ تدخلها حيث يبدأ الحق ،
فتنظِّم توزيع فرص العمل قبل أن تتحول إلى نقود ؟ أفلا
يُعتبر اغتصاب هذه الفرص اغتصاباً للأرباح التي تتمخض
عنها ، ومن ثم تصبح حمايةُ الثانيةِ لغواً ما لم تسبقها

حماية الأولى ؟

وكان يضيف :

— ومن مزايا زيادة العمل تخفيض ساعات العمل ،
وبذا يتاح للفرد أن ينعم بفراغ أوسع . والفراغ هو الغاية
من العمل ، لأن الإنسان بعد أن يكفل حياته من ثمرات
ما يُنتِج ، يحتاج إلى استجمام يشعر فيه بها . وبدون
هذا الشعور لا يكون قد عاش في نفسه . ومن لم يعيش
في نفسه خرج وجوده من يده . إن الذين يستغرق
الجهد يومهم يعبرون الحياة كما يعبرون حلاماً مهوَّشاً
لا يصححون منه إلا على دقائق ناقوس عزرائيل . فهم
في سبيل الجشع يجمعون ما لن يهنأوا به .

وعندما أخذ عليه خصومه أنه في سبيل أن يطعم
الجوع يضرب الفقر على الجميع ، أجابهم :
— ليكن ، فلأن يَأْكُل الجميع خبزاً فقط ،
خير من أن يَأْكُل بعضهم حلوى ويبيت الآخرون على
الطوى .

فلما واجهوه بأن المصلحة العامة تقتضي إيجاد طبقة

ممتازة تأخذ بيد الجماعة وتصعد بها معها ، قال لهم :
 — ليست الجماعة كائناً قائماً بذاته ، بل هي أولئك
 الأفراد الذين تعيش فيهم . فكل خير لا يعمهم ليس
 معناه أنه أصاب الجماعة ، بل أن طائفة منها كانت بمثابة
 غلب القط ، وأن الأخرى سحبت به أبا فروة من النار .
 وتلك هي الخديعة الكبرى التي تدخلها الطائفة الغالبة على
 الطائفة المغلوبة باسم الجماعة .

على أنه راح يحقق الرخاء لا من طريق تكديس
 أقوات الشعب في يد فئة منه ، ولكن من طريق إنعاش
 الإنتاج بزيادة وسائله . وتذرّع إلى ذلك بإئصال الموسرين
 بالضرائب ، ففرضها عليهم تصاعديّةً تزداد نسبتها كلما
 زاد الدخل .

وكان يسوّغ عمله بأنه ليس من العدل أن تقنع الدولة
 من المُتخَم بما تقنع به من الجائع . وفي ذلك قال :
 — إنما الحرمة للرجيف الأول . وكلما بعُدتْ الأداة
 عن دائرة القوت ضعفت حرمتها بضعف الحاجة إليها .
 يجب أن يدفع الأغنياء ما بَرِحَ الدفع لا يؤدي بهم إلى

الجوع . وبدون هذا لا نكون قد أخذنا منهم بل
 أعطيناهم . أعطيناهم ما كان يجب أن نأخذه . على حين
 نكون قد أخذنا من الفقير . وما ينبغي أن نعطي مَنْ
 عنده ، وَمَنْ ليس عنده نأخذ منه . فذلك الكفاف
 حقٌّ يجب احترامه ، قبل السماح للهمين بمَلء بطونهم .
 حقٌّ يولّد المرء مع المرء ، ما دام أننا نولّد لنواصل
 البقاء ، لا لنموت في مهدنا .

فما إنْ أيقن الطغاةُ أنْ لا مَفَرَّ ، حتى توسلوا إليه
 قائلين :

— لا تفعلْ ونحن نتبرعُ من فضلنا للفقراء . لن
 نرقد على أموالنا منذ اليوم كأنها بيضٌ بضناه . ولن
 نوصد آذاننا دون سماع صرخات الجياع .
 غير أنه صاح فيهم :

— حاشا أن آخذ حق أمّتي صدقات ، وأجعل من
 بنينا شحاذين . بل ستمدفعون ما حقّ عليكم لها ضرائب .
 ونفّذ فيهم قانونه . فدفعوا ودفع معهم وقد كان
 منهم . وبذا كان أحد أولئك القليلين الذين عملوا ضد

مصلحتهم ليحققوا الحق .

وكانت زيناتُ التي أحبت الفقر ذات يوم في شخص العاشقين اللذين اعتادا المرور بها في السنين الخالية ، عندما رآته وهو يطل من ثيابهما الوديعه كملك رحمة ، لا تقفأ تشجع أباهما كلما هبَّ ليأخذ بيده ويخفف عنه بعض أثقاله ، ضنا به أن يزهرق مع حامله فتنفق الدنيا وجها من أجمل وجوها . وكذلك طالما شجعتة على عمله شريفة هانم ذات الضمير الحى والطبع الأصيل . فكانت كل خطوة جديدة يخطوها المصلح للترفيه عنه ، تكون لديهم بمثابة يوم عيد .

وهكذا مضى الباشا في رسالته يدفعه شبحُ مصطفى وتشجعه زوجته وزينات ، حتى آتت ثمرها وشبع قومٌ عندما خلقهم الله خلق معهم رزقهم . وحينئذ هتفت له الجماهير طويلا ونقش التاريخ اسمه في لوحة بحروف من ذهب . وما كان الفضل إلا لذلك الجندى المجهول مصطفى ، الذى شاءت الأقدار أن تضحي به لتتخذ ضمير قاتله . فلما تم للمصلح ما أراد وكللت مساعيه بالنجاح ،

ركع لحظةً أمام قبر الجنديّ المجهول ، ثم نام ساعةً
 حضرته الوفاة مطمئن النفس ، إلا من جرحٍ غزٍ على
 الشفاء ، هو ألمه على زينات الشقية . فكان هذا الجرح
 بقية الانتقام الذي يتعقب الإنسان إلى القبر ، ليستوفيه
 ما بقيَ في ذمته من تكفير .

...

وحزنت زيناتُ على أبيها حزناً جماً . وكانت من
 فرط حزنها تقصد إلى قبره وحدها كل صباح ، حيث
 تضع عليه طاقات الزهر ، وتجدُّ في أحجاره المَبْكِي
 العذب الذي تجود فوقه بعصارة روحها . ولعل هذا
 الحزن البالغ ، كان نتيجة لركة حسنها الذي طالم أرهفته
 الآلام .

ولكنها كانت ما تكاد تعود أدراجها وتستقبلها
 الحياة ببسمتها المرحّة ، حتى تزداد مقتناً لها . إن هذه
 الحياة التي لا تعترف بالحزن ولا ترعى المحزونين ، تأبى أن
 تفارق ثغرها بسُمته الأبدية ، فكلمها أرادت أن تفرغ
 لحزنها خلف أثواب الحداد السود ، نفذت خلالها بهذه

البسمة البغيضة ، وراحت تنتهك حرمة الحزن الثاوي
تحتها . وعندئذ لا تملك المحزونة إلا أن تهتف في حنق :

— تبا لك أيتها الحياة ! لا بد أن أفر من وجهك

إلى صومعة نائية تحجبك عن عيني . ولم يبقَ ما يمنعني
من ذلك . فخلفدانُ التي كنت أخشى أن تكشف السر ،
قد قدّم على زواجها العهد ، فلن تجد صلة بينه وبين
فرارى . وأبى الذى كنت أحسب حسابه ، لم يعدْ
له والأسفا ظلُّ أخشاه . لقد تخلّى عن كل شيء ،
وأصبح فى ذمة العجز الأبدى الذى لا يستطيع معه أن
يملى إرادته على أحد . ليتّه عاش ، وظل يقضى فى أمرى
ويُبرم ! أما أمى ، أمى المسكينة ، فذئبت منى تركتْ
لى الحبل على الغارب ، وانثنت إلى نفسها تندب حظها فى .
فما أحسب أن بُعدى عنها سيضيف إليها كارثة جديدة ،
أذما الضرر من طعن الميت مثنى وثلاث وأكثر ؟
وهكذا اعتزمت زينات هجران الحياة ، ولم يبقَ إلا
أن تبحث عن منفى . ووفقت بقليل من الجهد إلى
مشغل لليتامى وجدت فيه ضالتها المنشودة ، فدخلته

بعد أن عانت بعض الصعوبة في إقناع ذويها ، وكثيراً من
 التجلد لتركها البقاع التي تحتضن مختاراً . وبذا تم لها
 أن تحقق الأمل الذي بقيت تصبو إليه زهاء عشرة أعوام .
 الأمل الذي لا يفكر فيه الإنسان إلا بعد أن ينفض
 يده من كل أمل . ففي أصيل أحد الأيام ودّعت أهلها
 وألقت على مواطن ذكرياتها نظرة عابرة ، ثم حملت
 الحقيبة التي تحتوى ملابس الزهد ، واتجهت صوب المكان
 الذي اعترمت أن تقضى بقية عمرها فيه . وعندما بلغتته ،
 قرعت بابه الخشبي الكبير ، الذي أغلقته بعدئذ في وجه
 الحياة .

...

كان هذا المشغل لا يكاد يختلف عن الدير في شيء .
 فقد كان بقية لمبني قديم عدا عليه الزمن ، يقوم على
 سفح تلّ ناء في نهاية طريق مهجور ، ولا تحيط به إلا
 صخور صماء وأتربة لا تنبس بينت شفة ، طغت على
 جانب منه فدفنته مع أيامه . وكان الماضي الصريع
 لا يفتأ يطل واهناً من كل ثقب من جدرانه . كما تتناوح

الحادثاتُ التي جرت فيه في العهود الخوالى ، مع صفير
الرياح التي تعبره من نافذة لنافذة . وكان لفرط ما يسوده
من وحشة ، يبدو خاوياً وهو أهلٌ وخراباً وهو معمور .
إلا من أشباح سكانه البائدين ، التي كان يخيل لمن دخله ،
أنها ترح في دهايلزه كأنها عفاريت . وكأنما أبت الجوارحُ
إلا أن تعتبره خربة . فراحت تعشش في حوائطه
الغربانُ والبوم ، وبين وقتٍ ووقتٍ تنعاه من جديد
بنعيقها ونعيقها .

كذلك كان كل من أوين إليه يشبهن الراهبات .
إذ كنَّ ممن نكبن في الحياة ، فأثرن تركها إلى حيث
يعشن في عزلة ، بعيداتٍ عن كل ما ينبش الجراح . فمن
زوجةٍ فقدت بعلمها وما يفتأ ما حولها يذكرها به . إلى
عذراء خابت في حبها فأضحى يثير شجنها الطرب . إلى
عانسٍ تؤلمها رؤية شمسها وهي تغيب . أو دميمةٍ لم تكن
لها شمسٌ فكرهت الضوء . وهكذا كن كلهن جريحات ،
أردن أن يضعن على جراحنهن بلسم النسيان فأوین إلى
ذلك العالم المنسي .

ولما كان الشقاء يؤلف بين ذويه ، فقد وجدنا
السلوة الكبرى في خدمة اليتامى والحَدَبَ عليهن . كما
نشأ بينهن عطفٌ متبادل ، كان يُلاحظ في نظراتهن
عندما تلتقي ، وفي تلك النبذة الحنون التي كانت تغشى
أصواتهن كلما نادى بعضهن بعضاً قائلات : أختي !

وكانت جميع الأسباب في هذا المشغل مهينة للنسيان
الذي ينشده . فقد كان معداً لمبتهن وإطعامهن ، بحيث
لا يحتجن إلى مبارحته والعودة إلى لقاء الحياة . فكان
إذا ما صحو من النوم ، اجتمعن في ثيابهن البيض
الطويلة التي تشبه الأكفان ، وتلك الأقنعة التي تلتصق
معظم وجوههن ، وجلسن يفزلن ويطرزن وهن
صامتات ، لا يتحدثن إلا ليسألن عن أمر هام ، أو يجبن
في اقتضاب عن سؤال وجه إليهن . حتى إذا ما حان
وقت الطعام ، تناولن غذاء خشناً غالباً ما يكون من
البَقْل أو الخُضَر المسلوقة . فإذا فرغن من عملهن مع
انحدار النهار ، عمدت كل منهن إلى كتاب تقرأ فيه ،
أو قامت تصلي وتسبح لله .

وكان الناظر إليهن لا يلبث أن تتملكه الرهبة . فقد
 كن جامدات صامتات لا تعبّر ملامحهن عن شيء ، إلا
 عن ألم دفين بردت حرقة فترك آثاره في تلك الكتابة
 التي تسود وجوههن ، كما يترك الجمر الرماد الذي ينم
 عليه . وكان في نظراتهن نسيانٌ وغربة . كأنما أُسدل
 بينهن وبين الماضي ستار ، فانقطعت صلتهن بتاريخهن
 وما جرى فيه من أحداثٍ وعاش من وجوه . أو كأنهن
 مخلوقات هبطت إلى الأرض من كوكبٍ آخر
 فاستوحشت .

وبهذا المكان الذي يوحى كل ما فيه بالموت والنسيان ،
 لاذت زيناتٌ لتَنسَى .

الفصل الثاني والعشرون

انقضت ثلاثة أعوام وزيناتٌ ملازمةٌ المشغل ،
لا تبرحه إلا في فترات متباعدة ، لتزور ذويها زيارة
قصيرة ، ثم تقفل راجعة إليه . وبدأ عليها أنها بدأت
تنسى . فكنت إذا نظرت إلى عينيها ، لمحتَ فيهما
بوادر تلك الغربة ، التي ارتسمت على أعين رفيقاتها اللاتي
سبقنها إلى هناك . ذلك أن بُعدها عن الحياة ، مكن
للنسيان من أن ينسج على ماضيها خيوطه . فصارت
لا تراه من خلال هذه الخيوط ، إلا كما ترى حلمًا غابرًا
نصَلتْ أشباحه ، أو رُبْعًا عَفَا فلم تبقَ منه غير
أطلال . وحتى مختارُ الذي تبدَّل شكله ، لم تعد تنبش
رؤيته هذا الماضي . فقد كانت تحتاج إلى سفيرٍ طويل
على أجنحة تأملاتها ، خلال الأعوام التي تراكت فوقه ،
فحجبت شعره الفاحم وعينيهِ الملتئمَتين بريق الشباب ،
قبل أن تصل إلى ذلك العهد الذي كان فيه مختاراً الحبيب .

وهو ما كانت تتجنبه بإغراق نفسها في عمل المشغل ،
وفي جو النسيان السائد فيه . فكانت كلما رأت هذا
الحبيب القديم ، وقفت رؤيتها عند حد مختار الكهل
زوج جلفدان ، ولم تحاول النفوذ إلى أعماقه لترى الصورة
الأخرى الثابتة فيها . بل إنها كادت تنسى أنه جرح
قلبها مرة عندما جفاها ، وما لبثت أن عفت عما سلف منه .

...

وكانت تثير اهتمامها بنوع خاص وتستدر عطفها ،
فتاة وفدت حديثاً على المشغل ، ثم ملاحمها عن جمال غابر ،
وعيناها على أنهما تطويان ماضياً أليماً . وكان مما يزيد من
تعلقها بها ، شعورها بأنها ليست غريبة عنها ، وإن
كانت لم تدر شيئاً عن كنه هذه الألفة المبهمة .
ف ذات يوم خلت بها وسألتها عن الريح التي قذفت
بها إلى هذا البَلَقع ، وهي الحمامة التي مكانها الخمائل .
وشرعت الفتاة تقص قصتها قالت :

— منذ ثلاثة عشر عاماً ، أيامَ بسمت لي الدنيا ،

أحببتُ جاراً لي وأحبني .

وهتفت زيناتُ تعلق على الحديث :

— سبحانك يا ربّي ! إنه الحب دائماً ، هو الذى

يأتى بنا إلى هنا .

— إى والله الحب . وماذا غيره يشرّد الآمنين ؟

ومضت تسترسل فى حديثها وزيناتُ تنصت إليها فى

اهتمام ، وبين وقت وآخر تستحشها على الكلام قائلة :

— هيه يا عفاف .

إلى أن قالت هذه :

— وبارح دارى على أنه سيلحق بعمل فى الريف ،

ولكنه اختفى وانقطعت عني أنباؤه .

وهنا هتفت صاحبتهما :

— اختفى ؟

— نعم . وظل مختفياً حتى صادفته ذات يوم فى

الطريق فلم أكد أصدّق عيني . أتعرفين ماذا كان يفعل

أيتها الأخت ؟ كان يبيع أوراق النصيب . ولهذا اختفى .

لقد خجل واكبدها منى .

وصرخت زينات :

— أوراق النصيب ؟

— أجل ، أول فرقته يبيع النصيب لأنه فقير ، على

حين يتربع من يليه من أبناء ذوى الجاه على المناصب
وتُعقَد لهم السيادة فوقها .

ومرت لحظة كانت زيناتُ فيها لا تفقأ تردد :

— يا عدالة السماء ! يا عدالة السماء !

كانت بالرغم من أنها من طبقة الموسرين ، تمتقت الظلم
الذى يتَّصف به السواد من أبناء طبقتها .

ثم عادت تسأل :

— وبَعْدُ أيتها الأخت ؟

وتأوهت عفاً وقالت :

— ليتك تعفينى من ذكر البقية يا أختاه ! لقد

سَوَّلَ الحقدُ للتعيس أن يَقْتُلَ ظالمه .

— أوه ! وقتله ؟

— كلا . شاء لطف الله أن تطيش الطعنة . وإلا

لكان الآن فى عداد الآمنين ، وَلَفَقَدَ آخرته كما فقد

دنياه .

— وماذا فعلوا به ؟

— زج القضاء به في غياهب السجن .

— مسكين !

— ولم يطق وهو الأبى عار السجن ، ولا رطوبة

حجراته وفضاظة سجانیه ، وكانت الأحداث إلى جانب

ذلك قد أضعفت من مقاومته ، فرض بالسل .

— يا إلهي ! كل هذا ؟

واستطردت عفاف :

— ونقل إلى المصححة . وهناك كنت أتردد عليه في

مواعيد الزيارة ، وأرقب الداء وهو ينهش في شبابه الغض ،

فأرثي لمصيره ومصيري ، ثم أخرج من لدنه باكية .

وأردفت :

— وذات يوم وأنا هناك ، دخل علينا رجل مهيب

الطلعة قدم لي نفسه باسم رمزي باشا . ولم يكن إلا ذلك

الرجل الذي ظلم حبيبي .

وغمغت زينات في ريبة :

— رمزي باشا !

— نعم « عُمَرُ رَمِزِيَّ بَاشَا » ، على ما أذكر .
 — ماذا ؟ وتقولين إن هذه الحادثة قد وقعت منذ

ثلاث عشرة سنة ؟

— تقريباً .

وغاص قلب زينات . أليكون الرجل أباهاً ؟ هو
 ذلك . فالاسم اسمه . والمحاطب الذي كان قد تقدم لجلفدان
 كان حديث عهد بالتعيين في المصلحة التي يرأسها . وكان
 ذلك منذ ثلاث عشرة سنة . إذن فهو أبوها بعينه .
 وازدادت اهتماماً بمعرفة الخاتمة . فسألت عفاف التي كانت
 قد توقفت ترقب دهشتها في بلاهة :

— وفيمَ كان مجيء هذا الباشا ؟

— كان ذا ضمير فشاء أن يكفر عن ذنبه . سعى
 حتى ظفر بالعفو الملكي عنه ، فجاء يزف إليه بشراه ،
 ويَعِدُّه بوظيفة إن أُبْل .

وبكت عفاف ، ثم عادت تتكلم وقد تهدج صوتها
 فقالت :

— ولكن ، في الوقت الذي جاء فيه هذا الرجل

النبيل يأخذ بيد مصطفى ، كان مصطفى قد مات منذ ساعة
ونُقل إلى حجرة الموتى بالمصحة .

وصرخت زينات :

— مات ؟

— مات أيتها الأخت . وانحدر إلى الفناء كما تنحدر

الشمس ، وتركني أذبل في شعاع مَغِيْبِهِ الأصفر . أواه
يا مصطفى ؟ لمَ غافلتنى وذهبت ؟ لمَ لمَ تأخذنى معك ؟
واستسلمت الفتاتان للبكاء لحظة ، ثم عادت عفافُ

تواصل حديثها قالت :

— ومُذْ مالَ مِئْلَةَ الشمس ، فحُضِبَ أفقَ حياتى

بجراح ذكراه ، ثم غاب غِيبَتَهَا فدَثَّرَ كَوْنِي بِالظلام ،
أقسمتُ لا يطلعُ فى سماءى بَعْدَهُ كوكب ، فكلُّ نجمٍ
سواهُ واللهِ كَابِي الضياء ، وكل قمرٍ غيره لا يَنُورُ ،
فكنتُ إذا ضقتُ ذرعاً بالدجى ، نَقَبْتُ فى ليل
زمانى طاقَةً وجلستُ أُشْرِفُ منها على نهارى الراحل ،
وبين حينٍ وحينٍ أُنَدِّي بدمى فَجَرَهُ ، أو أُطلق
روحي حَمَامَةً على أُنْسِكَ تنُوح .

وزفرت زفرةً حَرَّى واستطردت :

— وهكذا أخذتُ أيامى تمرّ ، وأنا أرقب شبابى
وهو ينسلُّ من بين يديّ ، والدنيا تنسلُّ من أمام عينيّ
معه وتبتعد ، كما تبتعد سفينةٌ أقلعتْ إلى شاطئ غير معلوم ،
إلى أن ذبلتْ آخرُ ورقةٍ فى شبابى وأصبحتْ عانساً فى
العانسات . نعم ، مَنْ كانت له حيّاً لم لا تكون له وهو
ميّت ؟ ألاّ لأنه أصبح مغمضاً لا يرى وأخرس
لا يتكلم ، أخون غمضه وأقسو على عجزه ؟
— أختاه ! لا تلمسى جُرحى . أنت أيضاً قضيت
عمر كعانساً ؟

— نعم أيتها الأخت . كلانا زهرةٌ عاشت مهجورة .
ضاع هباءً عمرها . أسفًا لنا ! مات شذانا ، وما عطر
أيامنا . وذبلنا ، وما تحلّى صدرُ بنا . ليتنا ! ليتنا رَفَّ
بالقطف حسدُنا ! ليتنا بالهَصر تَضَوَّعَ عطرنا !
فقالَت زيناتُ وهى كاسفة :

— وهل أتيتِ إلى هنا لتَنسَى ؟

— ليس جرحى يُنسى . إنما جئتُ لأصون وجهى

عن أن يُبتذل في طلب الرزق . فإن أمي قد قضت
نحبها منذ عام ، ولحق بها منذ أيام أبي . فأصبحتُ
ولا عائلَ لي ، ولا إنسانَ يؤنس وحدتي .

وسادت بين الفتاتين فترة صمت ، قالت بعدها زينات :

— إذن فقد كان هذا الباشا سبب نكبتك ؟

— ألم يضع أول مسمارٍ في نعش خاطبي ؟

— ومع ذلك تصفينه بأنه نبيل !

— أجل لأنه نديم وجاء يصلح خطاه ، وقليلٌ من

الناس من يندمون . إن منهم من يجرح الفريسة ،

ثم يجهز عليها ليتخلص من لعناتها . ليت كل سرائنا

كانوا كزمرى باشا ! إذ ليس العيب أن يخطيء الإنسان ،

ولأنما أن لا تأخذه من ربه خشية . من نديمٍ تاب

ولكن من استهان تهادى . لله ما أنبله ! وما أروع

طلعته الجليلة ، التي عليها سمات الأبرار !

— أفهم من هذا أنك صفحت عنه ؟

— وعلام اهتمامك بشأنه ؟ أتعرفينه ؟

— إنه أبي .

— أبوك ؟

واستطردت وهى مأخوذة :

— واكنك لن تكونى تلك التى خُطبت لعاكف .

إنك رائعة الحسن ، بعكس ما يشيعون عن الأخرى .

— كلا ، لم تكن إياى .

— إذن فأنت صُغرى بنتيه . نعم أنت بعينك .

يا لله ! لطالما حدثتني نفسى بأنى رأيتك من قبل . فلما

قلتِ لى الآن إن الباشا أبوك لم يبقَ عندى شك .

— رأيتنى ؟

— نعم . وتبادلنا السلام .

— أين ؟

— فى حديقة منزلك . حين كنا نمر بها أنا

وخاطبى .

وراحت زيناتُ تشجذ ذهنها . على حين استطردت

عفاف :

— ألا تذكرين ؟ ذَيْنِكَ الفتى والفتاة اللذين

كنت تومئين لهما وتبسمين ؟

وضربت زيناتُ صدرها وهتفت :

— وهل كنتم هذين؟ يا حرام! ما كان أجلكما!

— نعم نحن بعيننا .

— هو ذلك . لكثيراً ما ساءلتُ نفسي أين

رأيتك؟

— وها يتضح أن بيننا تعارفاً قديماً .

— أجل ، وها نحن تان نلتقي بعد ثلاثة عشر عاماً .

وأطرقت في أسَى ثم عادت تقول :

— ولكن هل نلتقي كما التقينا إذ ذاك؟

— إذ ذاك؟ آه ، تلك أيامٌ مضت أيتها الأخت .

— سلامُ الله عليها !

وشرد لبها . ثم هزت رأسها وقالت تتوجع :

— واأسفاه لك يا أبي ! ما كنت أعلم أنك

كَبَوْتُ هذه الكبوة . ولكن يشفعُ لك السببُ

الذي ورطتك . في سبيل الحنان ما جنيت يا أبي .

— اطمئني أيتها الأخت فلقد ساحتته . نحن اللواتي

طهرهن الألم ، لم يَعدُ للحقد في نفوسنا مكان .

واستطردت زينات :

— أَمِنْ أَجْلِ هَذَا حَارَبْتَ الْجُوعَ يَا أَبِي ؟ أَشَعَرْتَ
بذَنبِكَ حِينَئِذٍ ، وَرَحْتَ تَكْفُرُ ؟

— مَاذَا تَقُولِينَ ؟ أَحَارِبَ هُوَ الْجُوعُ ؟

— وَقَضَى عَلَيْهِ . وَمَا كَانَ ذَلِكَ إِلَّا بِفَضْلِكَ ،
وَفَضْلِ خَاطِبِكَ الْمَرْحُومِ .

وَأَخَذَتْ تَقْصُ عَلَيْهَا جَهْدَهُ فِي ذَلِكَ . فَلَمَّا فَرَغَتْ
مِنْ كَلَامِهَا هَتَفَتْ عَفَافُ :

— اللَّهُ دَرَهُ ! لَا تَوَاخِذْنِي ، فَذْجَنْحْتُ إِلَى عِزْلَتِي
وَأَنَا أَجْهَلُ مَا يَحْدُثُ فِي هَذَا الْوَطَنِ . يَمِينًا بِاللَّهِ لَقَدْ
شَوَّقْتَنِي إِلَى أَنْ أَرَاهُ لِأَحْيِي فِيهِ هَذِهِ الْبَطُولَةَ .

وَقَلَّيْتُ زَيْنَاتُ كَفَيْهَا وَقَالَتْ :

— تَرِينَهُ ؟ أَوَاهُ أَيْتَهَا الْأَخْتُ ، لَمْ يَمُودْ ذَلِكَ فِي
الْإِمْكَانِ ! إِنَّهُ أَصْبَحَ فِي ذِمَّةِ الْمَوْتِ . إِي وَاللَّهِ فِي
ذِمَّةِ الْمَوْتِ .

وَعَمِغَتْ عَفَافُ بِحُزْنٍ :

— يَا رَحِمَهُ اللَّهُ ! رَفَعِي عَنْ نَفْسِكَ يَا أُخْتِي .

— أجل ، أسألي الغفران له يا عفاف ، فافقد كان
 رحيماً طيب القلب . وما كان من شيمته الظلم ولكن
 لكل شيء سبب . ولو قدرت وعورة الصخرة التي
 ارتطم بها قبل أن تنزل به القدم ، لعذرته وأشفقت عليه .
 — لقد أدركت ذلك يوم جاءني نادماً ، وأن
 القدر الذي ما ينفك يُنصب فخاخه للأبرياء ، قد
 وضع تحت قدميه شركاً فزل .

وراحت تستمطر الرحمات على روحه ، ثم قالت
 لزينات :

— وأنت ما قصتك أيتها الأخت ؟ ما هذا الشجن
 الراقد في زوايا جفونك ، وماذا رماك زهرة في هذا
 القفر ؟

— رمانى الذى يرمى الجوهرة أحياناً فى التراب ،
 واللؤلؤة فى مستنقع . رمانى القدر الذى طالما يرمى .
 — وكيف ذلك ؟ هلاً حدثتني ؟

— لا بأس فإن الحديث ذو شجون ، وليس أحب
 إلى من أن أثير أشجاني بعد ما طال بي العهد على

نسيانها ، وأعود بروحى إلى أعزِّ مواطنها ، وإن كنتُ
 سأجتاز ظلمات عِدَّة ، وأعبرُ بجوراً من دموع ، قبل
 أن أهبط هذا الوادى القمر ، وادى أحلامى الماضيه .

وراحت تقص قصتها قالت :

— كان ذلك منذ سبعة عشر عاماً ، حين كنتُ
 صبيةً فى الثالثة عشرة من عمرى . وكان القلب لم يزل
 خليلاً والأمل يملأ جوانب النفس ، فيعصر بسماته على أياى .
 وتوقفتُ ريثما تتنهد ، ثم واصلت حديثها قائلة :

— وكان يقطن معنا ابن عمى الشاب ، وكنا قد
 احتضناه رضيعاً بعد أن مات أبواه . وبالرغم من أننى لم
 أكن يومئذ أدرى ما الهوى حتى أحبه ، فقد كنت أشعر
 بعبير هذا الحب كشيء مبهم يطوف بروحى فيسكرها ،
 دون أن أعرف كُنْه هذه السكرة ، ولا من أية زهرة
 يهب العطر الذى أشرب كأسه . ومن ثم فقد كانت الأيام
 التى قضيناها معاً فى عهد الطفولة ، على ما لَسَّم قلوبى فيها
 من غمض ، أحلى أيام مرت بى .

وبدت كمن أخذت تحلم ، وترقب صور هذا الحلم وهي
تتتابع في الغيب ، وقد رَكِبَتْ مَتْنِ السَّحْبِ التي
كانت تلُوح لهما من النافذة وهي تسير سيرها الوئيد .
ثم عادت تقول :

— وهما هي ذى تلك الأيام التي ثوت في ضمير
الزمن ، تطلُّ على من نافذة الماضي ، فيصِلُ إلى ضوءها
الباسم عَبْرَ السنين . ولكنه لا يصل إلى ساطعاً
كمهدى به ، لأن سبعة عشر عاماً يجتازها تَوَهِينُهُ ،
فلا يبلغني إلا وقد خامره ذلك الأسى الذي يخامر كل
شيء لفته البعدُ في ضبابه .

واستطردت وقد بدأ صوتها يتهدج :

— وهأنذا أقرأ في هذا الضوء الشاحب سطوراً
كانت في حينها لامعة . فأذكر كيف كنت أجول مع
حبيبي في الحديقة ، ثم نعود وقد ملأنا سلالنا بالزهر ،
فنجلس نصفقه على العشب الأخضر . وكيف كنا نقف
بغدرانها الملتوية ، حيث الزنابقُ تسبح غافية على السطح ،
والحشائشُ على الضفاف ترتعش . أو نعبر قناطرها

التي تتشابك فوقها الأفنان ، وقد تدلت منها عناقيدُ
كالثرثريا ، تضيء إما سقطت عليها أشعة الشمس . أو
نخوض حافيتين ماء بركتها ، ومن حولنا أسرابُ
الإوز تروح ونجىء ، وهي تلتقط بمناقيرها أوراق النباتات
النامية فيه ، وبين وقت وآخر تصفّق فوقه حمامة ،
أو يغطس عصفورٌ ويروح ينتفض .
— استمرى أيتها الأخت .

واذكر كيف كنا نستيقُّ على الظل ضحىً وفي
الأصيل . وتبارى في تسلق الأشجار الباسقة ، أو صيد
الفرّاش المذهب الجناح . فمن كسب الرهان راح يأمر
في المغلوب وينهى .

— يا حبّكما !

— وأذكر يوم سافر مغترباً في طلب العلم فشعرتُ
بالوحشة دون أن أدري السبب ، لأن قلبي كان كالبرعم
مغلقاً على سره . ثم كيف غمرني الفرح حين زفوا إلى نأ
عودته بعد غيبة أربعة أعوام فلم أذق النوم ليلتي . حتى
إذا ما طلع الصباح ألفيتني وقد فقدتُ نصف ذاكرتي

في أيدي الساعات التي سهرتها ، وفي نشوة الفرحة التي
أغرقت لبي عندئذ . فكنت إذا لقيت القوم لقيتهم
ساهمة ، أو حاولت أن أذكر أمسي لم أفلح .

وتفغرغرت عيناها بالدموع ثم عادت تقول :

— وأذكر كيف أخذ قلبي بعدئذ يتفتح ويحكي لي
أسراره ، فلم يبقَ عندي شك في أنني أهواه . حتى إذا
ما عاد والتقت عيناها على جوى ، أدركت أن ما عنده
مثل ما عندي وأكثر . وأذكر كيف خلا بي في الشرفة
ليلة رقصنا وكشفني بالحب فأسمعي أحلى كلمة في الوجود .
ثم وعدني فوضع بين يدي دنيا هببها الأحلام أوّلت
أو هببها الفراديس .

واستطردت وقد أخذ جسمها يرتجف :

— وأذكر كيف أنه حينما قالها لي : « أحبك » ،
فكأنما سقطت قطرة على زهرة . فارتعشت وقتئذ رعشة
الزهرة بلّلت ، واشترأبتت بعنقي أطلب المزيد .

واستطردت وقد زادت رجفتها :

— آه وأذكر ، نعم أذكر ، كيف زالت من طريق
 زواجنا الأشواك فأضحى وردا ، وأوشكنا أن نقبض على
 طائر الأمل ونحبسه في قفص من ذهب ، لولا أنه اتضح
 في آخر لحظة أن هناك من تحبه وتوشك أن تهلك من
 أجله ، وعندئذ صفق الطائر تصفيقةً ارتفع على أثرها إلى
 أجواز الفضاء وغاب بين السحب .
 ولم تكمل زينات قصتها لأنها سقطت مغشيا
 عليها .

الفصل الثالث والعشرون

عندما أُغْمِيَ على زينات ، استدعت إدارة المشغل طيبيا
أسعفها حتى أفاقت ، ثم نصح بنقلها إلى بيتها ريثما تَبُلُّ
من أثر الصدمة . فَمَ ذلك على الفور ورافقها إلى هناك
عفاف .

وحالَمَا وصلا إلى المنزل ، وجَدَا به جلفدان
ومختارا ، وكانا قد قَدِمَا في زيارة لشريفة هانم . وجزع
القوم عندما علموا بما حل بابنتهم ، ورأوها تنهافت على
السريـر بادية الإعياء .

وبينما كان مختارٌ منكبا عليها يفحصها ، مالت جلفدانُ
على عفافَ تستوضحها الأمر . ولما كانت أحاديث الحب
لا تُذكر في حضرة الأمهات ، فقد أومأت إليها هذه أن
تتبعها إلى حجرة أخرى .

...

وعندما تهيأت لهما الخلوة ، شرعت فتاة المشغل تروي

ما حدث ، مبتدئةً بقصتها مع مصطفى ، جاهلةً أنها إنما
تحدث جلفدان ، مُذْ رأت فيها زوجةً للطبيب
لا لما كَفِ كما كانت تعلم من قبل .

وما إن تبين لجلفدان من الحديث سر خطبة عاكف
لها في أول الأمر ، حتى شعرت بأن الأقدار كانت تهينها .
كما أحست برعدة تسرى في جسدها ، عندما ألقت نفسها
فجأة أمام إنسانةٍ نُكبتُ بسببها يوماً ما ، وانشأت
تتساءل :

— تُرى ماذا يصبح موقفها مني إن عرفتُ من
أنا ؟ وبأى وجه ألقاها حينئذ ؟ ألا يا أرضُ انشقي
وابلعيني !

وكانت عفافُ قد انتقلتُ إلى سرد فاجعة زينات ،
وهي لا تدري أن مختاراً هو حبيبها المقصود ، وأن للمائلة
أمامها دوراً في القصة التي أغمى على البطلة قبل نُسمِ
سردها ، وتبلغ الحلقة التي تظهر فيها أختها على المسرح .
فأخذت جلفدانُ تصفي إليها وهي متوجسة ، حتى إذا
ما طالعتهما الفتاة بما كان من حب زينات لابن عمها ،

كانت مفاجأة غاص لها قلبها .
وتابعت عفافُ حديثها قالت :

— وراحت زيناتُ تصِفُ لي حبهما الطفل وهما
غَريَران ، وكيف نَبَتَ له ريشٌ بعدئذٍ وكَبُرَ ، حتى
إذا ما شرع يفتني فيُسمعهما من نغم الخلود ، الذي له
في السمع وقعَ تقَرّات الندى ، وفي الأوصال رَعدةُ
الزهر رَفٌّ تحتها ، علمتُ في آخر لحظة بأن هناك من
تحب حبيبها وتوشك أن تهلك من أجله .

واستطردت :

— إلى أن وصلتُ عافاها الله إلى الجملة التي قالت فيها
ما معناه : « وعندئذٍ ذُعرَ الطائرُ وفرَّ إلى حيث قَبَعَ
وحيداً على غصنٍ ذابل وجمل يشوح » فلم تكمل
كلامها وهوت من فرعها .

وهنا صعدت جلفدانُ إذ فهمت كل شيء . وراحت
تحدّث نفسها وتقول :

— إذنَ فما زيناتُ ومختارُ إلا حبيبان . وما كان
بينهما وبين المني إلا مثل ما بين الشفة والكأس ،

لولا أنهما كشفَا حبي وأنه يوشك أن يُودِي بي .
 ولكنْ كيف توصَّلا لمعرفة هذا السر ، وقد حرصتُ
 على أن أغلق صدرى عليه وأُحْكِم الرِّتَاج ؟ وأىُّ
 أعْيُنٍ تلك التى استطاعت أن تخترق حُجُب قلبي
 وتَرى الكوكب الخافق فى حَبَّتِهِ ؟
 وراحت تفكر . ثم ما لبثت أن لطمت جبينها
 وأنشأت تقول :

— آه ، الآن تذكرت . ألم تفاجئني يوماً ممسكةً
 بصورته أناجيبها وألثمهما ، فسارعتُ إلى إخفائها وظننتُ
 عندئذ أنها لم تَرني ؟ هو ذلك ، ولكن ها قد خاب ظنى
 ورأتني . ألا ما أغبانى ! كان يجب أن أفطن لهذا
 أو أتوقعه على الأقل . وكان يجب أن لا أصدِّق مختاراً
 عندما جاء يضع قلبه بين يديّ ، إذ كيف يُعقل أن يحبني
 إنسانٌ فضلاً عن مختارٍ الجميل ؟ ثم بم أفسر خلواتهما
 حديثين ، خلواتٍ وإن جَهِلاً مفزاهما ليست فوق التهم ؟
 آه ، أضلَّننى الحبُّ وقد يورث الحبُّ الخَبَلَ ! ولكن
 ها هي ذى الكوارث تدقُّ فى أذنى كالنواقيس وتعيد

صوابي إلى . رباه ! كانت كأساً وأفقتُ منها . كان حُلماً
وَسَطاً عليه الصباح . وكأني بصوت يدوي الآن من
اليقظة ويقول : كان زواجك بتدبيرها لينقذك . كانت
حياتك أكاذيب فواخجلاه !

وأنت أنيناً موجعا ثم عادت تحدث نفسها :

— ويا ليت الأمر اقتصر على ذلك ، ولم يجعل مني
بومة نَعَبْتُ على خراب عش غَرْدَيْن ! فهذه زيناتُ
مَضْرَبِ الأمثال في الحسن ، يذوق جمالها اليُثم بسببي ،
ثم يكون مآلها الدفن حيةً في مشغل . وهذا فتاها
النضير كزهرة ، تهصره الأشواك التي قُضِيَ عليه أن
يحتضنها في شخصي . أواه ! كيف ياربي يطيب لي
العيش بعد أن كسنتني الأكاذيبُ هذا العار ؟ وبعد أن
كشفتُ أنني لم أكن غير كوكبٍ نحس ؟

وما إن قادها التفكير إلى هاتين الحقيقتين المُرَتين ،
اللتين تكفي إحداها لقتل إنسان ، حتى تقلص وجهها
واصفراً ، وبدت كمن تقدم بها العمر سنين ، حتى إن
عفافاً أجفلت عندما رأتها تتطور هذا التطور السريع ،

وذهبت بها الظنون كل مذهب . إذ راحت تسائل نفسها
وتقول :

— لم رُوِّعت هذه السيدة عندما أخبرتها بقصة
حب الفتاة لابن عمها ، كما لو كانت هي ذلك الغريم الذي
شاركها هواها له ؟

على أن الذي لم يخطر لعفاف على بال — لأن زينات
لم تكن قد أفضت به إليها بعد — هو أن الأمر انتهى
بالحيبيين إلى تقديم جبهما قرباناً لهذا الدخيل ، الذي
أصبح فيما بعد زوجاً لأحدهما .

وجأة التفقت جلفدان لعفاف وقالت لها في أسي :
— اسمي أيتها الأخت . الآن فقط ، وقفتُ على
حقيقة هائلة ، ظلمتُ طول عمري أجهلها . حقيقة تخالينها
من عجبها خرافة ، كتلك الخرافات التي تُحكى في
الأساطير . ولكنها مع ذلك وقعت .
وفزعت عفاف ، إذ طالعتها من صوت محدثتها
رهبة .

وراحت جلفدان تستطرد :

— وهأنذا سأكمل لك القصة التي لم تتمها زينات .
 وستعلمين منها أنني أنا التي شاركتها حبها لحبيبتها وأنا
 أجهل ما بينهما . وأنها عندما عَلِمَا بأنني هالكةُ صباية ،
 باعا نفسيهما واشترىاني بأن تزوجني بتدبيرهما الحبيب . ثم
 ظلا يكتمان عني نبا هذه التضحية ، إلى أن أتاني بالخبر
 من لم أزوَّده وعلمتُ به الآن منك .

وارتعشت عفافُ أمام هذا الفداء المخيف . وأكبرتُ
 زينات ، وودت لو جثت عند قدميها وراحت تمجد فيها
 نبيلها . وفي الوقت نفسه وجفتُ عندما رأت أن الأقدار
 غافلتها وسخرت لسانها ليميط اللثام عن سرِّ بقى في
 طي الخفاء سنين .

وأخذت جلفدانُ تقص القصة من أولها : مذ خطبت
 لما كفَّ إلى أن تزوجت مختارا .

وامتعت عفاف ، إذ عرفت لأول مرة أن الواقعة
 أمامها لم تكن إلا ابنه الباشا الكبرى ، التي حفرت قبر
 مصطفى منذ ثلاثه عشر عاما . فراحت تخاطب نفسها
 وتقول :

— رباه ! أجمعنى الأقدار أخيراً بمن جلبتُ نحسى ؟
 وهل أكون قد انتقمْتُ منها وأنا لا أدرى ، حين
 وقفْتُها على سرِّ أختها ؟ ولكنْ ، ما ذنب المسكينة ؟
 وأدركتُ خَطَرَ ما تورطتُ فيه . وبدأ يلوح لها
 شبح فاجعة توشك أن تنقضَّ على البيت وتدكَّه على
 من فيه .

وإنها لغارقة فى هذا التفكير ، إذ استطردت
 جلفدانُ قائلة فى ذلَّة :

— والآن ، لعلك أدركتِ أننى أنا السبب فى
 نكبتك ، ونكبة أختى ومختارِ الذى أحببت .
 واغرورقت عيناها بالدموع .

ووقفت عفافُ تنظر إليها فى رثاء ، وهى لا تدرى
 ماذا تقول . ثم ما راعها إلا أن رأتها وقد أخذ فمُّها
 يرتجف ، وجفأة يميل رأسها وتغمض .

واستغاثت الفتاة . خفَّ إليها مختارٌ وشريفةُ هام
 على الأثر . وتبعتهما زيناتُ تتحامل على نفسها . وما
 كادت ترى أختها على هذه الحال حتى صرخت :

— أختي !

وارتمت عليها تهزها وتناديها .

وسمعت المحتضر من الغيب صوت أختها وعرفته .

وكأنما أرادت أن تعود لتشكر صاحبتة ، إذ ما لبثت أن
فتحت عينيها وهمت :

— شكراً لك يا زينات !

ووقع نظرها على مختار فرددت :

— ولك يا مختار .

واستطردت والعاشقان يتبادلان نظرات الدهشة :

— لكما الله ! أية تضحية ! والآن ، عوداً حبيباً

لحبيب .

وصرخت زينات وقد أدركت أنها ألمت بالسر :

— كلا كلا لن نعود . مختار لك وإن شط

المزار .

وعادت من كانت نصف ميّنة تقول :

— عوداً بعضكم لبعض . واعثمراً عشاء

صفّرت فيه الريح بسببي ونسج العنكبوت . وأما

جلفدانُ فدخيلة . وهي راحلةٌ وشيكاً ولكننا لكما البقاء ،
وَمِنْ بَعْدُ تَمَثَّلُ عَلَى كِفِّ الزَّمانِ بِنَبْلِكَما يُشِيدُ .
وانطبقَ فيها . وكاد القومُ يسقطون صرعى حولها .
وبعد لحظةٍ تمتمت بصوت كأنه ينحدر من بعيد :
— عَوْدًا لَأَمْلِكَا .

فهمت زينات :

— تباركتَ يا الله ! ما تزال بها أنفاس .
غير أن هذه الأنفاس لم تلبث أن خمدت إلى الأبد .

...

وتناوحتْ في الدار أصواتُ الباكيين . وكانت
زيناتُ لا تفتأ تَنَشُّجُ وترثي الميِّتة بكلماتٍ تفتت
الأكباد . فلما هدأتْ نأثرتها التفتت إلى عفافَ
وسألتها .

— كيف وقفت المرحومةُ على السر ؟ أأنبأتك بشيء
في خلوتكما ؟

وأجابت عفافُ التي كانت قد انثنت إلى نفسها تلغنها :
— بل أنا التي أنبأتها . بل أنا التي أنبأتها .

وزهلت زيناتُ وهتفت :

— وكيف كعمرك ؟

— رحماك أختاهُ وعفوك ! ما كان تديرى ولكن

تدير القدر . عندما سألتنى عن سبب إغمائك ، أعدتُ
عليها ما دار بيننا من حديث وأنا أجهل صلتها به ،
فأحاطت بما قيل واستنتجت ما بقى ، ثم راحت تقص
على القصة كاملة ، حتى إذا ما بلغت نهايتها وقع لها
ما وقع .

وضربت زيناتُ صدرها وقالت :

— تبسالى ! لماذا بحتُ لك ؟ لماذا بحت ؟

وبدا الحرج على صديقتها ، فقالت وهى توارى وجهها

خجلا :

— قدردى موقفى . فإب جهلى لبقية القصة ،

فَوّت على أن أفطن إلى أن بداءتها ليس مما ينبغى أن
يُحكى لأختك . آه ، ما أتعسنى !

وانكبت تبكى وتمزق ثوبها .

واستطردت زيناتُ فى لوعة :

— قَتَلَ أَبِي فَتَاكِ وَثَارَتْ مِنْهُ فِي شَخْصِ أُخْتِي .
 وَمَا قَتَلْتُمَاهَا وَلَكِنْ قَتَلْتُمَا الْقَدَرَ . يَأْتُمُ الدَّهْرُ ثُمَّ
 يُجِيرِي عِدَالَتَهُ فِينَا . لَا تُرَوِّعِي أَخْتَاهُ فَكُلُّ شَيْءٍ
 مَكْتُوبٌ . وَأَنْتِ بَرِيئَةٌ مِنْ دَمِ جَلْفَدَانٍ .
 ثُمَّ عَادَتْ تَرْتِي الْمَيْتَةَ .

الفصل الرابع والعشرون

بعد أن ماتت جلفدان ، خلعت زيناتُ مسوح الزهد
فجأة . فلم تعد إلى المشغل تدفن فيه أحزانها كما كان
يُنْتَظَر ، ولا سيما حزنَها الجديد على أختها المحبوبة ،
ولكنها آثرت الإقامة في بيت أبيها .

وراحت تُلقِي بنفسها في خِصَمِّ الحياة مرة أخرى .
فصارت تلبس أنغر الثياب وتتجلى بأنفس الجواهر ،
وتطيل الوقوف إلى المرأة تصفف شعرها وتطلى وجهها
بالمساحيق . كما عادت بعد عزلةٍ دامت سنين ، تزور
صديقاتها وتستقبلهن ، وترتاد الملاهي والحفلات .

وإذ كانت قد شعرت بميل شديد إلى عفاف ، وبأن
في عنقها لها ديناً خلفه لها أبوها وتود أن تؤديه ،
اقتربت عليها أن تترك المشغل وتقيم معها بقية العمر .
ولم تمنع الفتاة فأفردت لمقامها في القصر حجرة خاصة ،
وفسحت لها فيه كما لو كانت واحدة من أهله . ومنذ

ذلك الوقت صارت عفافُ لها بمثابة الأخت ، وكثيراً ما كانت تحضر مجالسها وتصحبها في تنقلاتها .

وهكذا انقضت حقبةٌ من حياة زينات قضتها في المشغل . وأصبحت من كانت من عهدٍ قريبٍ ناسكةً ، فتاةً متأنقةً مريحة ، يظن من يراها أنها وثنيةٌ في نظرتها إلى الحياة ، لا تقيم وزناً إلا لمسراتها ، ولا تحيا إلا للساعة التي هي فيها .

فماذا دهي الفتاة ؟ وكيف تبدلت في غمضة عين ؟ هل انصدع قلبها لكثرة ما دهمها من خطوطٍ فتبلد ؟ ولكن القلب عندما يموت يموت أيضاً عن المرح . أم أنها عادت تتفتح للأمل بعد أن خلا لها الجو بموت جلفدان ؟ ولكن مختاراً لن يكون لها بعد أن هجرها . فهل كانت تطمع في أن يستيقظ في قلبه الحب ، بعد أن زالت من سمائه الغيوم التي كانت جائمة فوقه ؟ ولكن كيف ترضى أن تقيم هناءها على أشلاء أختها وهي التي طالما عافت ذلك ؟

أسئلةٌ حار في الإجابة عنها من حولها .

ولكن مختاراً الذي كان أول من اهتم لتطور حبيبته ،
لم يعنِه من الأمر إلا أن زينات عادت تعقد الصلح
بينها وبين الحياة ، وإن كان قد راح يتساءل عن جدوى
ذلك ، وهذا الصلح لم يعد معقوداً بين الفتاة وبينه ، ثم
يقلّب كفيه في حسرة ويقول :

— ليتني لم أصغر لشريفة هانم ، عندما أوغزت إلى
أن أبدي زينات الجفاء ! إذن لعادت الأسباب اليوم
مهيأة لطلب يدها ، وبعث الأمل الذي مات من رقده .
ولكنه ما عثم أن قال :

— ولكن لم أيئس ؟ إن حجتى معي . لماذا
لا أفضي لها بالحقيقة ، وهي كفيلة بأن تشفع لي عندها ،
بل تجعلها تكبر موقفي ؟
واستطرد في قوله :

— ولكن ، أما تزال في عروق المَحَبَّة في قلبها
بقية من حياة ، في وسع كلماتي أن تعيد إليها نضرتها ،
وتجعلها تُورِق من جديد ؟ سأرى على أى حال .
ثم عقد ما بين حاجبيه . لقد تذكر أنها قطعت على

نفسها عهداً لجلفدان وهي في النزاع ، أن لا تتزوجه بعدها . إلا أنه غمغم :

— ما يزال الأمر لا يدعو إلى اليأس . فزيناتُ
عندما أقسمتْ لا تتزوجُ بي ، كانت متأثرة بالحزن . ومن
عادة المرء إذا تأثر أن يسرف . وفضلاً عن ذلك فقَسَمُ
كهذا لم يطلبه جلفدان . بل إنه لن يعينها أمره ، ما دام
أن الموتى في سُغُل بموتهم عن شئون الأحياء . بَرَّتْ
بقَسَمها زيناتُ أم حنثتْ ، فلن تعيد جلفدان إلى الحياة
أو تزيدها موتاً .

...

وجعل وجهته منزل زينات . وخلا بها لأول مرة
مذ تجافياً . فقال لها بعد أن لبث بعض وقت لا يدرى
ماذا يقول :

— زينات ! إني جئتُ أسألك الصفح .

ونظرت إليه في تأثر وقالت :

— وفي الصفح ولم يَعُدْ بيننا ما يوجب العقاب ؟

وعاد يقول :

— رحماك يا زيفاتُ وتمهلي ! لو علمتِ الحقيقة
لشكرتيني .

فهتفت في صرارة :

— وعَلامَ ؟ أَعلى أنك سلوتني ؟

— ما سلوتك عَلمَ الله .

— وصَدُّك عني عشرة أعوام ؟ ونَعْمِيك لي

جَبَّك ، يومَ جئتَ تسألني الزواجَ من محرز ؟

— ما نَعِيتُ إلا هنأى .

— ولكنك نَعِيتني في قلبك .

— بل أَرَجَفْتُ يومئذٍ لأنقذ من كانت في خطر .

— ومَن كانت في خطر ؟

— أنتِ . أسرفتِ في لبسِ مسوح الزاهدات ،

وتحتها شبابٌ يتطلع للحرير . فلما وجدتُ أنك تالفة ،

زعمتُ أني سلوت لتنسيني ، وقدَّمتُ إليك غريمي يمدى .

وذهلتُ لهذه المفاجأة . غير أنها بدت كمن ترتاب .

فهتف :

— ما لك تتشككين ؟ لم يكن عجيباً أن أفعل .

إنه درسُ عَلمَتيَنِيهِ من قَبْل . مَنْ كان ضَحَّى بالأكثر
لسواك ، أَفَلَا يَضْحَى لك بالأقل ؟ سَلِي عيني إن
كَذَّبْتَنِي . وقلبي ، هذه الحمامة الرفرافة . وسَلِي
فِرَاش الضنى ، سَلِي الأشواك . بل سَلِي عقلك كيف مَسَن
سَلَا يَعتذر ؟ وأخيراً سَلِي أمك تَذمُّمُك .

— وما دَخَلُ أُمِّي ؟

— أَقنَعْتَنِي بأن أَجفُوكِ جَفَوْتَ .

فَقالت وما تَزالُ بها بَقِيَّةُ شَك :

— ولمَ لَمْ تَقْلَعْ وَقَد رَأَيْتَ إِصرارِي ؟

— حَسِبْتُ أن الزَمنَ كَفِيلٌ بأن يَحولِكَ عَن رَأْيِكَ .

فَراحت تَحَدِّقُ في عَينِيهِ . كانت تَريدُ أن تَقْرَأَ
الحَقِيقَةَ فيهِما . ولمَ تَلَبَثُ أن قَرَأْتَهَا واضِحَةً ، تَسْمِيحاً في
مَحوَرِ الضنى .

فأَ كَبُرَتْ شَأْنُهُ . وانسَكَبَتْ على يَدِيهِ تَقَبُّلاً لِهَما وتَبَكَّى ،
ودَمَعُها يَتساقَطُ فَوْقَهُما ، حامِلاً في قَطرانِهِ الدافئة آثار
تَبَارِيحَ عَفَّتْ وبِمِثْلِها الذَكَرَى من جَدِيد .
وسألها مَختار :

— والآن ، لم لا نتزوج ؟ إننا إن فعلنا فلن
 نتسبب في شقاء أحد ، ولن نشغل ضميرنا بتبعية ما .
 وشعرت بأنه بهذه الجملة ، عاد يداعب أوتار أملها
 القديم . ولكنها انتظرت علّها تسمعها تنغم ، فلم
 تسمع شيئاً . فوقفت على الحقيقة المرة . وبدأت تفهم
 نفسها ، وتنظر لمرحها الطارىء كأنه أ كذوبة . فلم تزد
 على أن ابتسمت بسمة صفراء .
 وعاد مختارٌ يسألها :

— ماذا يمنعك يا زينات ؟ لعله الوعد الذي أعطيتَه
 للمرحومة وهي تموت ؟ ولكن . . .
 وتوقف . لقد لاحظ أنها ا كتأبت لسيرة أختها .
 فندم على أنه نبش حزنها الثاوى .
 أما هي فراحت تقول وقد عاودتها بسمتها الكسيفة :
 — كلا كلا . وهل يغار الأموات ؟ ليتهم يهتمون
 لشئوننا ! إذن لَمَّا ضننا عليهم بالروح . إنما العيب منا
 يا مختار . لقد وهنت حيلتنا وولّى زماننا . لم يعد في
 وسعنا أن نبتهج .

ونهدت ثم استطردت قائلة :

— بنفسى لو نستطيع ، ولكن الوقت فات . فلا
الحياة عادت الحياة ، ولا نحن عدنا كما كنا . لقد تبدل
ثوب الزمن ، فسقطت أوراقُ ونبتت أخرى ، كما ذبلت
زهورٌ وتفتحت زهور . ودَرَجت الحياة على سُننِها
فنسيت ما عفا لتفرغ لضيوفها الجدد . إن طير
السماء لا يفرد للليل الراحل ، ولكنه يغنى للأشعة
المبكرة . والفراش لا يهجر الربيع المونق ،
ليذهب في أثر الخريف الذى أدبر . انظر ! أين الزنابق
التي كانت هنا ، طافية على البركة ، فى العهود الخوالى
من صبانا ؟ أين شجرة الياسمين التي كانت تكلل الخليفة ،
والتي شهدت قديماً حبنا ؟ وأين منها زهورٌ بيض ،
كان نجم ترنو فى دُجْنَة ؟ إنها ذبلت . والقيامة التي
كان يُقيمها جمالها ، تقوم الآن فى رياضٍ جديدة ، من
زهورٍ جديدة . ثم أين أبى الذى كان يملأ وجوده البيت
بركة ؟ وجلفدانُ أختى وبهجة روحى ؟ أين كل ما كان
يحيط بنا منذ ثلاثة عشر عاماً ؟ لا شيء منه باق الآن .

ونحن أيضاً كل ما فينا تبدل . ففقدنا القلب الذي
 يفتح للدنيا ، والعين التي تبصرها حلوة . فهذا أنت قد
 وخط شعرك الشيب ، وهذا جمالي قد دالت دولته .
 أين من عيني سحرها الماضي ، ومن أجفاني حافاتهما
 المخملية ؟ أين من أهدي ظلمها الممدود ، الذي كان
 يحليني بلا مرود ؟ ومن شعري ليله الحالك ،
 يطيل وجهي من دجاء ؟ أين من شفقي فصا
 العقيق ، ومن ثنايي حبات اللؤلؤ ؟ أين من وجنتي
 وردهما ، ومن جبیني ياسمينه ؟ أين كل ما جعل
 قلبك افتتن ؟ لا شيء إلا أن الياسمين اصفر والورد
 ذبل . وأن الردى ليحق الفتن الآخر . لقد
 ذهب أيامنا يا مختار ، والإنسان أيامه فإن ذهب ذهب .
 وغدونا في زماننا مقربين ، ولست شعري كيف تطيب
 الحياة للغريب ؟ لا تقل لي نزوج يا مختار ، ولكن
 قل لي شدي رحالك ، وهيبا نذهب في أثر أيامنا ،
 هناك في البقاع القصية ، حيث ذهب واختفت .
 ووجم مختار ، عندما أراحت زينبات الغطاء عن

حقيقة حياتهما ، فإذا بها مَيِّتٌ مَسْجِي ، وإذا بآمالهما
تموت عليه كما تموت الأنفاس . على حين استطردت
صاحبه :

— أواه ! إن رغبة الموت كَتَدْبُ فيّ وتستحني أن
أذهب في أثر ما فقَدْتُ . وإني كَأَمَلِيَّةُ النداء أردتُ
أولم أُرِد . إذ لا شيءَ يَشُدُّنا للحياة غير أملٍ نعيش من
أجله . فإذا ما انقطع هذا الحبل ، فتوقَّعْ انطلاق أرواحنا
كما ينطلق طائرٌ فُكَّ وثاقه . ولقد تقطَّع بنا الأمل
يا مختار ، بتقطُّع أسبابه منا . لم يَعُدْ في وسع قلبنا
المنهوك أن ينهض به . فإذا أماننا سوى أن نرحل ؟ كل
شيءٍ لِنَوَانا تَهِيأ . ولن يكون ذلك بطعنة خنجر ،
ولكن بايعازٍ من نفسنا . بسمِّ تَنَفُّثِهِ الأعماقُ فيُردِّينا .
ذلك أن الغريزة لا بد أن تنشط للعمل ، فإذا لم تجدْ
ما تعمله ، استدارت على نفسها فأزهقتْها . وهذا هو
الإيحاء بالموت . وكل الناس يوحون لأنفسهم بالموت
وهُم لا يدرون ، عندما لا يبقى أمامهم إلا أن يموتوا .
وكانت رهبة الفكرة قد تملكها فتابعت كلامها

بصوتٍ منبعث من القرار . قالت :

— أنا يا مختارُ من تسير إلى الموت ولم يبقَ أمامها
طويلٌ في الطريق ، فكيف تطلب مني وأنا الراحلة عما
قليل ، أن أرتبط بعلاقةٍ تفترض التريث إلى أمَد ؟ أنا
ضيفةٌ عَرَّجَتْ عليكم لتقيم بعض يوم ، وهي في طريقها
من مشغل اليتامى إلى القبر ، فما لمثلِي وإن عزَّ عليك ،
أن يطمع إلا في المُتَعِ الخاطفة ، التي لا تستبقيه طويلا
ولا تترك بعدها أثراً في ذهنه . حسبنا إذن أن نتحدث
حديثاً ما يلبث أن يتبدد في الهواء . أو نُشَد أغنيةً يذهب
صداها في أعقابها . أو إن شُدَّتْ نَحْدُ كُفِّي في يديك ،
ولنحلم حلماً قصيراً سرعان ما تسرقه اليقظةُ منا . وما
أحسب أن هذا الغزل البريء ما زال حراماً علينا ، بعد ما
ذقنا من حرمانٍ وسندوق .

ومدت له يدها وهي تقول :

— ها كها . ولكن لا يلمسها فمك ، لأنني لن
أبتذل نفسي في كهولتي بعد أن صنتها شابة . فليُبْسِ
المرء يتعفف وهو جميل ، فإذا ولى حسنه خلع العذار .

وأما الزواج فلا تفكر فيه ، لأنني قطعتُ على نفسي عهداً
أن أذهب عذراء إلى القبر ، كما ذهبتُ عذارى إليه آمالي .
وهناك سأشهد أحجاره ، على أنني عشتُ حياتي رمزاً
للتضحية والحرمان .

وقال وهو يتناول كفها :

— ولكنَّ حسنَّها لم يذهب يا زينات . ما زال
يلَّوِّرها يُشعُّ بالضياء . وما برح حريرها ناعم
الملمس .

فتحسرت وقالت :

— ولكنه ضياءٌ واهن ، تركَ أليقَه مع الأيام .
وحريرٌ منهوك ، يَرسُفُ في أكداس السفين . إنها
بقايا حسنٍ غابر .

ومع ذلك راح يضغط يدها ويحس في قلبه دبيب
حنانٍ خافت . كانت تُطالعه منها بقيةٌ من حسنٍ ،
راح يتملاها ببصرٍ كليل . كانت محاولاتِ يائسة ،
لحُطامٍ لا حيلةَ له .

فانحدرت الدموع من عينيه ، حاملةً في لآلائها

السكابي فلول آمالٍ تتمتع . ولمست الفتاة في قطرها
 العليل بقية دَفء راحٍ تنساب على كفها ، فهتفت :
 — علام تبكي يا مختار ؟ أعلى هذا الحلم الجديد
 الذي وُلد مَيِّتًا ؟ إنه لا يستحق البكاء . أَفَبَعْدَ
 ما بَكينا أحلامنا الماضية ، وبعد ما بَكينا شبابنا وأهلنا ،
 نجد ما نبكي عليه ؟ ألا اضحك يا مختار . اضحك تلك
 الضحكة الصفراء الساخرة ، ما دامت قد فرغت منا
 أسبابُ البكاء . اضحك ضحكة المفجوع أذْهَلَه الخطبُ ،
 أو ضحكة الموتى حَسَرَ البَيْلى شفاههم عن أسنانهم .
 وأخذت تضحك ، ولكنها ما لبثت أن صرخت
 مدعورة . كانت قد رَوَّعَتْها ضحكاتُ منها كقهقهاتِ
 شيطان .

وأحست بالإعياء فاستأذنت من صاحبها وأوت إلى
 مخدعها .

وراح مختارٌ يقول وقد خلا إلى نفسه :
 — أُنلك حالنا يازينات ؟ نعيش لنشيع جنازة
 أيامنا ؟ فيم مَرَحك إذن ؟ وما ذلك الخداع الكبير ؟

أَجَل ، ما هذا صَرَاح ، فماذا يكون ؟ أهو التأهب للموت
 إذا ما أحسَّتْ الغريزةُ بدنو الأجل ، فراحت تزود من
 متع الحياة لدهور الحرمان المقبلة ؟ إن بعض الناس
 يشاهدون وقد أقبلوا فجأة على الحياة واندفعوا يستمتعون
 بها في جنونٍ ويأس ، وبعد قليل يموتون . فهل ذلك
 الذي بك يا حبيبتي هو صحوة الموت ، ونذير الغمض
 الأبدى ؟

واستطرد يتوجع :

— أَجَل ، ما هو بيعتُ صُحُوك ، ولكن نذيرُ
 سُبات . يقظة النفس صحتٌ وقد أُوذِنْتَ برحيل ،
 تحاول أن تشبع من الدنيا وهيئات . حتى إذا ما عاجلها
 النذير ، ثبوتُ والمنى بين رُفاتها حية . فوافجيعتي فيك
 يا زينات !

ثم عمّد رأسه بيديه وأطرق يفكر ، وقد أخذت
 تلطم أذنيه ريحاً موحشة ، حاملةً في صفيها همسات
 عالمها الراهن كما تمثلاه كأنها أصداء . فازداد يقيناً بأن
 هذا العالم ليس إلا بقايا عالمٍ فني .

الفصل الخامس والعشرون

وانسلخت أيامُ وزيناتُ عاكفةً على مرحها الزائف .
كان من يرى عينيها يلّمح فيهما نسياناً وزيفاً .
نسيان من ينظر إلى الشيء الذي سينفض يديه منه ،
فلا يحاول أن يستبقيه في ذهنه . فكانت تسمح للأشياء
بأن تمر أمام عينيها ثم تموت عليهما ، دون أن تمكّنها
من قلبها . كانت لا تقبض يدها على ما تستمتع به ، ولكن
ترخيها ليفلت منها كما تفلت العصافير ، قانعةً بأن تشيّمه
ببصرها لحظة ، ثم تستدير إلى غيره . وكانت لا تأسى على
فرصة فاتها ، لأنها تعلم أنها متخيلةٌ عنها عما قليل . ولا
ترجى أمراً إلى الغد ، لعلمها أنه ليس لها غد . كانت
كالمسافر طاف مودّعاً ، فهو يلقي نظرةً على كل ركن ،
ولا يقف عند ركنٍ بعينه . كانت تنسى كل شيء ، لأنها
لن تبقى لشيء ، ولن تأخذ شيئاً معها . فكان مرحها
صريراً ، وبسّماتها صفراء ، وسرورها بلاهجة . وكان

بعثها إلى الحياة فوق ذلك أ كذوبة .

حتى كئوس الخلوة التي كانت ترشفها مع مختار ،
كانت تُقطّر فيها من مرارة نفسها ، فلا تحسوها إلا
ممزوجة بالعلقم . وكانت كلما رفعت إلى فمها كأساً منها ،
أفرغتها في جوفها دفعةً واحدة ، ثم ألقت بها إلى الأرض
محطمة ، شأن من لا يتذوق طعمها أو لا يُبقي عليها .
فكانت كلما دعاها مختارٌ إلى لقاء ، لبت الدعوة غير
متمنّعة ، ثم ذهبت في لهوها معه كل مذهب . على أنها
وإن كانت قد دأبت على أن تشرب كئوسها حتى
القرارة ، فقد حرصت على أن لا تملأها إلا بالخمر الحلال ،
إذ بقيت على ما عاهدت نفسها عليه من تبّتل .

...

تلك كانت زيناتٌ بعد أن أحست بدنو الأجل ،
ففتحت نافذةً معبدها لتلقى نظرة أخيرة على الحياة ،
خلال سحابة النسيان التي كانت ما تزال تغشى بصرها ،
فلا تُريها من الأشياء إلا أشباحاً ماحلة ، ولا تُسمعها
من الأصوات إلا أصداء .

يقظة لا بد منها قبل الرقاد ، لنفث رغبات نمت
بالنفس خلال حقب وأجيال ، منذ عاشت ومنذ كانت
في ضمير الغيب . في نفثها راحة كبرى ، وضجعة الموت
بها تشقى العظام .

ولكن صحو الموت لا تطول . فهي ومضة خاطفة
لا أكثر ، تحشد فيها الروح كل أضوائها ثم تجود بها
دفعة واحدة . ذلك أن زينات لم تلبث أن عافت اللهو ،
وقفلت راجعة إلى عالم زهدا الذي كانت قد هجرته إلى
أمد لتقوم بسياحة في الحياة . فعادت تعيش في معبدها مع
أرواح آمالها التي قضت نحبها من زمن ، وأرواح الألى
باتوا من رفاقها في ذمة الموت . وجددت صلتها بروح
أبيها ، واتصلت لأول مرة بروح جلفدان ، وأرواح
اللواتي قضين من ليداتها بالمشغل . وكانت كثيراً
ما تعلق على نفسها الأبواب ، وتحلق بأجنحة الضنى في
أثير السنين التي مضت ، حيث تبصر تحتها ظلال ربوع
أدركها العفاء ، وأطياف هاتيك الوجوه التي طواها

الزمان لما انطوى . وعندئذ لا تملك إلا أن تقلّب يدَ
الحسرة ، وتروح تناجي مَوْتَهَا وتقول ودموعها تسيل
لكل كلمة تنطقها :

— في ذمة الله رفاقُ ذَهَبَ الموتُ بريحهم ! وفي ذمة
الله زمانٌ غاب بصورهم ! كانوا وكنّا ، ولِلرَّدى سبقونا !
فواحسرتاه على أهلٍ خَلَتْ من رَوَحَتِهِم الدار ! وعلى
أناسٍ مثلنا غَدَوْا أرواحا ! أين راحوا ، كيف صاروا ،
يُسمِعُ صوتي ولا مجيب !
ثم تخر منهوكة القوى .

وهكذا آثرتُ زيناتُ أخيراً أن تحيا مع الموتي .
فهل كان هذا لأنها موشكة أن تتخذ مكانها بينهم ؟

...

ولمّا كملت هذه الحال ، إذ ظهرت عليها دلائل
انحلال الأعصاب . فكساها الهزال بين عشية وضحاها
ودبّ في هيكلها الوهن . وأصبحت تلهث لأقل مجهود
وتبرم بأخفت صوت . وكان يبدو من أطوارها أنها
تتوجس خيفة من المستقبل ، وتفزع من أشياء لا وجودَ

لها . كأنما كانت تشعر بأن الأقدار تتربص بها ، أو كأنها
كانت ترى هذه الأقدار وقد أخذت تتمثل لها في صورة أسد
أَفْعَى ليتحفز للوثبة الكبرى .

وكان الأرق لا يفتأ ينتابها فتقضى ليلها في فراشها
تتقلب . فإذا أغتف فنومٌ متقطع مضطرب ، تكتنفه
الأحلام المزجة التي تهبُّ على أثرها مفرّعة . مِنْ رُؤَى
ترى فيها نفسَها مغبرةً بالتراب ، وأخرى تراها فيها
تسقط في حفرة . وكثيراً ما كان يحضرها طيفُ أبيها أو
جلفدان ، فيأخذها من بين الحضور ويسير بها في بقاع
مجهولة . فكانت إذا أفاقت وأوَّلت ما رأت ، أيقنت أن
وقت الرحيل قد أزف ، وأن قبرها بات يطالعها من الغيب ،
والله يدعوها ويبعث إليها برُسُلِهِ من الأموات الذين
سبقوها إليه . كانت رغبة الموت قد فعلتُ فعلها فيها
ووصلت إلى آخر مراحلها . وكانت من جانبها قد أتمت
جولتها التي طافت فيها بالحياة مودعة . وإذن فلقد تهيأ
كل شيء ، ولم يبقَ إلا أن تموت .

الفصل السادس والعشرون

وطال المرض بزينات . ولم تزدها الأيام إلا دنواً
من القبر . فلما أصبحت وكأنها ميّت يسير على قدميه ،
ألقت بنفسها في فراشها قليلة الحيلة ، ولازمته ليلَ نهار .
وفي هذه البقعة المحدودة ، التي ينتهي إليها عادةً
مطافُ المرء بالحياة قبل أن يتركها ، تمددت العليلةُ ترقبَ
حَيَئِهَا خلال الساعات التي كانت تمر فوقها بطيئةً مملّةً .
واشتد القلق بمختار . وذهبت عبثاً جهوده في
إنقاذها . فنعاهها — إلا حبّها — إلى نفسه . وكان كلما
خرج من لَئِدْنِهَا يائساً ، أغلق على نفسه باب إحدى
الحُجَر ، وجعل يبكيها ويرثيها حية .

وتعاقبت أيام . وعَوَتْ بالحى ذئابٌ ونَعَبَت
بوم . فكان ذلك بمثابة الأجراس التي تنذر بدنو الأجل .
ثم بدأ يطوف بها ساقى المنون ، ويذيقها من الموت

سَكَرات . إذ أخذت تهذى فى يقظتها . أو تغيب فى
غفواتٍ طَوَّال .

عندئذ وجَّهَ القوم ينتظرون الفاجعة . وجثَّتم على
البيت صمْتٌ مخيف ، لم يكن يقطعُه إلا نحيبهم المَكْتوم ،
كلما خانهم الجِلْد فاتتحوْا جانباً يَبْكون .

...

وفى ذات ليلةٍ ممطرةٍ عاصفةٍ الرياح ، كأن الطبيعة
كانت تبكى فيها وتندوح ، على زهرةٍ من زهورها
الحِسَّان أخذ يحدِّق فوقها طائرُ الموت ، اعترت زينات
غيبوبةٍ طويلة ، لثَّمتها فيها الغمضُ ساعات .

وبالرغم من ذلك الهدوء الذى كان يسُود ملامحها ،
ليس يدرى غير من مات ، أيةُ معركةٍ كانت تنشب فى
الأعماق بين الحياة والموت ، جعلت أنفاسها تسرع
وعرقها يتصبب ؟

وكأنما تلقَّت أثناء غشيتها رسالةً من الغيب بأنها
مزمعةٌ الرحيل ، إذ لم تكد تفيق حتى نادى عفاف ، فلما
دنت منها تناولات يدها وراحت تخاطبها قائلة :

— أَيْ عَفَاف ! اغْفِرْ لِي وَلِأَبِي . جَنَى أَبِي ،
وَجَنَيْتُ عَاقِبَةَ بَغْيِهِ . وَقَدِيمًا أَخَذْتُ بِذُنُوبِ الْأَهْلِ
الْأَبْنَاءِ . لَقَدْ شَاءَ بِالْبَغْيِ أَنْ يَزُوجَنَا ، فَمَا تَزَوَّجْتُ أَخْتِي
بِمَنْ جَلِبَهُ لَهَا ، وَبَقِيتُ عُمَرَى عَانَسَا . لَا شَيْءَ حَرَامٍ
يُرْبِي عَلَى غَاصِبِهِ . فَالْقَمَّةُ الَّتِي انْتَزَعَهَا مِنْ فَمِكَ ، وَقَفْتُ
شَجِيًّا فِي حَلْقِهِ وَحَلَقَ جَلْفِدَانٌ وَحَلَقَ . مُسْكِينٌ كُتِبَ
عَلَيْهِ الْإِثْمُ فَأَيْتُمُ ! وَلَقَدْ يُطْغِنَا الدَّهْرُ لِنَشْقَى ، أَوْ
يَبْتَلِينَا بِمَنْ يَنْكُلُ بَنَا . تَنَوَّعَتِ الْأَسْبَابُ وَشَقَاؤُنَا
الْغَايَةُ . فَكَأَنِّي بِأَبِي قَبْلَ أَنْ يَظْلَمَكَ كَانَ يَعَاقِبُ عَنْ
ذُنُوبٍ لَمْ يَحْجُثْهَا . وَإِلَّا فَعَلَامَ نُكِيبَ بِجَلْفِدَانٍ وَبِي ؟
وَلَمْ ذَابَ عَلَيْنَا مِنْ قَبْلُ أَنْ يَأْتُمَ حَسْرَةً ؟ فَلَا يَنْقِصُ
عَلَيْهِ فَوَادُكَ فَمَا كَانَ إِلَّا مُسَخَّرًا . هَبِيهِ لَمْ يَظْلَمَكَ
أَفَكُنْتَ تَنْجِيْنِ مِنْ جَوْرِ الْقَدَرِ ؟ كُلَّنَا جِئْنَا لِنُعَذِّبَ
هَنَا . الْمَذْنِبُ مِنَّا وَالْبَرِيءُ . إِذْ مَاذَا جَنَيْتُ أَوْ جَنَى
مُخْتَارَ ، أَوْ جَلْفِدَانُ الَّتِي وَلَدَ مَعَهَا نَحْسَهَا ؟ بَلْ مَاذَا
جَنَيْتِ أَنْتِ أَوْ جَنَى مُصْطَفَى ؟ عَلِمَ اللَّهُ لَمْ نَكُنْ
بَاغِينَ وَلَا تَنْكَبُنَا الصَّوَابُ . فَهَلْ تُرَى نَكْفُرُ عَنْ

ذنوبٍ نجملها ، اقترفناها في عوالمٍ سابقة ، وعاشت فينا
 خلال حَيَوَاتٍ وَمَوْتَاتٍ عِدَّة ، حتى إذا ما آن
 أن نتطهر منها ، انتهى بنا المَطَاف إلى هذا المبكى
 لنغتسل عليه ؟ وهل تُرى تذهب بالتكفير بُرَحَاؤُنَا ،
 ويكون الرَّمْسُ بَدْءَ عهدٍ سلام ؟ فإذا ما المُوْجَعُ
 أُلْقِيَ بجنبه فيه ونَامَ ، كَفَّتْ عن وخزه آلامه ،
 وَأَحْسَنَ في الغمُض لَذَاذَةَ النسيان ؟

وكان لسانها قد ثقل فمجزت عن الكلام . ثم
 انطبقت جفونها وأخذت تحشرج حشرجةً راح لها صدرها
 يتزلزل كأنما تهبُّ فيه أعاصير . وإنْ هي إلا لحظةٌ حتى
 بدأ لونها يفرُّ مع روحها التي كانت تنسلُّ من جسدها
 وتنساب في السماء .

وتجمَّع القومُ حول سرير المحتضرة وقد حبسوا
 أنفاسهم وخفقوا عبراتهم ، ليرَوْها لآخر مرة وهي حية ،
 قبل أن يَهْرُب وجودُها ذلك الهرب المبهم الذي حَيَّرَ
 الخليقة ، فلا يعودوا يرونها إلا أطيافاً شاخصةً في
 الخيال ، أو زائرةً في الرؤى بين حينٍ وحين .

وفتحت زيناتُ عينيها مرةً أخرى . وكانت هذه
المرّة تتألفان أكثر من ذى قبل . ذلك أنها كانت قد
جمّعت فيهما الدماء لتسكبه دفعةً واحدةً في نهر العدم ،
كما يجمّع المصباحُ قَرَعَ زيتُه فُلُولَ لهبه ليلفظها
في الظلام .

ودنا منها مختارٌ وأخذ يحّدق فيها قبل أن يعاودها
الغمض . ولكنّ عينيها تجاهلتاه . فناداها ، ولكنّ
مستمعها أنكره . وهل كان ما طالّعها منه إلا أضفان
أحلام ، أو كان إلا أصداء ما سمعت من صوته ، حتى
تعرفه أو تجيبه ؟

وعاد يناديها ويكرر النداء . فاختلج جفنها وبدا أنها
بدأت تمى . ولكنها نظرت إليه ولم تجب ، وكأنها تقول :
كم أحاول ولا أقدر !

فهتف بها في لوعة اليأس :

— زينات ! ألا أفيق ! زينات ، أيتها الحبيبة !

هل تعرفينى ؟ من أنا ؟

وبعد جهد استطاع لسانها أن يفوه ، فراحت تجيبه

في لهجة متقطعة :

— أنت . . . أنت مختار الحبيب .

واستطردت :

— لم أنسك بعد . ولكنني سأنسك وشيكا ،
عندما أنسى كل شيء . هات يدك ، وضعها على صدري .
وتحسس قلبي الذي أحبك ، وباركه قبل أن يسكت
خفقته .

وانحدرت من عينيها دمعتان ، سالتا على خديها
الغائرين ، ثم اخففتا وراء أذنيها .

ووضع مختار يده على صدرها ، فطافت بفيها بسمته
هادئة ، خيّل معها للقوم أنها شعرت بالراحة ، وأن السلام
أخذ يُمطر قلبها ويُغرقه .

ثم أجالت بصرها في الحجرة ، فلما لحت أمها همست :
— أماه ! لهفي عليك ! كلنا ذهبنا ، وتركناك هنا
وحدك ! من لي بمن يخبرني بأنك ستحتملين بجلد
أيام الفراق ؟ وبأن التأسي سيكفكف دمعك ؟ — حتى
أغمض جفني راضية .

ولم تدري الأم ماذا تقول . وما زادت على أن مالت
على جبين ابنتها وعبراتها تنهمر ، فقبَّلته قبلة أودعتها
كل رمقها ، ثم نهضت بعدها وهي تكاد تكون بلا حياة .
وتنهدت زيناتُ ملء صدرها ، ثم راحت تقول وقد
بدا أنها تنظر إلى شيء بعيد :

— آه ! الآن أتركك يا دنيا ؟ وأشهد أني لستُ
آسى على ما فاتني منك ، ولا أنا على ما ذقتُ فيك من
مِحْنٍ آسفة . فكأنني بربي وقد شاء أن لا ألقاه إلا
نقية ، سلَّط على قلبي النارَ لتحرق أوضاره ، وعلى روحي
الدموعَ لتغسل أكرارها . فظلمتُ أكتوى آونةً
وآونةً أغتسل ، إلى أن زال رَيْبِي وشفَّ مني الجسدُ
وخَفَ ، حتى لكأنما أصبحَ من نورٍ أو نَبَتَتْ له
أجنحة ، وإذا بي أغدو في الانَّاسِ قَدَيْسَةً ، وفي الموقِ
من المقربين . فشكراً لك يا الله على ما أعدتُ إليَّ من
نقاء ، وما أنتَ بسبيل ردِّه عليَّ من غربة .
وشهقت شهقة من الأعماق ، عادت تتكلم بعدها
بهمسٍ شأنَ مسلوب الروح ، فقالت :

— طوبى لك يا نفس ! فهذه ليالى التكفير المظلمة
قد مضت ، ولاح للعين فجرُ أيام الدَّعة . ويا زيناتُ
نامى مطمئنةً ، فلقد آن لجسدك المضنى أن يستريح .
الوداع !

وما إن أتمت حملتها ، حتى أخذ نورُ حَدَقَتَيْهَا
يَغِيضُ كما يَغِيضُ الماءُ فى مَنَاقِمِهِ ، وَفَجْأَةً تَقْلُصُ وَجْهَهَا
وبدا أنها تعاني الماءَ مُوجِعًا ، كمن تَسْأَلُ من جسدها
شوكا .

وبعد لحظة ساد فيها الصمت ، كأنما حطَّتْ على رأسِ
الْبَرِيَّةِ طيرٌ ، فَتَحَتْ فَمَهَا ولفظتُ بمرارةٍ ذلكَ الْقَبَسَ
غيرَ المنظور ، الذى تنطبق بَعْدَهُ الأفواه إلى الأبد .

....

وصاح القوم :

— ماتت ؟ يرحمها الله !

ثم انثنوا على الجثمان المسجى يبكونه وينادونه
بأحَبِّ الأسماء ، والجثمان المسجى صامتٌ لا يجيب .
على حين كانت تجوز الفضاءَ فراشةٌ مُنَوَّرَةٌ ، فى

طريقها إلى عرش الخلود .

.....

وانكبَّ مختارٌ على حبيبته وراح يرمقها ، فلما رآها
لا تتحرك صرخ كمن أصابه مَسٌّ :

— زينات !

وكانت أولَ مرة ينطق فيها باسمها وهي ميتة .
فأحس بتبدُّل كبير طرأ على الحياة . بل أحس بأن
وجه التاريخ كله قد تغير ، وبأن اللحظة الحاسمة التي
مرت به من فورها قد فصلتُ بين عهدين متباينين ،
بل بين عالمين بينهما هوةٌ سحيقة : العالم الذي كانت
فيه زيناتُ حية ، والعالم الحاضر الخالي منها .

.....

وظلت الميَّتة طول الليل ممددةً في فراشها وذووها
من حولها يندبونها ، ويكادون من حرقة الحزن أن يشقُّوا
الثياب ويمزقوا الوجوه .

وكان من ينظر إليها وهي مسجاة يخالها حيةً ولكنما
أدركتها سِنَّة . ذلك أن سَكينة الموت كانت قد رَدَّتْ

عليها جمالها ، كما زادها بهاء ذلك اللألاء الذي غمر
وجهها ، لألاء من شملهم الله برضوانه .

وفي الصباح ، سار موكبها الذي زُفَّت فيه إلى
القبر ، بعد أن لم يُتَح لها أن تُزَف إلى حبيب .
ثم دُفنت إلى جوار أختها تلبيةً لرغبةٍ أبدتها قبل
أن تموت . وهكذا جاورت في الموت من أحبها في
الحياة ، وضحت من أجلها بأثمن ما يضحى به حي .
فلما تم لها أن تضع جنبها ، كانت قد انتهت آلامُ
إنسانةٍ عَبَرَت بالحياة ذات يوم كما عَبَر بها غيرها ،
لتكفّر عن ذنوبٍ تجهلها ولا تدري متى ارتكبتها
ولا أين ، ولكنها تلمس آيتها كما تلمسها أجمعين ،
في ذلك الضّرَم الذي لا يفتأ يجري مع دمائنا حاملاً
في موكبه النارى عصبةً من الشياطين ، نحسب أنها
صحبته من عوالمٍ مبهمّة قد سبقت لنا فيها حياة ،
وليس يخلصنا منها إلا هذه الآلام التي يضعها القدر
في طريقنا على غير اتفاق ، فما تلبث أن تلتهم حرقتهما

نيرانَ تلك المَرَدَّة ، حتى إذا ما أتت عليها أحسستنا
وكأنما قد انزاح عن صدورنا كابوسٌ ثقيل ، هو كابوس
تلك الشهوات التي تحمل الذنوب في أطوائها ، وإذا
بنا نبدو في صفاء أشعة النجم ، وفي مثل خفة الأثير
وأكثر .

وكذلك رقدتُ زيناتُ رقدتها الأخيرة ، بعد أن
انتهت أيامُ تكفيرها وتطهرتُ مما علق بها من
أوشاب . ولكن كانت على مقربةٍ منها - وبعد
اجتياز مدينة الأموات - حياةٌ صاخبةٌ بها أناسٌ
ما زالوا يكفرون .

الفصل السابع والعشرون

وعاد مختار الصَّديعُ إلى الحياة ، بعد أن وارى
الترابَ حبيته . ولكنها كانت حياةً أخرى ، وأرضاً
أخرى ، غير التي ألفها . كان أينما تَلَفَّتْ لا يبصر إلا
صحارى مقفرة ، لا طيرَ يجتازها ولا زرعَ يَنْبِت فيها ،
ولا قطرَ ينسديها ولا عينَ ماء . ولكن رمالاً في رمال ،
وكهولاً فاغرةً أفواها وتلالاً رابضةً كالضواري ،
وفضاءً فسيحاً لا تدرك العينُ منتهاه ، وتأخذ القلبُ من
سَعَتِهِ رهبة . صمتٌ متواصلٌ وخرابٌ ليس يشبهه
خراب . فهل تُرَى قَذفت به الأقدار إلى كوكبٍ غير
مأهولٍ أو بادٍ سكانه ؟ أم أنه أُسْدِلَ بينه وبين الدنيا
ستار ، فما أصبح يرى سوى العالم الفاني الذي يعيش
في نفسه ؟

ولكنه كان لا يفتأ يلُمح في الفياض شيئاً يلوح
كأنه معلق في الفضاء من فرط ما طوَّح به البعد ،

وقد نسجت عليه المسافاتُ أ كُداسَهَا . فكان يحسبه
واحةً وسرعان ما يقصد إليه ويسرع الخطأ . ولكنه
كان كلما دنا منه نأى ، حتى ليخال نفسه واقفاً وهو
يسير ، وأخيراً يوقن أنه سراب . كان هذا الشيء
زينات ، وإنها مذ قضت لسراب . أفتكون إلا الفراغ
الذي تركته ، ظل ينضح بطيفها ؟ والصمت الذي
خلفته ، باقى يردّد صداها ؟

وعندئذ لا يملك إلا أن ينفكش في عالمه الخرب ،
ويظل يبكي ويبكى ، وهو لا يدري ماذا جنى وعم يكفر ،
إلا أن يكون العجز ذنباً وكان يكفر عن عجزه عن ردها .

و ذات يوم زاره أستاذُ زينات القديم . وكان قد
قَدِمَ من الريف بعد غيبة أعوام .
وسأله عنها وحمّله إليها السلام . وأهاج السؤالُ
شجنَ الحبيب . وذكّره مرأى الربى العهود الخالية .
أيام كان وزينات في روضة عمه بُرْعُمَيْن . يسقيهما
الطلّ فيرتعشان ، ويحمّيهما الضوء فيضحكان . أيام

هَشَّتْ لَهَا الْأَنْدَاءُ ، وَبَشَّ لَهَا الشَّعَاعُ الْبَاكِرُ . أَيَّامُ
كَانَتْ حَيَاتُهَا فِي فَجْرِهَا ، وَالْعَمْرُ مِنْهَا وَلِيدُ . وَكَانَتْ
نَدِيَّةَ الْأَصْبَاحِ أَيَّامُهَا مَقْمَرَةَ الْأَمَاسِيِّ . فَمَا
يَبْصُرَانِ مِنَ الدُّنْيَا غَيْرَ جَانِبِهَا الْحَلَوِ ، وَلَا يَعْرِفَانِ مِنَ
الْهُمُومِ إِلَّا اسْمَهَا .

فَأَجَابَ وَأَدْمَعَهُ تَفْيِضُ :

— أَعَنْ زَيْنَاتُ تَسْأَلُنِي زَيْنَاتُ ذَهَبْتُ وَلَنْ تَعُودَ .
زَيْنَاتُ لَنْ تَشْهَدَهَا الرُّوَضَاتُ بَعْدَ ، وَلَنْ تَرُدُّ صَوْتَهَا
النَّسِمَاتُ . زَيْنَاتُ لَا أَنْفَاسَ لَهَا الْيَوْمَ وَلَا ظِلَّ . زَيْنَاتُ
مَاتَتْ وَالْمَوْتُ نَسِيَانُ .

وَهَكَذَا كَانَ يَثُورُ شَجْنُهُ ، كُلَّمَا هَبَّتْ نَسْمَةٌ تَحْمِلُ
عَطَرَ زَيْنَاتِ الْقَدِيمِ . وَمَا أَكْثَرَ الْأَنْسَامَ الَّتِي كَانَتْ تَحْمِلُ
عَطَرَهَا الْمَائِتُ ! حَتَّى إِذَا مَا رَقَدَتْ مُوقْتًا هَذِهِ الْأَنْسَامُ ،
انْطَوَتْ نَفْسُهُ عَلَى أَلْمَا الْكَبِظِيمِ ، فَبَدَأَ هَادئًا وَالثَّوْرَةَ فِيهِ .

...
وَفِي بَقْعَةٍ أُخْرَى وَمَنْزِلٍ آخَرَ ، كَانَتْ هُنَاكَ شَرِيفَةٌ
هَانِمٌ تَكْفُرُ التَّكْفِيرَ نَفْسَهُ ، وَلَسَبَبَ تَجْهَلُهُ هِيَ الْأُخْرَى .

فقد كانت منذ عادت من دفن ابنتها وصرخت في وجه
الجدران التي استقبلتها خاوية : « أيتها الجدران ! لم يعد
فيك إلا أنا ! » ، وهي فريسة لمرض الشلل ، فلم تكن
لتبرح حجرتها إلا محمولة ، لتزور قبور موتاها في المواسم
أو حين إلحاح الشوق .

...

أما عفافُ فع أن زينات كانت قد أوصت لها بجميع
ثروتها ، فقد آثرت أن تهَبَّها لجهات البر ، إذ لم تعد
بها للمال حاجة منذ لم تعد لها في الحياة رغبة . ثم صحبت
عكاظها وتلثمت بالخِمار الأبيض ، وقفلت راجعة إلى
المشغل . أجل ، عادت إليه لتكفر أيضاً كما يكفر مختار
وشريفة هانم . وكما كفر مصطفى من قبلُ وكفرت
زيناتُ وأبوها وأختها ، وكما كفر وسيكفر كل من
هبط الأرض أو سيهبطها ، عن ذنوب يحسبونهم
حَمَلوها من عالم آخر ، ثم جاءوا ليذنبوها في الدمع
على هذا المَبْكى .

...

وكان بين يومٍ ويومٍ يشاهد رجلٌ يرتدى السواد
ويضرب في القفار ، وقد أمسك بيده طاقةً من الزهر ،
حتى إذا ما بلغ السفح الذي تقوم عليه مدينة الأموات ،
وضعها على نصبٍ جديدٍ فيه ، ثم انحنى فوقه ينتحب ،
كما ينتحب العابد فوق هيكله .

كان هذا الرجل مختاراً ، يزور في الفترات قبر
حيبيته ، ليبكي ويكفر . . . عن ذنوبٍ لم يجنّها .

[تمت]

الخطأ والصواب

رقم الصحيفة	رقم السطر	رقم الكلمة	الصواب
٢٠	١٣	...	هذا الكلام تقوله شريفة هانم وسقطت الشرطة التي تدل على ذلك .
٢٠	١٥	...	هذا الكلام يقوله رمزي باشا وسقطت الشرطة التي تدل على ذلك .
٢٣	٧	١	غضة
٣٤	١	الأخيرة	قلب
٤٢	٩	الأخيرة	وتت
٦٠	٤	...	نقطة بعد كلمة زينات
٧٠	١١	٤	الجو
٧٤	٤	٣	هو (غير مسبوقه بواو)

الصواب	رقم الكلمة	رقم السطر	رقم الصحيفة
لرحيم	٣	١٤	٨٤
ازدردت	٢	٩	٨٥
كسانی	١	الأخير	١٠٩
غُفَمَا	٤	الأخير	١٢٩
من	١١	١	١٣١
أبدا	الأخيرة	٤	١٤٣
صِدَّتْكَ	الأخيرة	١١	١٩٥
ربحت	٣	١١	١٩٧
لسبيلها	٣	١٣	١٩٧
همس	٦	١٤	١٩٧
أذنها بضع	٨ و ٩	١٤	١٩٧
تلبث	٣	١٥	١٩٧
أَمَّنت	٥	١٥	١٩٧
اختفت	٣	١٦	١٩٧
إليه	٦	١٦	١٩٧

UNIVERSITY OF CALIFORNIA LIBRARY
 American Univ

1960 - 1961

رقم الصحيفة	رقم السطر	رقم الكلمة	الصواب
٢٠١	١	٧	القذى
٢٠١	٤	٥	أسرعهم
٢٠٤	١٣	١	صرخة
٢٠٤	١٥	٢	إليها
٢٠٤	١٦	٢٠١	كسرة الخبز
٢٠٨	١	٢	أعرفه
٢١٣	٥	٢	الآلام
٢١٣	٥	٧	أوهنته
٢١٣	٦	٣	المثاقلة
٢١٣	٨	٧	تتألاً
٢١٣	١٠	١	وهكذا
٢١٣	١٠	٥	شف
٢١٣	١١	٤ و ٣	فهم لفتها
٢١٦	١٢	٣	النشوة
٢١٦	١٢	٥	أمننا

رقم الصحيفة	رقم المطر	رقم الكلمة	الصواب
٢١٧	٥	الأخيرة	أنفى
٢١٧	١٤	١	وأشاحت
٢١٧	الأخير	٢	حلقنا
٢٧٥	٩	٣	السم
٢٨٥	١٤	٤	لعار
٢٨٦	٤	٥	مات
٢٩٣	٥	٧	الكستناء (بدلامن أبي فروة)
٣١٤	١	٧	فلقد
٣٤٠	١١	٦	الآخر

كتب المؤلف

رواية . فازت في مسابقة وزارة المعارف للقصة .	زينات
رواية . اشترت حق تمثيلها الفرقة القومية . وأقرتها	وحيد
وزارة المعارف لمكتبات مدارسها .	
رواية . أقرتها وزارة المعارف لمكتبات مدارسها .	سهير
مقطوعات من الشعر المنشور .	العبير
مقطوعات من الشعر المنشور .	الأغنية
مقطوعات من الشعر المنشور .	البلبل
مقطوعات من الشعر المنشور . أقرتها وزارة المعارف	الزنبقة
لمكتبات مدارسها .	
مقطوعات من الشعر المنشور .	مناجاة
بحث اجتماعي .	البطالة

تطلب من ناشرتها

مكتبة النهضة المصرية

٩ شارع عدلى باشا بالقاهرة

DATE DUE

تمت الطبعة الثانية في ١٩٤٧/١/٣١

LIBRARY American Univ. in Cairo

LIBRARY American Univ. in Cairo

LIBRARY American Univ. in Cairo

LIBRARY American Univ. in Cairo

LIBRARY American Univ. in Cairo



FROM THE
LIBRARY OF
THE
AMERICAN UNIVERSITY
IN
CAIRO

من مكتبة
الجامعة الامريكية بالقاهرة

17 SEP 2013

Library American Univ in Cairo Librari

Library American Univ in Cairo

Library American Univ in Cairo

Library American Univ in Cairo

Library American Univ in Cairo

